رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دكتور عبد الرحمن بشير

الحوض الغربى للمتوسط : عصر النفوذ الإسلامى

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الحوض الغربى للمتوسط عصر النفوذ الإسلامى

الغزو البحري والقرصنة - إمارة فراكسينيتوم

دكتور عبد الرحمن بشير

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

المشرف العام :

د. قاسم عبده قاسم

المدير التنفيذى :

شريف قاسم

مدير الإنتاج :

جمال عابد

تصميم الغلاف : القسم الفنى

بطاقة الفهرسة

بشير، عبد الرحمن

الحوض الغربى للمتوسط عصر النفوذ الإسلامى: الغزو البحرى والقرصنة - إمارة فراكسينيتوم / عبد الرحمن بشير . ط١- الجيزة : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ٢٠١٩م.

١٤٤ صفحة ، ١٧*٢٤سم

تدمك ٩٧٨٩٧٧٣٢٢٤١٨٩

١- التاريخ الإسلامى -

٢- حوض البحر الأبيض المتوسط

أ- العنوان

حقوق النشر محفوظة ©

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع المريوطية - الهرم- ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٣٨٧١٦٩٣

Publisher : EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5 , Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 33871693

website:WWW.Dar-Ein.com/Email:darein2016@gmail.com

الإهداء إلى . . .

أولادي أزهار فؤادي

أحمد ومحمد وعمر ويحيى

مع دعاء إلى الله ألَّا يشقيني بهم؛ وأن يرزقني برهم.

عبد الرحمن

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المحتويات

صفحة

مقدمة ٧

١- الغَزَواتُ البَحريَّةُ الإسلاميَّةُ لِجَنُوبي فرنسا

(١٢٠-٢٧٦ هـ/ ٧٣٧ -٨٨٩م) ٩

٢- القرصنة غربي المتوسط القرن ٢-٥هـ / ٨-١١م ٤٣

٣- فراكسينيتوم ٢٧٦-٣٦٢هـ/٨٨٩-٩٧٢م

والحضور المغاربي جنوبي فرنسا ٩٩

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تحوّل الحوض الغربي للمتوسط تدريجيًا منذ القرن الثالث الهجري إلى بحيرة إسلامية، وأصبحت بعض الجُزر تحت السيطرة الاسلامية، وبعضها الآخر خاضع لنفوذ المسلمين في شمالي أفريقيا والأندلس، وقامت في الموانيء الإسلامية على الساحل الشمالي والجنوبي دور صناعة السفن بكافّة أنواعها؛ ممّا شكّل قوة ضاربة مرهوبة الجانب في الحوض الغربي، وفي هذا المجال يسعدني أن أُقدّم للقارئ العربي ثلاث مقالات في تاريخ المنطقة البحري.

ففي المقالة الأولي التي نُشرت في حولية سمنار التاريخ الإسلامية والوسيط بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية العدد الخامس لسنة ٢٠١٧م بعنوان "الغزوات البحرية الإسلامية لجنوبي فرنسا ١٢٠-٢٧٦هـ/٧٣٧-٨٨٩م"، حاولت الدراسة رصد الغزوات البحرية على الساحل الغربي الأوربي، ومدى إسهام البحرية الإسلامية في هذا الوقت المبكر في حركة الفتوحات في ظل ضعف البحرية لدولة الفرنجة؛ ممّا سهّل على المسلمين إقامة موانٍ متقدمة على الساحل، والانطلاق منها علي طول الساحل الغربي حتي وصلوا إلى روما.

أمّا المقالة الثانية فهي بعنوان «القرصنة غربي المتوسط القرن ٢-٥هـ/٨-١١م» التي نشرت بحوليات الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة الكويت حولية رقم ٣٢ لسنة ٢٠١٢م، حيث تناولت الدراسة حركة القرصنة والقراصنة في الحوض الغربي للمتوسط، وفك حالة الالتباس بين مفهوم الجهاد البحري والقرصنة لدى الغرب الأوربي المسيحي والجانب الإسلامي، وتعقُّب حالات القرصنة في المنطقة وأثرها الاقتصادي والاجتماعي.

أمّا المقالة الثالثة فكانت بعنوان " فراكسينيتوم والحضور المغاربي جنوبي فرنسا ٢٧٦-٣٦٢هـ/٨٨٩-٩٧٢م "، وهي مداخلة في اليوم الوطني الرابع والعشرين للجمعية المغربية للبحث التاريخي الذي عُقد في تطوان من ٢٦-٢٨ إبريل ٢٠١٨م، تناولت المداخلة فترة مبكرة من

الاستيطان الإسلامي على التراب الفرنسي، وإقامة إمارة اكتنف تاريخها الغموض وظلّت صامدة لأكثر من ثمانين عامًا، وفرضت سيطرتها علي مناطق واسعة من الجنوب الفرنسي، وأقامت حياة مستقرة في إقليم البروفانس، وتوغُّل المسلمون باتجاه الشمال، وتحكَّموا في مسارات المرور من الغرب الأوربي إلي إيطاليا؛ بفرض سلطانهم على ممرات جبال الألب، وخلَّفوا وراءهم عادات وتقاليد وإسهامات في المجالات الانتاجية المختلفة .

والهدف من جمع هذه المقالات بين دفتي كتاب؛ هو محاولة التسهيل على الباحثين المهتمين بالتاريخ المتوسطي في الاطلاع على هذه الأعمال دون عناء؛ قاصدًا وجه المولى تبارك وتعالي.

أد .عبد الرحمن بشير

صيف ٢٠١٩م

(١)

الغَزَواتُ البَحريَّةُ الإسلاميَّةُ لِجَنُوبي فرنسا

١٢٠-٢٧٦ هـ/ ٧٣٧-٨٨٩م

تتصدَّي هذه الدِّراسَةُ لفترةٍ تَاريخيَّةٍ مُهمَّةٍ من تاريخ المُسلمينَ في منطقَةِ السَّواحلِ الشَّرقيَّةِ الجَنوبيَّةِ لأوُروبا الغربيَّةِ الَّتي تمتدُّ مِنْ المَوَانئ الأندلسيَّةِ في شَرْقِ الأندلُسِ حتَّى جُنْوَةَ في شَمَالِ غَرْبِ إيطاليا، فقد أَفْرَزَ التَّدَافُعُ بين قُوَّتين هُمَا المسلمون وسُكَّانُ هذه المَنَاطِقِ واقعًا مَلْموسًا على الأرضِ، وانتهى بإقامَةِ قاعِدَةٍ للمُسلِمين في مَوْقِعٍ مُتقدِّمٍ على سَاحِلِ المتوسِّطِ جنوبي فرنسا تُدْعَى فراكسنيتيوم سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م، وظلَّتْ في مرحلَةِ صِرَاعٍ حتَّى زَوَالِهَا، وتهدفُ الدِّرَاسَةُ إلى رَصْدِ الإرهَاصَاتِ الأولى للتَّقدُّمِ البحري لمسلمي الأندلُسِ خَلْفَ جِبَالِ البَرَانِسِ حتَّى تأسيسِ فراكسنيتوم.

تكمنُ مُشكلةُ الدِّراسَةِ في المَادَّةِ التَّاريخيَّةِ المُتَاحَةِ عن نَشَاطاتِ هَؤُلاءِ البَحْريين؛ فالنَّشَاطَاتُ الرَّسميَّةُ التي تُنفذُهَا البحريَّةُ الحكوميَّةُ بَرَزَتْ في كِتَابَاتِ المُسلمين مَصْحُوبَةً بِمُبَالَغَاتٍ جَمَّةٍ، أمَّا نَشَاطُ البحريَّةِ الخَاصَّةِ التي قام بها مسلمي الأندلسِ؛ وهي الأكثرُ والأعمُّ؛ فَصَمَتَتْ عنها تلك المَصَادرُ، وتُرِكَتْ للمَصَادرِ الغربيَّةِ خَاصَّةً حوليَّاتِ الأديرةِ، وكِتَابَاتُ الأَسَاقِفَةِ مُهمَّةٌ للتَّأريخِ لِهَذهِ النَّشاطَاتِ، الأمرُ الذي يَضَعُنَا في حِيْرَةٍ أمامَ الرُّؤيَةِ الأُحاديَّةِ المُتَعَصِّبَةِ للأَحْدَاثِ. لذلك فهي مُحَاوَلَةٌ محفوفَةٌ بالمَخَاطِرِ، سبَقَنَا إليها عددٌ من الرُّوَّادِ استقُوا معظمَ معلوماتِهِمْ مِنْ كتَابِ جوزيف رينو "الغَزَوَاتُ الإسلاميَّةُ في فرنْسَا"

G.De Rey ,Les Invasions des Sarrasins en Provence ,Marseille. 1878

حَاولتْ الدِّرَاسَةُ الرُّجُوعَ إلى المَصَادِرِ الأصليَّةِ مُترجمَةً من اللاتينية إلى الإنجليزيَّةِ والفرنسيَّةِ؛ مثل حوليَّاتِ القديسِ برتن، وحوليَّاتِ دير نوفاليس وغيرها من الحوليَّاتِ الديريَّةِ، ورحلةِ الأسْقُفِ ليو

تبراند أسقُف كرمونا Of Cremona Liutprand 920-972م التي قامَ بها إلى القُسطنطينية كسفيرٍ للإمبراطور أوتو الأول Otto 1 Gread ملك ألمانيا ٩٣٦-٩٦٢م إلى الإمبراطور نقفور فوقاس الثاني ٩٦٣-٩٦٩م في عام ٩٦٨م التي تُعتبرُ من أهمِّ المَصَادِرِ للتَّأْريخِ للمسلمين في مناطق الساحل الأوربي للمتوسط، حيثُ عَاصَرَ الأسقفُ فترةً تقتربُ من نِصْفِ قرنٍ من استيطَانَ المُسلمين في المِنْطَقَةِ.

أمَّا المَصَادِرُ العربيَّةُ فتحدَّثَتْ عن أعمالِ البحريَّةِ الإسلاميَّةِ الرَّسميَّةِ، أمَّا أعمالُ البحريَّةِ الخاصَّةِ فعكستْهَا الحوليَّاتُ الدّيريَّةُ وشكاوَى الحُكَّامِ لأُمَرَاءِ قُرْطبةَ، والمُحَفِّزُ لهذه الدِّرَاسَةِ هُوَ الغُمُوضُ الذي لفَّ العمليَّاتِ البحريَّةَ الخاصَّةَ التي تَنْعَتُهَا المَصَادِرُ الإسلاميَّةُ بالغَزْوِ والجِهَادِ مِنْ جِهَةٍ، وتَنْعَتُهَا المَصَادِرُ اللاتينيَّةُ بالقَرْصَنَةِ وأعمالِ السَّلْبِ والنَّهْبِ من جِهَةٍ أُخْرَى، وهو ما استنفرَ عددًا من الباحثين الغربيين لتَّصدِّي لهذه الظَّاهِرَةِ وعَرْضِهَا وسبْرِ أَغْوَارِهَا، وَاكْتَفَتْ الدِّراساتُ العربيَّةُ ببعضِ السُّطُورِ التي تَمْجَّدُ بُطُولاتِهم فَقَطْ؛ ممَّا دَعَى أحدُ المُستشرقين وهو مانفرد وينر[1] Manfred W. Wenner أن يقول: «إنَّ العَالَمَ الإسلاميّ لم يَعتبرْ الأحْدَاثَ والغَزَواتِ التي تَمَّتْ في أقاليم الأَلْبِ وفرنسا وشمالِ إيطاليا وجنوبِ سويسرا إلَّا مُجَرَّدَ إغَارَاتٍ صيفيَّةٍ رُوتينيَّةٍ ناجحَةٍ، بينمَا هُنَاكَ الكثيرُ من الأحداثِ التي ترتَّبَتْ عليها ولم تَجْذِبْ انتبَاهَهُمْ».

العَرْضُ الجُغْرَافِي ومواني المنطقة :

المجالُ الحيويُّ للدِّراسَةِ هُوَ مَنطقَةُ الشَّمَالِ الغربيِّ للمُتوسِّطِ، حيثُ يبدأُ مِنْ سَوَاحِلِ الأندَلُسِ الشَّرقيَّةِ على المُتوسِّطِ وجُزُرِ البليَارِ إلي جُنْوةَ في شَمَالِ غربِ إيطاليا علي البَحْرِ اللُّورجي Liguria، وتحتوي هذه السَّواحِلُ على عددٍ من الخُلْجَانِ؛ أشهرُهَا خليجُ ليون، كَمَا تمتدُّ الدِّرَاسَةُ إلي منطقَةِ البَحْرِ التِّيراني الذي يفصلُ بينَ جُزُرِ كورسيكا وسردنيا وغربِ إيطاليا، هَذِهِ المَنَاطِقُ شَهِدَتْ نشاطًا ملحوظًا للبحريَّةِ الإسلاميَّةِ مُنْذُ القرنِ الثَّانِي الهِجْري/ الثامنِ الميلادي.

---

(1) M. WENNER, " the Arab/ Muslim presence in medieval central Europe ", JOURNAL OF MIDDLE EAST STUDIES,12 1980 p.73 .

تتمتَّعُ السَّواحلُ الشَّماليَّةُ للمُتوسِّطِ بتضاريسَ مَيَّزَتْهَا عن السَّواحلِ الجنوبيَّةِ خَاصَّةً مِنْ مرسيليا حتى إيطاليا ؛ فهى سَوَاحلُ صخريَّةٌ تحتوي على مِئَاتٍ من القِمَمِ الجبليَّةِ الصخريَّةِ جبالِ الألْبِ التي يزيدُ ارتفاعُهَا عن ٣٠٠٠متر مُرتفعَةً عن البحرِ، لذلك يُمْكِنُ رُؤْيَةُ الجِبَالِ جَيِّدًا من عَرْضِ البَحْرِ، وتحتوي على أعدادٍ كبيرةٍ من الخُلْجَانِ كثيفَةِ الأَشْجَارِ التي تُمَكِّنُ السُّفُنَ مِنْ الاحْتِمَاءِ بِشَوَاطِئِهَا في أَوْقَاتِ الطَّقْسِ السَّيِئِ [١].

وَفَّرَتْ هذه البيئةُ الطَّبيعيَّةُ للسَّواحلِ الشَّماليَّةِ الغربيَّةِ للمتوسِّطِ، فَضْلا عن الفَرَاغِ السُّكَّانِي مُنَاخًا مُنَاسِبًا لغَزْوِ المِنْطَقَةِ مُنْذُ زَمَنٍ بعيدٍ، حيثُ رَسَتْ مَرَاكِبُ الإغريقِ سنة ٦٠٠ ق.م على هَذَا السَّاحلِ، وَأَقَامَتْ مِيْنَاءَ مرسيليا[٢]، وكذَلكَ ضَرَبَتْ القَبَائِلُ السُّلافيَّةُ Salluvii علي جبالِ الألْبِ البحريَّةِ، وعلى سَاحلِ البحرِ اللُّورجي منذُ قُرُونٍ قبلِ الميلادِ، حيثُ كانَتْ المنطقةُ ملاذًا لهم بِفَضْلِ تضاريسِهَا الوَعْرَةِ وموقعِهَا الاستراتيجيِّ؛ مِمَّا سَهَّلَ لهم عمليَّاتُ النَّهْبِ والسَّلْبِ بَرًّا وبحرًا، وعرقلُوا حركةُ المُرُورِ، وقَطَعُوا الطَّريقَ على جُيوشِ الإمبراطوريَّةِ الرُّومانيَّةِ في طريقِهَا إلى مرسيليا وأسبانيا؛ التي وَصَلَتْ إلى المنطقَةِ بِطَلَبٍ من مرسيليا [٣].

أَجْبَرَ الرُّومانُ في سنة ١٢٥ ق م هذه القبائلَ السُّلافيَّةَ بعدَ صِرَاعٍ دامَ ثمانين عامًا على النُّزُوحِ مِنْ الشَّريطِ السَّاحليِّ إلى الدَّاخلِ لَمسافَةٍ أكثرَ مِنْ ميلٍ؛ لفتحِ طريقٍ سريعٍ للجُيوشِ الرُّومانيَّةِ التي سادَتْ المنطقةَ آنذاك[٤]، وهذا يُدلِّلُ علي انعدامِ المُقَاوَمَةِ المحليَّةِ في المنطقَةِ؛ بسببِ الفَرَاغِ السُّكَّانِي الذي سبَّبته الطَّبيعَةُ الجغرافيَّةُ للمَنْطقَةِ وسيطرةُ الغُزَاةِ، وهَذَا يَدْحَضُ قَوْلَ البَعْضِ[٥] أَنَّ الغزواتِ البحريَّةَ للمسلمين دَمَّرَتْ الوحدَةَ الثَّقافيَّةَ للمتوسِّطِ، وأدَّتْ إلى ابتعادِ المَرَاكِزِ الثَّقافيَّةِ شمالاً، فمِنْ

---

(1) J. PRYOR, Geography, and war, studies in the maritime history of the Mediterranean 649-1571,Cambridge University,1992,p.21.

(2) E.SEMPLE, " The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin and Its Northern Breac - es as Factors in History" ANNALS OF THE ASSOCIATION OF AMERICAN GEOGR - PHERS, Vol. 5 1915 ,p.50-51.

(3) E.SEMPLE, The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin,p.52.

(4) E.SEMPLE, The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin,p.52.

(5) M. Ballan," Fraxinetum: an Islamic frontier state in tenth-century Provence" JOURNAL OF MEDIEVAL AND RENAISSANCE STUDIES,vol.412010p.69.

الواضح أنَّ الذي فَرَضَ ذلك هو استباحَةُ هذه السَّواحِلِ من جَانبِ القُوَى الكُبْرَى وغيرها منذُ قبلِ الميلادِ، فضلًا عن الفَرَاغِ السُّكَانِي؛ بسببِ قَسْوَةِ الطَّبيعَةِ في جنوبِ البلادِ.

لَعِبَتْ موانِي السَّاحلِ الفرنسي التِّجاريَّةُ دورًا كبيرًا في النَّشاطِ الاقتصاديِّ مُنْذُ أَوَاخِرِ القَرْنِ الخَامسِ حتَّى نِهَايَةِ القَرْنِ السَّابعِ الميلادي خلالَ العَصْرِ الميروفنجي، حيثُ تَوَاصَلَتْ مع منظومَةِ التِّجَارَةِ الرُّومانيَّةِ الكبيرةِ المَبْنِيَةِ علي حقِّ تبادُلِ استعمالِ الموانِي والتَّعَاوُنِ بين كُلِّ دُوَلِ المتوسِّطِ، وكانتْ موانِي البروفانس بشكلٍ خاصٍّ هي المدخلُ الرَّئيسي للتجارةِ مع الشَّرقِ[١]، ثُمَّ تحوَّلَتْ هذه الموانِي في القرنِ الثَّامنِ والتَّاسعِ وبدايَةِ العاشرِ إلى موانِي مَحليَّةٍ، كانتْ التِّجَارَةُ فيها لا تلعبُ إلا دورًا عارضًا، وفي مساحةٍ جُغرافيَّةٍ محدودةٍ جدًا، ويعزُو مُؤرخو الفترةِ ذلك إلى الغَزَوَاتِ الإسلاميَّةِ في المنطقَةِ.[٢]

يُعتبرُ ميناءُ مرسيليا أقدمَ موانيء البروفانس؛ الذي تمَّ اختيارُ موقعِهِ بِعِنَايَةٍ من جانبِ الإغريقِ عندَ انتهاءِ تلالِ البروفانس على الجَانبِ الشرقيِّ من مَصَبِّ نهرِ الرُّوْنِ، بعيدًا عن تهديداتِ الفيضَانِ وترسُّبَاتِ الطَّمْيِ، وبالقُرْبِ من أرخبيلٍ يضمُ عددًا من الجُزُرِ الصَغيرةِ تحميه[٣]. هذا الموقعُ أَهَّلَ الميناءَ للقيامِ بدورٍ كبيرٍ في العلاقَاتِ التِّجاريَّةِ في المنطقَةِ؛ خاصَّةً التِّجارةَ التي تسلكُ نَهْرَ الرُّون من وإلى شمالِ ووسطِ أوربا، حيثُ منابعِ النَّهرِ في سويسرا الذي يخترقُ غالة إلي مصبِّهِ في الجنوب علي المتوسط لمسافة ٤٣٠ميلاً ٥٥٠كم[٤]، وأعطى هذا النَّهرُ أهميَّةً فريدةً من نوعها في غربِ المتوسِّطِ، حيثُ مَنَحَ سُهولةً في الاتِّصَالِ مع المَنَاطِقِ الدَّاخليَّةِ والقاريَّةِ، وأصبحَ منفذًا جنوبيًا لضفيرةٍ كبيرةٍ من الطُّرُقِ البريَّةِ الشَّماليَّةِ[٥].

يلي ميناءَ مرسيليا من حيثُ الأهميَّةِ التِّجاريَّةِ في شمال ووسط أوربا ميناءُ آرل Arles ، وهو

---

(1) F. GANShof, "notes sur les ports de provence du v111e au xe siècle", REVUE HISTRIQUE 183, 1938,p.28.

(2) F. GANShof, notes sur les ports de provence,p.28 .

(3) E.SEMPLE, The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin, ,p.50-51.

(4) E.SEMPLE, The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin,p.48.

(5) E.SEMPLE, The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin,p.59.

ميناءٌ نهريٌّ مُتَّصلٍ بالبحرِ عن طريقِ دلتا الرُّون[١] ثم أربونة Narbonne القريبة من البحر ويتمُّ دخولُ السُّفنِ الآتيةِ إليها عن طريقِ المُستنقعَاتِ التي تُحوطُهَا من كُلِّ جانبٍ[٢]، ثم برشلونة التي تبعد عن طركونة Tarragone خمسون ميلاً تقريبًا، ثم طركونة التي تبعد عن طرطوشة Tortosa بخمسين ميلاً تقريبًا، وهي على نحرِ البحرِ، ثُمَّ طرطوشة، وهي ميناءٌ علي نهرِ إبرة، بينها وبين المتوسط عشرون ميلاً تقريبًا، تتشابَهُ في ظُرُوفِهَا الجغرافيةِ مع آرل [٣].

وتُوضِّحُ خريطةُ السَّاحلِ وُجُودَ ثَلاثَةِ موانٍ في إقليمٍ واحدٍ هو البُرتاتُ، وهو تَخْمٌ طبيعيٌّ بين شِبْهِ الجزيرةِ الأيبريَّةِ وأوربا، حيثُ تقعُ برشلونةُ ثُمَّ طركونةُ ثُمَ طرطوشَةُ، تفصل بين الموانِي الثلاث مسافةٌ لا تزيدُ عن خمسين ميلاً[٤]، ويخلُو بقيَّةُ السَّاحلِ من برشلونةَ حتَّى جُنْوَةَ من موانٍ مُعتبرةٍ، سوى مرسيليا، أمَّا ميناءُ آرل وميناء أربونَةَ فهمَا ميناءان داخليان، ويرجع ذلك طبيعةِ السَّاحلِ الصَّخري للمنطقةِ[٥]، وارتبطتْ هذه الموانِي بخطُوطٍ ملاحيَّةٍ؛ فعلى سبيلِ المِثَالِ هناكَ خَطٌّ ملاحِيٌّ يربطُ غربَ ووسطَ أوربا بالأندَلُسِ من خِلَالِ نهرِ الرُّوْنِ، حيثُ تأتِي المَرَاكِبُ من تلك المَنَاطِقِ حتَّى آرل، ومنها إلى المتوسِّطِ ثُمَّ برشلونة، ومنها إلى طركونة ثم إلي طرطوشة، وخطٌّ أخرُ من آرل إلى جُنْوَةَ؛ تستطيعُ المراكِبُ السَّريعَةُ قَطْعَ المَسَافَةِ فيه خلالَ أَحَدَ عشرَ يومًا[٦].

ساعدتْ الظُّرُوفُ الطَّبيعيَّةُ مراكِبَ الأندلسيين الصَّغيرةَ في الوصولِ بسهولةٍ إلى مناطِقِ ساحلِ الفِرنْجَةِ بإمكانيَّاتٍ محدودَةٍ، من خلالِ المَسَارَاتِ البحريَّةِ الضَّيِّقَةِ المُحَاذِيَةِ للشَّاطئ، التي لا تحتاجُ إلي مراكبَ كبيرةٍ كالتي تُبحرُ في عرضِ البحرِ؛ إذْ أنَ المِلاحَةَ بالقُرْبِ من السَّاحلِ تُوَفِّرُ رِحْلَةً آمِنَةً، وهذه السَّواحِلُ مهيأةٌ بالطَّبيعةِ للمَراكبِ الخفيفَةِ ذاتِ المَجَاديفِ أو الشِّرَاعِ أكثرَ منها بالنِّسبَةِ

---

(1) E.SEMPLE The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin,p.58.

(٢) جوزيف رينو : الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا في القرن الثامن والتاسع والعاشر الميلادي، ترجمة: إسماعيل العربي ، دار الحداثة بيروت بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية ،ط١ ١٩٨٤م، ٥٠ .

(٣) الإدريسيأبو عبد الله محمد بن عبد العزيز الشريف ت٥٨٨هـ/١١٦٢م ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية ، ١٩٩٤م ، ٥٥٥ ، ٧٣٤ .

(٤) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ٥٣٨ .

(5) J. PRYOR, Geography, and war,p.21.

(6) F.Ganshof, notes sur les ports de provence,p.33.

للسَّواحِلِ الجنوبيَّةِ[١]، حيثُ اشتهرتْ طرطوشة بصناعَةِ هذه السُّفُنِ مِنْ خَشَبِ الصُّنوبَرِ المُنْتَشِرِ في جِبَالِهَا [٢].

سَادَ في الحَوْضِ الغربيِّ للمُتوسِّطِ رياحٌ غيرُ مُؤثِّرَةٍ على نشاطِ البحريين، حيثُ يمكنُ التَّغَلُّبُ على مُعْظَمِ الصُعوباتِ بسُهولَةٍ ويُسْرٍ، فيما عدَا شهورِ الشتاءِ؛ لتفادِي المَخَاطِرِ النَّاتجَةِ عن انخفَاضِ الرُّؤيَةِ بالنسبَةِ للملاحَةِ الشَّاطئيَّةِ، نتيجةَ تَزَايُدِ الضَّبَابِ[٣]، فإنْ داهمتهم تلك الفترة وهم في مناطقِ الغزو لجئوا إلى السَّواحِلِ والجُزُرِ غيرِ المَأْهُولَةِ، وفي الخلجان الصغيرة كثيفة الأشجار حتى تتحسَّن الظروفُ، لذلك نشطت الملاحةُ في الفترة من أبريل حتى سبتمبر[٤].

أخضعتْ البحريَّةُ الإسلاميَّةُ هذه الموانئ لفتراتٍ مُتفاوتةٍ ومتباينة منذ نهاية القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي، ما عدا طرطوشة التي ظلَّت أولَ ميناء أندلسي يلي الفرنجة حتى سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، حيثُ شهدت هذه الفترة صعود ظاهرة غزو البحر أو جهاد البحر عن طريق الغارات البحرية الهجومية؛ ممَّا سيكون له أثرٌ عميقٌ طوال القرن التاسع والعاشر الميلادي، ومعظم الغزوات البحرية للمسلمين في المنطقة التي سجلتها الحوليات الديرية كانت خلال تلك الفترة، ونعتتها بالقرصنة، أما المؤرخون المسلمون فوصفوا القائمين عليها بأنهم مجاهدون يُنفِّذُون أحد أركان الدين الإسلامي[٥].

الغَزْوُ البَحْرِيُّ الإسلامِيُّ الرَّسمِيُّ:

اصَّطبغ الصِّراعُ البحري بالصِّبغَةِ الدِّينيَّةِ، وأصبحَ كأنَّهُ صراعًا بين الإسْلام والمسيحيَّةِ، وكانتْ اتِّفاقياتُ ومُعاهداتُ السَّلامِ بين الجانبين تمثِّلُ مُجرَّدَ فتراتٍ عارضةً لا أكثر[٦]، ويرى Manfred

---

(1) J. PRYOR, Geography, and war,p.21.

(٢) يقدر الإدريسي المسافة مرة ب١٢ميل ص٥٥٥ ، وأخري ب٢٠ميل ص٧٣٤ .

(3) J. PRYOR, Geography, and war,pp.87,89.

(4) F.Ganshof, notes sur les ports de provence,p.34.

(٥) عبد الرحمن بشير: " القرصنة غربي المتوسط القرن ٢-٥هـ/٨-١١م "، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية رقم ٣٢ يونيو ٢٠١٢م، ٢٠.

(٦) عبد الرحمن بشير : القرصنة ، ٢٤.

Wenner [١] أنَّ هذه الغزوات كان غرضُها الأساسيُّ هو إعلاءُ القيمَةِ الدِّينيَّة للمُشاركين فيها، أو الجهادُ الذي يُؤدِّي إلى توسيعِ ديارِ الإسلام، بَيْدَ أنَّ المُشاركين حصدُوا كميَّات كبيرةً من الغنائم؛ ممَّا ينمُّ عن وجودِ دافعٍ آخرَ صار على جانبٍ كبيرٍ من الأهميَّة، وهو مُضاعفةُ ثَرائهِمْ الشَّخصي، يُؤكِّدُ ذلك - علي سبيلِ المثالِ - أنَّ بعضَ اليهودِ والمسيحيين المُستعربين شاركُوا في تلك الغزَواتِ البحريَّةِ الإسلاميَّة؛ فقد كانتْ الموانيء البحريَّةُ في الأندلُسِ تضُمُّ بين سُكَّانها أعدادًا كبيرةً من أهلِ الذِّمَّة الذين تعاونُوا مع المسلين بغرضِ المَنْفَعَة وليسَ الولاءُ، وتحدثنا المَصادرُ عن أعدادٍ كبيرةٍ من اليهودِ قَطَنَتْ المرية وطركونة [٢]، وهما ضمن الموانى التي خرجت منها مراكبُ الغُزَاة.

ويُضيفُ آخرُ[٣] إلى دافعِ الجِهَادِ والثَّراءِ دافعًا آخَرَ؛ هو توفيرُ مَنفذٍ للعنَاصرِ العربيَّةِ والبربريَّةِ المُضطربةِ في شِبْهِ الجزيرةِ الأيبريَّةِ لتوجيهِ طاقاتهم ضدَّ خُصُومهم الخارجيين، وساعدهم علي ذلك تراجُعُ السُّلطةِ المركزيَّةِ للعالَمِ الإسلاميِّ على الأطرافِ وانتشارُ فِقْهِ الجِهَادِ، ويبدو أنَّ مُعاصرةَ غزواتِ المسلمين لغزواتِ الفايكنج الاسكندفايين والمجريين في أوربا جعل المؤرخين لا يُفرِّقُون بينهم جميعًا باعتبارهم قراصنةً داوفعُهُم وأهدافُهم واحدةٌ؛ هي السَّلبُ والنَّهْبُ ودمارُ المحَاصيل[٤]، وقد يبدو أنَّ هناك تشابُهًا في بعضِ الدَّوافعِ بالنِّسبَةِ لجماعاتِ الغزو البحريِّ الإسلاميَّة الخاصَّة، لكن اختلفتْ النَّتائجُ وتباينتْ؛ حيثُ تبنَّى الغُزاةُ المسلمون إقامةَ حياةٍ مُستقرَّةٍ في المَناطِقِ التي استهدَفُوهَا والتَّعايُشَ مع سُكَّانِهَا بخلافِ الآخرين الذين كانُوا كالجرَادِ المُنْتَشِرِ؛ يقضِي على الأخضرِ واليَابسِ

تكوَّنتْ بواكيرُ البحريَّةِ الأندلُسيَّةِ في إقليمٍ صغيرٍ بين طركونة وطرطوشة بمبادراتٍ محلية[٥]، وبدأتْ تطفُو على السَّاحةِ منذُ بدايَةِ القَرْنِ الثَّانِي الهجري الثامن الميلادي، وأصبح لها دورٌ فعَّالٌ

---

(1) the Arab-Muslim,p.63.

(٢) ابن حيان ابن حيان القرطبي ت٤٦٩هـ/١٠٧٦م : المقتبس في أخبار الأندلس ،ج٥، تحقيق : شالميتا ، الرباط ١٩٧٩م، ٥٥٥ .

(3)M. Ballan, Fraxinetum,p.54.

(٤) ليفي بروفنسال : تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلي سقوط الخلافة القرطبية ٧١١-١٠٣١م ، ترجمة : علي عبد الرءوف البمبي وآخرون ، المشروع القومي للترجمة ، المجلس الأعلي للثقافة ، القاهرة سنة ٢٠٠٠م ، ٤٠٩.

(٥) أرشيبالد .ر. لويس : القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة : أحمد محمد عيسي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٠م ، ١٥٩-١٦٠.

في عمليَّاتِ الفتحِ الإسلاميِّ خَلْفَ جبالِ البرانسِ، حيثُ استعانَ بها السَّمحُ بن مالك الخولاني والي الأندلس ١٠٠-١٠٣هـ/٧١٩-٧٢١م في الدَّعم البحريِّ لفتح إقليم سبتمانيا Septemania [١] عام ١٠٢هـ/ ٧٢١م ، وكان دورُهَا هو مُهاجمَةُ مدينةِ أربونةَ عاصمةَ الإقليمِ من البحرِ؛ ممَّا ساعدَ قُواتَ السَّمحِ البريَّةَ في دخُولِ المدينةِ[٢].

فطنَ المسلمون لقيمةِ التَّقدُّم من البحرِ لعدم وُجُودِ مُقاومَةٍ، وبفضلِ قُرْبِ أربونة من البحرِ وإحاطَتِهَا بالمُستنقعَاتِ كانت مدينةً يَسهُلُ دخولُ السُّفُنِ الآتية من الأندلُسِ إليها[٣]، ولمَّا كانتْ أربونةُ بعيدةً عن ساحِلِ البحرِ؛ ويحتاجُ الوُصُولُ إليها اجتيازَ المُستنقعَاتِ، لذلك اختارَ السَّمحُ مدينةَ برشلونةَ لكي تكونَ مرفأً لمراكبِ المسلمين؛ لوقُوعِهَا على السَّاحلِ مُبَاشَرةً، فضلا عن قُرْبِهَا من ممَرَّاتِ جبالِ البرتاتِ خاصَّةً ممَرَّ باربنيان Perpignan الواصلَ بين أربونةَ وبرشلونَةَ[٤].

بدأتْ البحريَّةُ الأندلسيَّةُ عملياتِهَا المُتقدِّمَةَ علي السَّاحلِ الفرنسي، حيثُ قاموا بغاراتٍ على البُلدانِ المُجَاورةِ، واستهدَفُوا الكَنَائسَ والأَدْيِرَةَ لمَا تتمتَّعُ به من ثَرَواتٍ طائلَةٍ[٥]، وعلي هذا السَّاحلِ الذي يبعدُ عن غرناطةَ ومالقَةَ حوالي ألف ميل رَسَتْ المَرَاكبُ الأندلسيَّةُ دون خوفٍ أو تهديدٍ[٦]، ومن ثَمَّ تبلورت فكرةُ غزو فراكستيوم بعد ذلك بقرنٍ ونصف؛ لأنَّهَا تعدُّ تطويراً لعمليَّاتِ الغزوِ البحريِّ بسببِ سُهُولَةِ الإبْحَارِ في سواحِلِ الفرنجةِ، وتعدُّ أربونةَ المحصنةَ من البرِّ بسببِ مَنَاعَتِهَا الطَّبيعيَّةِ [٧]، وسهولَةِ الوُصُولِ إليها من الأندلُسِ عن طريقِ البحرِ نموذجًا كان ماثلاً أمام أحفادهم الذين غزو فراكسينيتوم؛ إذْ ظلَّتْ أربونةَ صامدةً بفضلِ المُسَاعداتِ التي كانت تأتيْهَا بحراً من

---

(١) هو شريط ساحلي يقع بين دلتا نهر الرون في الشرق وجبال البرانس علي الساحل الفرنسي للمتوسط في الغرب

(٢) رينو : الفتوحات ، ٥٠ .

(٣) رينو : الفتوحات ، ٥٠ .

(٤) وفاء عبد الله المزروع : جهاد المسلمين خلف جبال البرتات ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القري١٩٨٧م ، ٧٥ .

(٥) رينو، الفتوحات ، ٥٢ .

(٦) ابن الفقيه الهمداني : مختصر تاريخ البلدان ، طبع ليدن ١٨٨٥م ، ٨٢ .

(٧) شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، دار الحياة بيروت ١٩٦٦م ، ٥٤ ؛ رينو ، الفتوحات ، ٥٠ .

الأندلُسِ تُؤَدِّي واجبَهَا في تعزيزِ الفُتُوحَاتِ الإسلاميَّةِ[١]، وإنْ أدَّى طمُوحُ السَّمحِ وتطويرُ عمليَّاتِ الفَتْحِ في فرنسا به إلى نهايته١٠٢هـ/ ٧٢١م .

واستفادَ عِنْبسَةُ بن سُحيم الكلبي الذي خلَفَ السَّمحَ سنة ١٠٣-١٠٧هـ/ ٧٢١-٧٢٥م من إخفاقِ السَّمحِ، وقرَّرَ الاستفادةَ من الدَّعْمِ البحريِّ بمُواصَلَةِ عمليَّاتِ الفتحِ على ساحلِ المتوسِّطِ حتَّى وصَلَ إلى نهرِ الرُّون، لكنَّهُ اغترَّ بقوَّتِه البَرِيَّةِ، وقرَّرَ الدُّخُولَ إلى قلبِ التُّرابِ الفرنسيِّ، ونجحَ في الوصُولِ إلي مناطقَ قريبةٍ من باريسَ ولكنْ أوقفَتْهُ مدينةُ سانس sens التي تقعُ جنوبَ باريسَ بثلاثين كيلو متر[٢]، ولَقِيَ حَتْفَهُ غازيًا في فرنسا سنة ١٠٧هـ/ ٧٢٥م [٣].

حاولَ عبدُ الرحمن الغافقي ١١٢- ١١٤هـ/ ٧٣٠-٧٣٢م استكمالَ فُتُوحَاتِ المُسلمين في فرنسا، ولكنَّهُ أخفقَ في تُور بواتيه سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م أمامَ شارلِ مارتل، ولَقِيَ مَصْرَعَهُ في المعركَةِ[٤]، وعادتْ فُلُولُ المُسلمين إلى أربونة قاعدتهم الحَصِيْنَة، وحاولَ شارلُ مارتل استغلالَ الفُرْصَةِ والهُجُومَ على أربونة التي تَقَطَّعَتْ بها السُّبُلُ البريَّةُ بسببِ قطعِ سُكَّانِ جبالِ البرانسِ المسيحيين الطريقَ البريَّ عَبْرَ سبتمانية إلى الأندلُسِ؛ فأرسَلَ والي الأندلسِ عقبةُ بن الحجّاجِ السَّلولي ت١٢٣هـ/ ٧٤٠م جيشًا كبيرًا عن طريقِ البحرِ؛ لِنَجْدَةِ وَالِيَهُ على أربونة عثيمة Athima، حيثُ أنزلَ شارلُ مارتل هزيمةً بجيشِ المسلمين لكنَّهُ لم يستطعْ دُخُولَ المدينةِ[٥]، وظلَّتْ أربونة رأسَ جِسْرٍ للهُجُومِ على الفرنجَةِ.

لم يتوقَّفْ المُسلمون أمامَ إخفاقِهم في تور بواتيه، وإنْ اتَّخذوا منحًا جديدًا؛ وهو التَّقدُّمُ البحريُّ

---

(١) رينو، الفتوحات ، ٥٢ .

(٢) طرخان . إبراهيم علي : المسلمون في أوربا في العصور الوسطي ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ١٩٦٦م، ١٤٣-١٤٧ .

(٣) ابن عذارى المراكشي ت القرن ٨هـ/١٤م : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ،ج١ تحقيق ج. س. كولان ، ليفي بروفنسال ، الدار العربية للكتاب ، ط٣ لسنة ١٩٨٣م ، ٤٩ .

(٤) يري بوجن أولسومر أن موقعة بواتيه التي خلدت شارل مارتل أنها موقعة ثانوية لا أهمية لها لذاتها ، بل أنها حلقة في سلسلة لا يمكن إدراك مغزاها الحقيقي ، إلا إذا أدرجتاها في سياقها التاريخي الشامل : أسلافنا العرب، ترجمة وتعليق : محمد محفل ، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق ١٩٩٥م، ٧١ .

(٥) رينو : الفتوحات ، ٧٧-٧٨ .

إلى محاورَ جديدةٍ، لتطويقِ الفرنجَةِ من الجنوبِ والشَّرقِ عن طريقِ الجِهَادِ البحريِّ[١]؛ ففي سنة ١١٦هـ/ ٧٣٤م عَقَدَ يوسفُ أميرُ أربونة مع موروند مورانت دوق مارسيليا اتِّفاقَ سلام حيَّدَ بموجبه مارسيليا، وخرجَ بجيشٍ من المدينةِ وعبَرَ نهرَ الرُّون، واستولَى على مدينةِ آرل علي دلتا الرُّون، حيثُ أمَّن ظَهْرَهُ جنوبًا ثُمَّ تقدَّمَ بجنودِهِ إلى أواسطِ بلادِ البُروفانس حتَّى وصلَ مدينةَ آفينيون، وظلُّوا هناك لمدَّةِ أربعِ سنواتٍ[٢]، الأمرُ الذي جعل شارل مارتل يقطعُ علي المسلمين تطويرَ هجومهم البحري علي ساحل الفرنجة وفي نهر الرون باستيلائه على ميناءِ مارسيليا التي يحرسُ الجانبَ الشرقيَّ لمصبِّ النَّهرِ سنة ١٢٢هـ/ ٧٣٩م.[٣]

تحاول الرِّوايةُ الغربيَّةُ للأحداثِ إرجاعَ عودةِ ظُهورِ المسلمين مرَّةً أخرى في جنوبِ فرنسا وعلى سواحِلِهَا بعد معركةِ بواتيه إلى خِيَانَةِ دُوْقِ مارسيليا وآفينيون "الذي كَفَرَ بنعمة شارل مارتل النبيلِ... ومع ذلك فلم يتورع في هذه الأثناء عن تشجيع العدو مرة ثانية"[٤]، ولم تُغفلْ الرِّوايةُ جَلْدَ الذَّاتِ عن ارتكابِ الآثَامِ، وفسقَ القَسَاوِسَةِ، وطمعَ النَّاسِ في أملاكِ الكنيسَةِ؛ ممَّا عرَّضهم للغَضَبِ الإلهيِّ بعودَةِ المسلمين مرَّةً ثانيةً للمَنْطقَةِ[٥].

لم تُفلحْ مُحاولاتُ الفرنجةِ في وقفِ الهَجَمَاتِ البحريَّةِ الإسلاميَّةِ الرَّسميَّةِ أو الخاصَّةِ على سواحلِ فرنسا، حيثُ كانتْ أوَّلُ غارةٍ بحريَةٍ مُتقدِّمةٍ تجاوزَتْ فيها البحريَةُ الأندلسيَّةُ ميناءَ مارسيليا على شواطيء فرنسا علي جزيرة ليرين Le rins في نواحي أنتيب Antibes[٦]، ولكنَّ تاريخ هذه الغزوة غيرُ مُؤكَّدٍ، فهي تقعُ بين سنة ١١٠-١٢٢هـ/ ٧٢٨-٧٣٩م ممَّا ينمُّ عن تطوُّرِ عمليَّاتِ البحريَّةِ الإسلاميَّةِ مُبكرًا في الرُّبعِ الأوَّلِ من القَرْنِ الثَّاني الهجري، مع غيابِ أيِّ عوائقَ بحريةٍ إفرنجيَّةٍ، إذ ينقلُ لنا رينو أنَّ المسلمين داهمُوا الجزيرة التي كانت تحوي ديرًا كبيرًا برئاسة القديس بورقير سمِّي الدير بأسمه بعد موته علي أيدي المسلمين ولمَّا نزل المسلمون لم يجدوا في الدير شيئًا

---

(١) وفاء المزروع : جهاد المسلمين خلف البرتات ، ٣٠٥ .

(٢) ارسلان : تاريخ غزوات العرب ، ٧٠ ،٧٩.

(٣) ارسلان : تاريخ غزوات العرب ، ٨١ .

(٤) أولسومر : أسلافنا العرب ، ٦٥ .

(٥) أولسومر : أسلافنا العرب ، ٦٧ .

(٦) تقع هذه الجزيرة قبالة الريفيرا الفرنسية قرب كان .

يُذكرُ من الأموالِ، فعاثوا فسادًا، وقتلوا مَنْ في الدير إلا أربعةً مِنْ القساوسة أسروهم، لكنهم استطاعوا الفرارَ في ميناء أجوي Agauy بعد أن رستْ مركبهم فيه [١].

ظلَّتْ البحريَّةُ الإسلاميَّةُ تعملُ بحريَّةٍ في المنطقةِ، ممَّا أعطى الفُرصةَ لانسيابِ التِّجارةِ البحريَّةِ عَبْرَ ميناءِ آرل الذي وقع على عاتقِه استقبالُ صادراتِ الشَّمالِ الشَّرقي لأوربا المُتَّجهةِ إلى أسواقِ الشَّامِ وإفريقيا[٢]، وفي المُقابلِ كانتْ حاصلاتُ المَشرقِ تمرُّ عَبْرَ الأندلسِ، وتتوزَّعُ علي البروفانس واللانجدوك عن طريق القوافلِ القادمَةِ من بلنسية والمرية إلى الرُّون، لقد غَدَتْ مُقاطعاتُ بروفانس وأربونة وقتئذٍ من أغنى المَناطقِ في جنوبي فرنسا[٣]، ورغم قصر هذه الفترة التي نعم فيها التجار المسلمون بالتجارة مع وادي الرون وواصلوا تجارتهم في مناطق السواحل الفرنجية، ناهيك عن فُقدانهم أربونة سنة ٧٥٩م [٤]، إلا أنَّهم حقَّقُوا أرباحًا كبيرةً [٥].

وما أنْ حلَّتْ سنة ١٨٢هـ/ ٧٩٨م حتَّى بدأت أساطيل الأندلسيين الرسمية في المتوسط الغربي الغارات المطولة ضدَّ جُزُرِ البليار التي خرجت علي بيزنطة ولجأت إلي حماية الكارولنجيين[٦]، كما هاجمت مراكبهم سردينية سنة١٩٣هـ/ ٨٠٨م ، ولَّما صدَّهم سكانُهَا تحوَّلُوا إلي كورسيكا، فهجم عليهم بورشارد فهزمهم، وفَقَدَ المسلمون ستَّةَ عشرَ مركبًا من مَرَاكبهم، واعتبر المسيحيون أنَ هذا عقاب من السماء أنزله الله علي المسلمين الذين ارتكبوا كثيراً من أعمال القسوة [٧]، ضم شارلمان جزر البليار إلى الإمبراطورية الكارولنجية، وتخلَّتْ الجُزُرُ عن تحالُفِهَا القديم مع بيزنطةَ[٨]، وعقد معاهدات سلام مع المسلمين بخصوص القرصنة[٩]، ويرى بلان Ballan أنَّ ضَمَّ جُزُرِ البليار أعطى

---

(١) رينو : الفتوحات ، ٨٥-٨٦ .

(2) E.SEMPLE, The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin,p.58.

(٣) محمد عباسة : " العلاقات الاجتماعية بين العرب والفرنجة وتأثيرها علي الأدب والفكر " ، مجلة حوليات التراث الجزائر ٢٠٠٥م، ١٠ .

(٤) رينو : الفتوحات ، ص٩٤ .

(5) E.SEMPLE, The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin,p.57.

(٦) لويس : القوي البحرية ، ص ١٦٤.

(٧) رينو : الفتوحات ، ص١٢٥.

(٨) لويس : القوي البحرية ، ص ١٦٤.

(٩) أرسلان " تاريخ غزوات العرب ، ص١٣٢ .

ميزةً استراتيجيَّةً لا حدَّ لها للفرنجَة، وحدَّ من حريَّةِ حركَةِ الأندلسيين في غرب المتوسط، وحاصرتهم إلى حدٍّ كبيرٍ على سواحل فالينسيا وطرطوشة والمرية[١]، ونتج عن إصلاحات شارلمان حصار الفرنجة برشلونة سنة ١٨٥هـ/ ٨٠١م بقيادة لويس التقي بن شارلمان، وصمد زعيمها سعدون الرعيني دون مدد من حكومة قرطبة [٢].

أغارت القوات الأموية الآتية لنجدة برشلونة علي ألبة فابتعدت عن هدفها الأساسي حتى سقطت المدينة الميناء سنة ١٨٨هـ/٨٠٣م[٣] بعد تسعين سنة من حكم المسلمين[٤]؛ ممَّا أدَّى إلي إطالة المسافة بين أقرب موانيء الأندلس الشرقية علي البحرين الأندلسيين، وخسروا مركزا بحريًا مُتقدِّمًا لغزو سواحل البروفانس وإيطاليا بعد خسارتهم أربونة ثم برشلونة. والجديرُ بالمُلاحظةِ أنَّ الحُكومة الأموية لم ترسل تعزيزات بحرية واكتفت بالنجدة البرية؛ ممَّا يدلل على ضعف البحرية الرسمية.

حقَّق الملكُ بيبين ابن شارلمان وقائده بورشارد Burchard نجاحًا جُزئيًا في تهدئةِ حدَّةِ الهجماتِ البحريَّةِ للمسلمين، لكنَّهما فشلا في استرداد كورسيكا من العرب خلالَ حملاتٍ في الفترة ما بين سنة١٩١-١٩٥هـ/ ٨٠٦-٨١٠ م ، وفي إحدى هذه الحملات سنة١٩١هـ/ ٨٠٦م فقد هادوماروس – أول كونت افرنجي لجنوه –حياته، وبقيت كورسيكا وسردينا مناطق نفوذ للمسلمين[٥]، وقد أسر المسلمون ستين قسيسًا في هذه المعركة وباعوهم في الأندلس، وافتدى شارلمان بعض هؤلاء القساوسة في وقتٍ لاحقٍ [٦].

سادَ التُّجَّارُ المسلمون منطقة وادي الرون وجنوبي فرنسا في القرن ٨-٩م وانتعش فيها الدينار

---

(1) M.Ballan, , Fraxinetum,p.39,42.

(٢) ابن حيان : المقتبس ، ٢،١١٦.

(٣) ليفي بروفنسال : تاريخ أسبانيا الإسلامية ، ترجمة : علي عبد الرءوف البمبي وآخرين ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠٠م ١٥١ .

(٤) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ، ١٢٥ .

(5) H .Krueger, "The Italian Cities and Arabs before 1095" A HISTORY OF CURSADES vol .1,ed Setton, K., Philadelphia 1955,43

(٦) رينو : الفتوحات ،١٢٥

الذهبي الإسلامي، بينما اكتفي الكارلنجيون بسك العملات الفضية[١]، وما قصيدة أسقف آرل ثيودلف Theodulf ضد قضاة مدينته علي عهد شارلمان إلا حُجَّةً بينةً على سيادة الدينار الذهبي الإسلامي في المنطقة بجانب العملة الفضية اللاتنية، في الوقت الذي توارت فيه عملة الغرب الذهبية ممثلة في الدينار البيزنطي إذ تسجل القصيدة التي تعود إلي سنة ١٨٢هـ/ ٧٩٨م رشوة قضاة مدينته بكميات كبيرة من العملة الذهبية النفيسة منقوش عليها كلمات عربية أو رسوم لشخصيات عربية[٢]، ممَّا يقطع بالهيمنة التجارية للمسلمين في المنطقة، وأنَّها غلبت علي التعاملات الداخلية والمدفوعات المحلية على نطاقٍ واسعٍ، وبالتالي فرض ذلك نفوذًا سياسيًا بجانب النُفُوذِ الاقتصاديِ.

ورصد المؤرخون المسلمون عمليات البحرية الرسمية وإغارتهم علي السواحل الفرنجية، منها ما هو تعضيد لمحاولات الغزو البرية - ذكرنا بعضها في السابق - ومنها ما كان غزواً بحريًا خالصًا؛ فعلى سبيلِ المثالِ حاولَ الأميرُ الحكم الربضي سنة ١٩٩هـ/ ٨١٥م استرجاع ميناء برشلونة التي سقط في يد لويس التقي سنة ١٨٨هـ/٨٠٣م [٣]؛ فأرسل عمَّه عبد الله البلنسي غازيًا، وقتل الكثير من سُكَّانِها، إلا أنَّهُ لم ينجحْ في استردادِهَا[٤].

كذلك فعل الأميرُ عبد الرحمن الأوسط الذي أمر بغزو جزر البليار سنة ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م حين نقض أهلها العهد وأضرُّوا "بِمَنْ مرَّ بهم من مراكب المسلمين"[٥] بعد فترة الهدوء التي استمرَّت لمدَّةٍ

---

(١) نورمان كانتور : التاريخ الوسيط ، ج١ ترجمة : قاسم عبده قاسم ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤م ، ٢٦٣.

(2) R .Lopes, medieval trade in the Mediterranean world, oxford university , London 1955, pp.,35-36.

(٣) ليفي بروفنسال : تاريخ أسبانيا الإسلامية ، ١٥١.

(٤) ابن عذاري : البيان المغرب ،٢: ٧٤ .

(٥) ابن حيان : المقتبس ،ج ٢ ، تحقيق : محمود علي مكي ، وزارة الأوقاف المصرية ١٩٩٥م ، ص١٤٤ ؛ يفهم من رواية ابن عذاري ان حكومة قرطبة زمن عبد الرحمن الأوسط كان لها نفوذا علي جزيرة ميورقة أكبر جزر البليار بموجب عهد من سكان الجزيرة ؛ فلما نقضوا العهد سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م " فغزتهم ثلاثمائة مركب ؛ فصنع الله للمسلمين جميلا ، وأظفرهم بهم، وفتحوا أكثر جزائرهم " ، البيان المغرب ، ٢ :٨٩ ؛ طرخان ، المسلمون في أوربا ، ص١٠٣ .

تزيد عن ثلاثين عامًا لحماية التجارة بين الأندلس وموانئ فرنسا وإيطاليا"، وأجبرهم على المُطالبة بتجديد العهد في سنة ٢٣٥هـ/٨٤٩م[١]، بالغ ابن حيان ومن سلك دربه في أعداد قطع الأسطول الأندلسي الذي غزا جزر البليار بأنه ثلاثمائة مركب؛ وهو عدد كبير خاصة أنَّ البحرية الرسمية للإمارة الأموية كانت في طور التجهيز ، كما أن أسطول الخليفة الناصر الذي وحد الأندلس بلغ مائة وعشرون قطعةً [٢].

تزامن مع تجديد عهد جزر البليار مع عبد الرحمن الأوسط هجوم البحرية الأندلسية علي سواحل البروفانس، حيث يُورد برتن في أحداث سنة٨٤٩م من حولياته قوله مازالت البحرية الأندلسية تواصل تخريبها لسواحل البروفانس ولم يحددْ ما إذا كانت بحرية خاصة أم رسمية، لكن تظل المظان التاريخية ترصد متابعة وتواصل البحرية الإسلامية الرسمية لغزواتها للجنوب الفرنسي[٣]. وغزا والي سرقسطة موسي بن موسي سنة٢٣٦هـ/ ٨٥٠م جبال البرتات وسبتمانيا، ويعرض رينو[٤] لنصٍّ معاصر من تاريخ لانجدوك يُدلِّلُ به علي حالة الخراب والقتل التي سادت المنطقة في ذلك الوقت، وننقل عنه لقد خُرِّبتْ جميعُ الكنائس والأديرة، ونُهبت جميع المدن الواقعة علي السواحل، ثُمَّ يتناولُ النَّصُّ السكان المتعاونين مع المسلمين لكنه كان يوجد بينهم أيضًا قومًا لم تكنْ جذور الإيمان في نفوسهم عميقة؛ فانضموا إلي الغزاة، وهؤلاء أسوأ علي البلد من الغزاة أنفسهم؛ لأنهم يعرفون مداخل البلد وأحوال أهلها وبالنسبة لليهود جاء في سيرة القديس سانت تيودار Sait Theodard الذي عاش في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي رئيس أساقفة أربونة " أنَّهُ لمَّا دخل المسلمون لأول مرَّةٍ إلى لانجدوك، انحاز اليهود إليهم وفتحوا لهم أبواب مدينة تولوز طلوزة " وأضاف أنَّ شارلمان عاقبهم علي خيانتهم بأن أمر بصفع يهوديٍّ أمام الملأ علي باب الكاتدرائية كل عام ممَّا يُوافق فيه أعيادَ اليهود [٥].

---

(١) ابن حيان: المقتبس ، ٢: ١٤٥.

(٢) ابن حيان : المقتبس ، ٥ : ٣١٣.

(3) ANNALES DE SAINT-BERTIN. - ANNALES DE METZ 840-868dans collection Des memoires. A l, Histoire De France , M. Guizot, Paris 1824, remacle.org/bloodwolf/hist - riens/anonyme/annales.htm , événements849 .

(٤) رينو : الفتوحات ، ص١٤٦.

(٥) رينو : الفتوحات ، ٢١٨ .

وتتحدَّث حوليات برتن عن استقبال شارل الأصلع لسفارة الأمير الأندلسي محمد بن عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م[١] رد عليها شارل الأصلع من جانبه بسفارة في نفس العام، وعادت سفارة الأخير في العام التالي من قرطبة محملين بالكثير من الهدايا منها الإبل والخيام وفرش النوم والعديد من الأقمشة والعديد من أنواع العطر[٢] ، ويري رينو[٣] أنَّ الذي سعى لهذه المصالحة هو الأمير محمد بن عبد الرحمن بسبب انشغاله في قمع ثورة أبن حفصون، ثم عاد وأردف مع أن شارل الأصلع لم يكن في وضع يسمح بمحاربته. ومن المنطقي أن يكون مَنْ يمدُّ يده ويرسل سفارة إلي خصمه هو من يطلب الهدنة.

سيطر المسلمون علي جزر البليار سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م، وأضحت المفتاح الحقيقي للسيطرة الساحلية غربي المتوسط، ونقطة انطلاق الأسطول الأندلسي إلي جنوبي فرنسا، وأدَّى ذلك إلي تمكين المسلمين من الوصول شمالاً إلي خليج ليون[٤]؛ لقرب المسافة بين جزر البليار وخليج ليون؛ إذ تقدر بـ ٢٥٠ ميل، وأفضي ذلك إلي تحكم فراكسينتوم بعد تأسيسها سنة٢٧٦هـ/ ٨٨٩م في البحر الليجوري، أمَّا صقلية وسردينيا وكورسيكا فكان البحرُ التيراني مجالاً لنفوذهم[٥]، كما أنَّ استكمال سيطرة الأغالبة علي صقلية في نفس العام أفقد الفرنجة حليفًا بحريًا مهما وهو الأسطول البيزنطي، وأغلق أمامه مضيق مسينا المؤدِّي إلى البحر التيراني، وبالتَّالي تراجعت فاعلية القوى البحرية الفرنجية في غرب المتوسط وزادت أنشطة المسلمين في البروفانس[٦].

وتم ترجمة هذه السيطرة البحرية علي المسارات البحرية في غرب المتوسط إلى غزوات بحرية رسمية في عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر ؛ بمشاركةِ أسطولِ المرية سنة ٣٢١هـ /٩٣٢م،

---

(1) ANNALES DE SAINT-BERTIN, événements

(٢) ANNALES DE SAINT-BERTIN, événements 865 ، يؤرخ رينو عودة هذه السفارة بسنة ٢٥٢هـ/٨٦٦م.

(٣) الفتوحات : ١٤٧ .

(4) J. PRYOR, Geography, and war,p.91,

(٥) ينسب البحر الليجوري إلي مقاطعة ليجوريا شمال إيطاليا ، وتطل عليه كل من فرنسا وإيطاليا ، أما البحر التيراني فهو محصور بين الساحل الغربي لشبه الجزيرة الإيطالية ، وجزر كورسيكا وسردينيا وصقلية، Geography, and war,p.105 J.Pryor

(6) M. Ballan, Fraxinetum,p.49.

حيثُ أبحرت عشرة مراكب غربية وخمسة شواني إلي بلاد الفرنجة ؛ بقيادة سعيد بن يونس وعمرو بن مسلمة الباجي[١]، وفي سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٤م بقيادة عبد الملك بن سعيد بن أبي حمامة، وفي سنة ٣٢٨هـ/٩٣٩م بقيادة إبراهيم بن عبد الرحمن البجاني[٢]، فضلاً عن غزوات البحرية الخاصة.

الغَزو البحريُّ الإسلامِيُّ الخاصُّ:

تبلورت ظاهرةٌ جديدةٌ في الغزو البحريِّ؛ وهي خصخصةُ الجهادِ أو الجهادُ الخاصُّ ويُسمِّيها البعضُ ظاهرةَ الاستقلالِ البحريِّ، ابتداء من القرن الثاني والثالث الهجري / الثامن والتاسع الميلادي، وبالتَّالي تحوَّلَ الجهادُ من حملاتٍ مُوجَّهةٍ من الدَولةِ المركزيَّةِ إلى غاراتٍ مُستقلَّةٍ عن الحكومَةِ، وعلى الرُّغمِ من أنَّ هذه الغارات كانت تفتقرُ إلى تأييدٍ أو شرعيَّةٍ من الحكومة، لكن اعتبرها البعض من كتاب العالم الإسلامي ممارسة لواجب ديني وهو الجهاد معتبرين أنَّ الهدف لم يكن مجرد النهب أو الإغارة، لكن لتوسيع الحكم الإسلامي في دار الحرب، وإقامة الرباط والاستيطان في هذه المناطق في نهاية المطاف[٣].

وترجع حركات الاستقلال البحري إلي ضعف السلطة المركزية في قرطبة؛ ففي نهاية عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م أسَّس مجموعةً من البحريين الأندلسيين؛ منهم المولدون والمعاهدة ميناء في المرية جنوبي الأندلس بمباركة سكان المنطقة من عرب اليمن سنة ٢٧١هـ/٨٨٤م [٤] ، وأعطوا لهذا الكيان الشكل الرسمي من ناحية انتخاب حكومة فيدرالية منهم متأثرين بنظام المدينة الدولة في إيطاليا[٥] إلى حدٍّ أنْ وصفها العمري [٦] بأنَّها كانتْ مملكةً مُستقلَّةً.

---

(١) ابن حيان : المقتبس ، ٥ :٣٢٣.

(٢) ابن حيان : المقتبس ، ٥ :٤٥٤.

(3) M.Ballan, Fraxinetum,p.54

(٤) البكري أبو عبيد الله بن عبد العزيز ت٤٨٧هـ/١١٠٣م : المغرب في ذكر إفريقية والمغرب ، مكتبة المثني، بغداد ، ٦٢ .

(٥) حسين مؤنس : المسلمون في حوض البحر المتوسط ، ١٢٤ .

(٦) ، مسالك الأبصار وصف افريقية والمغرب والأندلس ، تعليق ونشر : حسن حسني عبد الوهاب ، تونس ، ٤٦.

تصدَّرت المرية العمل البحري المستقل، وحذت حذوها رباطات الساحل الشرقي للأندلس وغزو بمراكبهم لحسابهم الخاص في جنوب فرنسا وفي البحر التيراني، وعلى الرُّغم من تنوُّع أُصُول الأسرات البحرية المرابطة في هذه الرباطات إلي أصول عربية يمنية وبربرية وأسبانية[١]، إلا أنَّهم كانت تجمعهم الرَّغبةُ في العمل البحري المستقل، وفي ظلِّ عدم وجود سلطة مركزية تنظم نشاط هذه الجماعات؛ إلا أنَّهُ هناك ما يُوحي بأنَّ ثَمَّةَ تنسيقٌ لأنشطتها وانسجامٌ تامٌّ في تصرفاتها؛ ممَّا أعطى انطباعًا لخصومهم والمراقبين في العصور الوسطى بأنَّهم يُشكِّلون وحدةً واحدةً مُوحَّدةَ الجَبْهَةِ[٢] لجأت إليها السلطة المركزية في قرطبة علي زمن الخليفة الناصر عندما انضمت جماعات من بجانة والمرية بمراكبهم بالانضمام إلي الأسطول الرسمي الذي غزا العدوة المغربية[٣].

وإذا كان ضعف السلطة المركزية في قرطبة أدَّى إلي حركات الاستقلال البحري فإنَّ السياسة المركزية التي اتَّبعها الحكمُ الربضي والأمير عبد الرحمن الأوسط لتعزيز سلطة الأمويين على الساحل الشرقي للأندلس أفضتْ أيضًا إلي تبلور هذه الظاهرة بنزوح البحارة من الأندلس إلى جنوبي فرنسا؛ وهو ما يفسر وجود قواعد للمسلمين هناك في وقت مبكر، ممَّا مهَّدَ إلي قيام فراكسينتوم[٤]، وبالتَّالي فإنَّ الحالتين كرستا لظاهرة العمل البحري المستقلِّ، حيثُ استفادت المجتمعات البحرية على الساحل للأندلسي الشرقي خاصة في بجانة وطرطوشة من الوضع الفوضوي في مملكة الفرنجة وفي الأندلس؛ ممَّا سمح لهم بإعادة تأكيد استقلالهم[٥].

ساعد علي نمو هذه الظاهرة وتطورها وجودُ ملاذاتٍ بحريَّةٍ أمنةٍ علي السواحل الفرنسية خاضعة للنفوذ الإسلامي أوت إليها هذه الجماعات مثل أربونة التي مثلت قاعدة لعمليات البحرية الأندلسية الرسمية والخاصة لمدة أربعين سنة تقريبًا حتى سنة ١٤٢ هـ/ ٧٥٩م ، وكذلك بعض المدن القريبة من الساحل، مثل نيم وآرل التي خضعتا لسيطرة المسلمين لبضع سنوات[٦].

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: " أسرات من قادة البحر الأندلسيين في العصر الإسلامي " ، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة ج١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩١م ، ٥٩٢-٥٩٣ .

(2) M.BALLAN, Fraxinetum,p.25.

(٣) ابن حيان : المقتبس ، ٥ :٣١٣.

(4) M. BALLAN, Fraxinetum,p.50.

(5) M. BALLAN, Fraxinetum,p.49.

(6) E.SEMPLE, The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin,p.57.

لم تُفلحْ محاولات الفرنجة في إجهاض غزوات البحرية الخاصة بحاصرهم ميناء أربونة الخاضع للمسلمين، وتآمر سكانه القوط المسيحيون مع بيبين القصير والد شارلمان زعيم الفرنجة ضد المسلمين؛ الأمر الذي أدي إلي سقوط الميناء وجلاء المسلمين عنه[١]، بيد أنَّهُ من المُؤكَّدِ أنْ ينخفض النشاط البحري الإسلامي الرسمي بسقوط أربونة في غرب المتوسط، بينما ظَلَّت البحريَّةُ الخاصَّةُ تُزوالُ نشاطَهَا بصورةٍ عشوائيَّةٍ، وعلى نطاقٍ صغيرٍ، حيثُ هاجمَتْ سواحلِ الفرنجة والسفن الإيطالية[٢].

ويرى أحدُ الباحثين[٣] أنَّ خروج المسلمين من أربونة كان نهاية للوجود العربي الرسمي في جنوبي فرنسا، وآخر معاقلهم فيها، لكنَّهُ حدَّد سنة ٧٥٠م نهاية لذلك، بيد أنَّ المظان الأساسية تُؤكِّدُ أنَّ خروجهم كان سنة ٧٥٩م، ويرى آخرون اعتمادًا علي بعض مؤرخي الأديرة بقاء بعض المسلمين بعد هذا التاريخ في دوفيني، وفي منطقة نيس، وفي جبال الألب التزموا الهدوء طيلة عهد بيبين وشرلمان، وهذا ما جعل بعض المؤرخين الفرنجة يقولون أنَّ المسلمين لم يخرجوا من دوفيني حتى أوائل القرن العاشر الميلادي حتى جاءت موجة أخري من الفاتحين المسلمين، الذين سيطروا علي البروفانس، وأسَّسوا فراكسينتوم فزحفوا من دوفيني إلي بيمونت وسويسرا[٤]، كما أنَّ بعض العائلات المسلمة استقرت في سهول أربونة التي خربتها الحروب واعتنقوا المسيحية كما يبدو من أسمائهم[٥].

قامتْ البحريَّةُ الخاصَّةُ بعملياتها دون وصاية أو توجيه من حكومة قرطبة، ولم يحدْ من نشاطهم كلُ هذه النّجاحات التي حقّقها الفرنجة وعملياتُ التّأمينِ البحريّ، حيث قاموا بغزوات مهمة

---

(١) اتفق سكان المدينة القوط مع بيبين علي الغدر بالمسلمين مقابل تركهم يحكمون مدينتهم حسب القوانين القوطية ، رينو : الفتوحات ، ٩٤ ؛أرسلان : تاريخ غزوات العرب ، ٥٨ ، طرخان : المسلمون في أوربا ، ١٦٨.

(2) M. BALLAN, Fraxinetum,p.55.

(3) K. VERSTEEGH, " the Arab presence in France and Switzerland in the 10 th century ", ARAICA, tome xxxv11,1990,p.360.

(٤) رينو : الفتوحات ، ٩٤ هامش ٨٢.

(٥) رينو: الفتوحات ، ١٠٦-١٠٧.

ضد مرسيليا سنة ١٥١هـ/ ٧٦٨م، وإيطاليا عام ١٦٢هـ/ ٧٧٨م[١]، وأربونة سنة ١٧٧هـ/ ٧٩٣م وعندما وجدوا الأخيرة محصنة أحرقوها لكنهم لم يفتحوها[٢]، وتحدثنا المصادر عن وجود أعداد بالعشرات من مماليك أربونة في بلاط الحكم الربضي ورثهم الحكم من والده هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢-١٨٠هـ/٧٨٩-٧٩٦م)[٣]، ويبدو أنّ تلك الغزوات كانت تتم بالتحالف أو بالتّراضي مع حُكّام الدولة البيزنطية ضد أعدائهم الفرنجة[٤].

صادف ذلك انتقال السلطة في الأندلس إلي الأمويين وانشغالهم بتثبيت حكمهم فيها، ولم يلتفت الحكام الأوائل إلي البحرية إلا في عهد عبد الرحمن الأوسط ٢٠٦هـ/٨٢٢م-٢٣٨هـ/ ٨٥٢م الذي أولاها عنايةً، وغزا بأسطولٍ رسميّ جزرَ البليار[٥] ، كما اهتمّت الفرنجةُ بالدّفاعاتِ البحريّةِ عندما تولّى شارلمان الحكم ٧٦٨-٨١٤م حتّى يَحدُوا من نشاط المسلمين والنورمانديين البحري في جنوب فرنسا؛ فأمر شارلمان ببناء البروج والحصون في السواحل وعند مَصَابِّ الأنهار، وأنشأ الأساطيل، وأعاد الدفاعات الساحلية للدولة الكارولوجية من أربونة حتى روما، واتّخذ إجراءاتٍ خاصّةً؛ لحماية شواطئ أربونة وسبتمانيا المُتاخِمَةِ للأندلس[٦].

وحَسْبَ حوليّاتِ المملكةِ الفرنجيّةِ خلال أحداث سنة ٨٠٩م؛ فإنّ مُسلمي الأندلس نزلوا كورسيكا، ونهبوا بعض الأماكن في يوم السبت المقدس عيد الفصح the Holy Saturday of Easter ولم ينجُ إلّا الأسقُفُ وبعض كبارِ السّنِّ والمُعوّقين، فكان ردُّ الملك لويس التقي أن حاصر ميناء طرطوشة الذي يقع علي صفة نهر الإبرو، لكنّهُ رفع الحصار وعاد إلى بوردو[٧].

---

(١) لويس : القوي البحرية ، ١٥٩-١٦٠ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢ : ٦٤ .

(٣) ابن حيان : المقتبس ، ٢ : ١٥٢ . .

(٤) لويس : القوي البحرية ، ١٥٩-١٦٠ .

(٥) ابن حيان : المقتبس ، ٢: ١٤٤ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢ :٨٩ ؛ طرخان : المسلمون في أوربا ، ١٠٣ .

(٦) حسين مؤنس : « المسلمون في حوض البحر المتوسط إلي الحروب الصليبية » ، مجلة الجمعية ا لمصرية للدراسات التاريخية ، مجلد ٤ لسنة ١٩٥٢م، ١٢١ .

(7) Annals of the Kingdom of the Franks, Translated Sources, by P.D. King (Kendal, 1987), , événements809

وفي العام التالي ٨١٠م أغار مسلمو أسبانيا بأسطولٍ كبيرٍ ورسوا علي سردينية، وبعد ذلك أبحروا إلي كورسيكا ولم يجدوا في الأخيرة أيَّ مُقاومةٍ التي ما فتئت تلمم جراحها من اعتدا ءاتهم في العام السابق، وبالتالي أخضعوا أغلب الجزيرة [١]، وأعادوا الكرة في سنة ٨١٣م عليها، وعندما هموا بالعودة نصبَ لهم الكونت أمبورياس Amporias كمينًا غيرَ بعيدٍ عن مدينة بيربينيان الحالية؛ فاستولى علي ثمانيةٍ من مراكبهم التي كانت تحمل خمسمائة أسير من الجزيرة، ولكي ينتقموا لما نالهم في هذه المعركة اجتاحَ المسلمون شواطئ نيس وولاية بروفانس وسواحل إيطاليا الشمالية الغربية[٢]، وتُشيرُ الدلائلُ إلى أنَّ طائفةً من المسلمين استقرَّت في مدينة نيس، ولا يزال أحدُ أحياء المدينة يحمل اسم حي المسلمين Sarrazis des Canton [٣].

حاول شارلمان أن يحرم البحرية الإسلامية الرسمية والخاصة من مناطق ارتكاز هامة متقدمة علي الساحل بعد سقوط برشلونة؛ ففي عام١٩٣هـ/٨٠٨م غزا طركونة التي دانت له، ثم اتجه في نفس العام إلي طرطوشة لكنه فشل في محاولته[٤]، وظلَّت طرطوشة حتى سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م تحت حكم المسلمين عندما استولت عليها مملكة أراجون، أمَّا طركونة فكما يقول بروفنسال[٥] " فقد تعاورتها خلال نفس الفترة حملات من الجانبين ووقعت في أيدي المسلمين مرات، وفي أيدي المسيحيين مرات أُخرى، وما فتئت أن عادت للمسلمين حيث خرج منها سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢٠م أسطولا لغزو سردينية، قابله الأسطول المسيحي الذي مُنِيَ بغرقِ ثلاثةٍ من مراكبه، وحرقِ عددٍ آخرَ[٦] .

هدأت الأنشطة البحرية التي يقوم بها المسلمون في غرب المتوسط فيما بين ٨١٥-٨٣٨م لم يكن ذلك سبباً في قوة الدفاعات البحرية الكارلونجية، لكن أيضاً كان لديهم الكثير ما يشغلهم بسبب الوضع السياسي الداخلي في الأندلس والصراع علي السلطة زمن الأمير الأموي الحكم

---

(1) Annals of the Kingdom of the Franks, , événements 810 .

(٢) رينو : الفتوحات ، ١٢٦ ، وتقع بيربينيان بين البحر والجبل في جنوب فرنسا بالقرب من الأندلس .

(٣) رينو : فتوحات ، ١٦٩.

(٤) ابن حيان : المقتبس ، ٢ : ١٣١-١٣٢.

(٥) تاريخ أسبانيا الإسلامية ، ١٥٢.

(٦) رينو : الفتوحات ، ١٣١ .

الربضي ١٨٠-٢٠٦هـ/ ٧٩٦-٨٢٢م[١]، حيث اندلع تمرُّدٌ في الضَّاحية الجنوبية من قرطبة تحالف فيه الأسبان والقوط والمسلمين مع الفقهاء ضدَّ حكومة قرطبة؛ هذه الفتنة هدَّدت الوجود الأموي في قرطبة بحربٍ أهليَّةٍ[٢].

وكان من نتائجها هجرة جماعية من الأندلس إلي فاس بالمغرب الأقصى والإسكندرية ضمت محاربين وبحارة خرجوا علي متن عدد من مراكب للقبائل العربية بالأندلس قد يصل عددها إلى أربعين مركبًا تقريبًا، لذلك يقدر أحد الدارسين النابهين[٣] عدد الأندلسيين الذين نزلوا الإسكندرية من أربعة آلاف إلي خمسة آلاف رجل تقريبًا على أساسِ أنَّ مُتوسِّطَ ما يحمله المركب مائة شخصٍ تقريبًا، ناهيك عمن نزلوا فاس؛ ممَّا يُدلِّلُ على التَّجريفِ الذي حدث للبنية الاجتماعية، وكذلك للقوى البحرية الخاصة في الأندلس.

عاود البحريون الأندلسيون نشاطهم بقوة في المنطقة منذ سنة٢٢٤هـ/ ٨٣٨م، حيثُ تعكسُ حوليَّاتُ القديس برتن Annals of ST- Bertin تواجدهم الدائم بأعداد كبيرة علي السواحل الفرنجية، وتصفهم بالقراصنة[٤]، ذلك بسببِ عقدِ اتِّفاقِ سلامٍ بين حكومة قرطبة وبين جزر البليار مما سهل مرور مراكب المسلمين في المنطقة[٥]، ومِنْ ثَمَّ تمكَّن المسلمون من الوصول شمالا إلى خليج

---

(١) نازع أعمام الحكم ابن أخيهم السلطة ، راجع ، ابن حيان : المقتبس ، ٢ : ٩٣-١٠١ .

(٢) أطلق علي هذا التمرد ثورة الربض ، وامتدت علي ثلاثة مراحل بأوقات مختلفة ١٨٩ هـ/ ٨٠٤ م، ١٩٠هـ/ ٨٠٥ م، ٢٠٢ هـ/ ٨١٧ م ابن حيان : المقتبس ، ٢ : ١٢٣، ١٢٧، ١٤٠-١٤٢ لكنها تكمل بعضها بعضا ، ومن أهم أسبابها هو التفرقة العنصرية والتعصب للعرب خاصة الأمويين محمد خالد مصطفي المؤمني : " الصراع بين الدين والدولة في عصر الحكم الربضي " ، دراسات العلوم الإنسانية الاجتماعية الجامعة الأردنية م٣٦، العدد ٣ لعام ٢٠٠٩م وكذلك سوء وضع المولدين كطبقة اجتماعية كبيرة أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٣٠

(٣) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ الإسكندرية من أقدم العصور ، محافظة الإسكندرية ، ١٩٦٣م ، ٢٦٨-٢٦٩؛ ويري كروجر أن عددهم عندما وصلوا إلي كريت يصل إلي ١٠٠٠٠ ،

H.KUEGER, The Italian Cities and Arabs before 1095,p,103

(4)Annals of ST- Bertin, ninth-century histories, volume 1 ,Translated and ann - tated by Janet L. Nelson, Manchester University 1981,year838,p.59.

(٥) ابن حيان : المقتبس ، ٢: ١٤٥.

ليون بأمان[١]، وتورد الحوليات في أحداث سنة٢٢٤هـ/ ٨٣٨م هجوم أسطول للمسلمين قادم من طركونة على مرسيليا[٢] بدعم من جزر البليار[٣] وخرَّبوها وسبُوا الرَّاهبات، وأسروا رجال الدين وغيرهم من العامَّةِ، ونهبُوا ثروات كنائس المسيح[٤].

يرجع هذا النجاحُ الذي أحرزه البحريون الأندلسيون إلي عدة عوامل منها وفاة شارلمان سنة ٨١٤م، وضعف مملكة الفرنجة من بعده، خاصَّةً أنَّ خليفته ابنه لويس التقي ٨١٤-٨٤٠م لم يكن بكفاءة والده[٥]، بعدما قسم الامبراطورية بين أبنائه الثلاثة: لوثر وبيبين ولويس، وبعد هذا التَّقسيم تزوَّجَ وأنجبَ شارل، فألزمته زوجته بإعادةِ النَّظرِ في تقسيم الإمبراطورية ليحصلَ ولدها علي حقوقه مثل أخوته؛ ممَّا أدَّى إلى اندلاع الحرب بين الإخوة، وبينهم وبين والدهم، ولم تهدأ إلا بعد وفاة أخيهم بيبين سنة ٨٣٨م ، ثم والدهم سنة ٨٤٠م، فانحصر الخلاف بين الثلاثة الباقين[٦]، وانتهى الأمرُ إلى تقسيم الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة بموجب معاهدة فيردن Verdun سنة ٢٢٩هـ/ ٨٤٣م[٧]، فقد أصابتهم لعنة الأدواق والكونتات في الاستئثار بالسلطة والثروة، ومع غروب شمس القرن التاسع تحوَّل الملوك الكارولنجيون إلى نكراتٍ[٨].

واغتنم المسلمون حالة الفوضى والاضطراب العامِّ الناتج عن وفاة الإمبراطور لويس التقي

---

(1)J.PRYOR, Geography, and war,p.91.

(2) F.GANSHOF, notes sur les ports de provence,p.32.

(٣) لويس : القوي البحرية ، ٢٣٠ .

(4) Annals of ST- Bertin, ,p.59.

(٥) نورمان ، التاريخ الوسيط ، ٢ص ٢٦٨

(٦) محمد مرسي الشيخ ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨١م ، ص٢٦

(٧) ANNALES DE SAINT-BERTIN, événements 843 ، تم تقسيم الإمبراطورية الكارلونجية إلي ثلاث من الورثة ، من اليسار تشارلز شارل الأصلع الذي تحصل علي الجزء الأكبر مما يطلق عليه فرنسا أو مملكة الفرنجة الغربية ، ولويس مملكة الفرنجة الشرقية ألمانيا الحالية ، ولوثر حصل علي إيطاليا وشريط ضيق طويل من الممتلكات بين الواقعة تحت سيادة أخوته ، راجع ،

E. SEMPLE, The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin,p.58.

(٨) نورمان : التاريخ الوسيط ، ٢ : ٢٩٤.

سنة٢٢٦هـ/ ٨٤٠م ودخلوا بمراكبهم إلى بروفانس عن طريق مصبِّ نهرِ الرُّون[١]، ويرصد ليو تبراند ما حاق بالمنطقة من اضطرابات والتي ساعدت المسلمين في توطيد سلطانهم بقوله: "في هذه الأثناء كان ينتاب سكان البروفانس حالة من الانغلاق والتحاسد والغيرة المتبادلة، حيث أدت إلي تقطيع رقاب بعضهم البعض ونهب ثروات البعض الآخر، وتبادل كل أنواع الأذى التي يمكن تصورها؛ لذلك فصيل واحد كان غير قادر بنفسه في ظل ظاهرة الاستيلاء المتبادلة والغيرة علي الدعوة للنجدة من المسلمين سالفي الذكر، والرجال الذين كانوا أشد مكرا ودهاء في انسجامهم مع بعضهم البعض المسلمين في القضاء علي جيرانهم، لم يكتفوا بالقتل فقط وإنما حولوا الأرض الخصبة إلي صحراء، لكن دعنا نري ماذا فعل بهم حسدهم "[٢].

يشرح ليو تبراند الواقع في المنطقة الذي أدَّى نمو طبقة أرستقراطية جديدة في الأقاليم سعت إلى نوعٍ من الاستقلالِ السياسي؛ فالنبلاء الذين كانوا يتولون وظيفة دوق الموظف العسكري المحلي ووظيفة كونت ممثل الملك المحلي في شئون القانون والمالية رسَّخُوا جذورهم في المجتمع المحلي وحوَّلوا ألقابهم وضياعهم الملكية إلي أملاك وراثية؛ ممَّا تسبَّبَ في تدهور السلطة الكارولنجية في القرن التاسع الميلادي[٣]، وظهرت ممالكُ مُستقلةٌ مثل مملكة برجنديا سنة ٨٨٧م التي تحكمت في بوابة الممرات الشمالية وطريق الألب الساحلي إلى إيطاليا ممَّا أعطاها وزنًا في الوضع السياسي في غرب أوربا، وظلَّت قادرة علي الحفاظ علي استقلالها حتي ١٠٣٢م عندما أصبحت إقطاعية في التاج الألماني[٤].

تطورت هجمات البحريين بعد هذا التقسيم ووصلت مراكبهم غرب إيطاليا في ٢٧ أغسطس ٨٤٦م/ ٢٣٢هـ [٥]، وتكشف حوليات القديس برتن[٦] عن تعاون بين البحريين المغاربة المور وبين

---

(١) رينو : الفتوحات ، ١٣٨.

(2) LIUDPRAND ,the work of Liudprand of Cremona, translated by F.A.Wright ,London, 1930, p.34.

(٣) نورمان : التاريخ الوسيط ، ٢ : ٢٦٨

(4) E.SEMPLE, THE BARRIER BOUNDARY OF THE MEDITERRANEAN BASIN,p59.

(5) The Annals of Fulda: Ninth-century Histories, Translated by Timothy Reuter , Ma - chester University 1992,p.26.

(6) Annals of ST- Bertin,p.65

البحرين الأندلسيين Saracens في هجومهم علي روما سنة٢٣٢هـ/ ٨٤٦م؛ حيث دخلوا نهر التيبر في غرب إيطاليا ووصلوا إلي روما سويا فيقول "خربوا كاتدرائية القديس بطرس وحملوا منها كل الحلي والكنوز، ثم احتلوا موقعا حصينا يبعد عن روما ١٠٠ ميل"، لكن ألمت عاصفة بمجموعة الأندلسيين العائدين من غزو روما وأغرقتهم وتم إرجاع بعض الذخائر والكنوز إلي كنيسة القديس بطرس، وفي نفس العام أستولي المسلمون الأندلسيون والمغاربة علي بنفنتم أحدي المدن الإيطالية، هذه التعاون بين الأندلسيين ومغاربة إفريقية ليس بجديد فقد تم قبل ذلك في فتح صقلية.

يتحدث القديس برتن في أحداث سنة ٢٣٣هـ/ ٨٤٧م عن السفارة التي أرسلها عبد الرحمن الأوسط إلي تشارلزشارل الأصلع لتأكيد السلام والتحالف، حيث قابل الأخير مبعوثي الأوسط بمراسم مناسبة ثُمَّ ودَّعهم، ويُفهم منها أنَّ هناك تبادل للسفارات قبل ذلك التاريخ ألمح برتن إلى الشكوى من اليهود والمسلمين الذين يحولون المسيحيين في أسبانيا عن معتقداتهم[1]، ويبدو أنَّ الشكوى من مناكفات البحرين الأندلسيين أيضًا كانت ضمن أعمال هذه السفارة باعتبارهم من رعاياه، والغريب أنه لم يردْ ذكر لهذه السفارة عند ابن حيان في أحداث ٢٣٢-٢٣٤هـ أو عند غيره من الكتاب المسلمين، وفي المُقابل وجدت العلاقات الدبلوماسية مع تيوفلس الأمبراطور البيزنطي صداها عن ابن حيان في احداث ٢٢٥هـ/ ٨٤٠م حيث نشر ردَّ الأوسط علي تيوفل بخصوص البحرين الأندلسيين الذين احتلُّوا جزيرة كريت التابعة للدولة البيزنطية، ويبدو أنَّ ذلك راجعٌ إلى أنَّ سفارة الأوسط إلى شارل الأصلع كانت سريَّةً، ولم يُكشفْ النِّقابُ عنها في قرطبة ، لكنها من المُؤكَّدِ لم تُؤثِّرْ على غزوات البحريين للساحل الفرنسي، خاصَّةً أنَّ برتن نفسه يؤكد علي استمرار الغزوات في حوليات سنة ٨٤٩م .

تلقَّى شارل الأصلع اللطمات من المسلمين والنورمانديين على السَّواءِ، وتناوبا البر والبحر مستغلين الأوضاع الداخلية في فرنسا ، حيث هاجم البحريون الأندلسيون آرل سنة٦٣٢هـ/ ٥٨ ٠م، ويصف برتن المهاجمين بأنهم مغاربة Les Maures (بربر) ويبدو أنه تحقَّق هذه المرّة من هوية

(1) ANNALES DE SAINT-BERTIN. - ANNALES DE METZ 840-868dans collection Des memoires A l, Histoire De France , M. Guizot, Paris 1824, 847 événements, Annals of ST-Bertin,p.65.

المهاجمين الذين يعودون إلى أصول مغربية قادمين من الأندلس، هذه المدينة كان النورمنديون يهاجمونها من البر والمسلمين من البحر[١]، ومن ناحية أخرى تقدّم النورمان واجتازوا جبل طارق، واستولوا علي مدينة أربونة سنة ٩٥٨م[٢]، ثُمّ اتّجهوا إلى نهر الرون ثم إلى بلنسية، ومنها تَمّ طردُهم إلى عرض البحر.

ومنذ ذلك التاريخ كانت إقامة المسلمين في منطقة دلتا الرون شبه دائمة واتّخذوا من جزيرة كاماراج camargue التي تقع جنوب آرل مقرًا لهم[٣]، وتقدموا بعيدًا عن الساحل حتى مدينة ماجلون المندثرة، حيث عُثر هناك على بعض الآثار التي تُؤكّدُ وصولهم المدينة؛ ممّا اضطر شارل الأصلع على توقيعِ صُلْحٍ مُهينٍ مع البحريين المسلمين عام ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م أتاح لسكان هذه المنطقة من فرنسا بعض الرّاحةِ من غاراتهم[٤].

اعتمد دير سانت سيزر Césaire-Saint وفق حوليات برتن في سنة ٨٦٩م على جزيرة كماراج كميناء له في معظم احتياجاته؛ فبعد أنْ هاجم المسلمون كماراج توغّلوا فيها وهاجمُوا الدّير؛ فتصدّى لهم رولاند رئيس أساقفة آرل، وتقول الحولية أنّ المسلمين اشتبكوا معه " بتهوُّرٍ وقُتِلَ ثلاثمائة من أنصار رولاند، واعْتُقِلَ الأسقُفُ، واقتيد إلى مراكب المسلمين مُكبّلاً بالسلاسل، وطالب المسلمون فديةً مقدارها مائة وخمسون جنيها من الفضة، ومائة وخمسون من المعاطف، ومائة وخمسون من السيوف الكبيرة، ومائة وخمسون من العبيد، رغم أنّ الأسقف وافته المنية علي مراكبهم في ١٩ سبتمبر، وعلى الفور تمّ تجميعُ القدية، وبعد استلامها أوصلوه إلى الشاطيء وألبسوه ثيابه الكنسية، وعند استلامه تحدّث إليه أتباعه فوجدوه فارق الحياة؛ فحملوه بحزنٍ كبيرٍ، ودفن في ٢٢ سبتمبر في قبره الذي كان قد أعدّه بنفسه"[٥].

(1) ANNALES DE SAINT-BERTIN, événements 850.

(٢) محمد مرسي الشيخ : دولة الفرنجة ، ١٨٨

(٣) حسين مؤنس : المسلمون في حوض البحر المتوسط ،١٢٩ ؛

F.GANSHOF, notes sur les ports de provence,p32.

(٤) لويس : القوي البحرية ، ٢٣٠

(٥) ANNALES DE SAINT-BERTIN, événements 869 ؛ يري لويس أن هناك تضارب وخلط بين قراصنة المسلمين والفايكنج وسيطرتهم علي جزيرة كماراج لكن برتن يورد حادثة أسر الأسقف رولان في أحداث سنة ٨٦٩م أما لويس فينسبها إلي سنة ٨٦٠م راجع ، القوي البحرية ص ٢٣٠ ، ٢٨١ .

ومن خلال كميات الفدية يتَّضح أنَّ عدد المسلمين في هذه المعركة لم يزدْ عن مائة وخمسين فردًا، استطاعوا قتل هذا العدد الذي يبلغ ضعفهم، بخلافِ مَنْ فرَّ من المعركةِ، مع أنَّهم في موقع الهجوم، وهذا يُعبِّرُ عن حالة الانهزامية التي انتابت الفرنجة في ذلك الوقت، كما تعبُّر الفديةُ عن ثروة الأقليم وترف السُّكَّان؛ فقد غَدَتْ مُقاطعات بروفانس وأربونة وقتئذٍ من أغنى المناطق في جنوب فرنسا[١]، وكذلك تعبر عن قيمة الأسير رولاند لدي أتباعه، حيث كان لرجل الدين في العصور الوسطى قيمة كبيرة يبذل من أجلها المال، كما نتعرف من الحولية علي عدد تقريبي لسفن المسلمين من خلال أعدادهم، وأعداد العبيد الذين حملوهم معهم، حيث وصلت أعدادهم إلى ٣٠٠ شخص، فإذا افترضنا أنَّ المركب الواحد من مراكبهم كانت تستوعب ٥٠ فردًا فإن عدد مراكبهم كان لا يزيد عن ستة.

أوضحت الحولية أيضا قيمة وأهمية العبيد في المنطقة[٢]، فقد كانت تجارة العبيد من أهم تجارات العصور الوسطى، فإذا كانت الفدية من الأموال والسيوف والمعاطف تعبر عن منتجات المنطقة وتجارتها، فإنَّ الفدية من العبيد تعبر عن أرستقراطية المنطقة ورواج هذه التجارة فيها، هذا بالنسبة للفرنجة، أمَّا بالنسبة للمسلمين فكان من أولويات الغزوات الحصول علي العبيد من الشبان وبيعهم في الأندلس؛ لكونهم يحظُون بشهرة خاصة عند الحكام، لاستخدامهم في الخدمة الشخصية، ويمكن الاعتماد عليهم في حراسة البلاط والحاكم، وفي الحروب المختلفة[٣]، ويبدو أنَّ ذلك راجعٌ إلى خوف الحُكَّام من دسائس بني جلدتهم، وبالتَّالي احتمى بالمُستضعفين الذين ليس لهم أيُّ ظهيرٍ إلا ولي النِّعمِ.

تخلَّى المسلمون عن قاعدتهم في كاماراج في نهاية القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، وتحوَّلَ اهتمامهم ناحية السواحل الجنوبية الشرقية للفرنجة وبروفانس في طريقهم لفراكسينيتوم، وأصبحوا أكثر نشاطاً في غربي المتوسط منذ منتصف القرن التاسع الميلادي إلى حوالي نصف القرن العاشر الميلادي، ساعدهم علي ذلك سوء حالة الدفاعات البحرية الكارولونجية بعد انقسام

---

(١) محمد عباسة : " العلاقات الاجتماعية بين العرب والفرنجة وتأثيرها علي الأدب والفكر " ، مجلة حوليات التراث الجزائر ٣ ٢٠٠٥م ١٠.

(٢) رينو : الفتوحات ، ١٤٨.

(3) M. WENNER, Arab-Muslim,p.63.

الإمبراطورية على أثر الحرب الأهلية في القرن التاسع الميلادي، كما سبق القول؛ ممَّا ساعد الأندلسيون في إثبات وجودهم في المنطقة[١].

أدَّى تفاقُمُ الأوضاع السياسية في مملكة الفرنجة وزيادة الاضطراب بسبب الصراع علي السلطة إلى تهيئةِ الظروف المناسبة للبحريين الأندلسيون للعمل بحريَّةٍ علي سواحلها والاستقرار في فراكسينيتوم؛ فبعد وفاة شارل الأصلع سنة ٨٨٨م اشتعل الصراع بين شارل البسيط ممثل الأسرة الكارلونجية وأودو كونت باريس وامتدت حتى وفاة أودو سنة ٨٩٨م[٢]، وخلال تلك الفترة أعلن ثائر يدعي بوزو Boso في الجنوب الخروج عن السلطة الفرنجية، وأعلن استقلاله سنة ٨٧٩م، وغلب علي ولا يتي دوفنيه وبروفانس ولقب نفسه بملك آرل، وتصدي له بعض الطامعين في السلطة في غاليسيا واندلعت بينهم حروب أهلية في مستهل العقد الأخير من القرن التاسع م[٣] .

عزَّ على البابوية فُقْدَانُ مناطق حيوية من أوربا بمواردها الطبيعية لصالح المسلمين، حيث قام البابا يوحنا الثامن بداية مايو ٨٧٨م / ٢٦٥هـ مع عددٍ من حاشيته برحلة من جنوة إلي آرل علي متنِ ثلاثِ مراكبَ سريعةٍ من مراكبِ مدينةِ نابلي الإيطالية، حيثُ رَسَتْ مراكبه في ١١مايو في ميناء آرل، وطلب الدعم من الحكام الكارلونجيين ضد المسلمين وأعداءه في الشمال الإيطالي، ونبَّههم إلي خطر تفاقم ظاهرة غزو البحريين المسلمين وتطورها من مرحلة الكرِّ والفرِّ إلى مرحلةِ الاستقرارِ[٤]، وتحوُّلهم من قراصنة حسب وجهة النظر الأوربية إلى مُحتلِّين.

فراكسينتيوم Fraxinetum .

تُعدُّ فراكسينتوم من أهمِّ مراكز المسلمين في جنوب فرنسا التي ظلَّت حافلةً بالأحداث التاريخية لمدَّةٍ تزيدُ عن ثمانين عامًا، وينفردُ الأسقف ليو تبراند[٥] برواية هبوط المسلمين علي ساحل خليج

---

(1) M. BALLAN, Fraxinetum,p.49.

(٢) محمد مرسي الشيخ : دولة الفرنجة ، ١٨٩.

(٣) محمد مرسي الشيخ : دولة الفرنجة ، ١٨٧-١٨٨.

(4) F.GANSHOF, notes sur les ports de provence,p.33.

(٥) قام الأسقف بسفارة إلي القسطنطينية مبعوثا من أوتو الكبير ملك ألمانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ٩٦٢-٩٧٣م إلي الإمبراطور نقفور فوقاس الثاني ٩٦٣-٩٦٩م إمبراطور الدولة البيزنطية، ويرجع=

سان تروبيز في البروفانس جنوب فرنسا سنة ٨٨٩م، وتتحدث الرواية اللاتينية عن مجموعةٍ من القراصنةِ المسلمين القادمين من الأندلس علي ظهر مركبٍ صغيرٍ لا يتجاوزُ عددهم عشرين شخصًا اضطرتهم الرياح العكسية عُنْوةً إلى الجنوح إلى خليج سان تروبيز، ولمَّا وصل المسلمون إلى القمم الجبلية التي تشرف خليج سانت تروبيز من جهة الشمال، وتطلُّ على جبال الألب من جهةٍ أخرى، أدركوا على الفور مدى مُلائمة المنطقة لاستقرارهم؛ فالبحرُ مفتوحٌ أمامهم لتلقي الإمدادات والنَّجدات، بينما يُوفِّرُ لهم البرُ منفذًا إلى النَّواحي التي يزمعون الإغارة عليها، أمَّا الغابةُ فتصلحُ ملجأً لهم عند الاضطرار[١].

و"نزل هؤلاء القراصنةُ في ليلة محزنة تحت جنح الظلام ودخلوا إلي قرية خلسةً، وقتلوا للأسف سُكَّانها المسيحيين، ثُمَّ استولوا بعد ذلك علي المكان وأصبح ملكًا لهم، واتَّخذوا من جبل المسلمين سُمِّي بعد ذلك جبل المور المجاور لهم حصنًا ضد هجمات من جيرانهم"[٢]، ويرى أحد المستشرقين[٣] أنَّ استيطان المسلمين في هذه المنطقة كان حدثًا عارضًا جاء أثناء عاصفة عاتية فاجأت مجموعة صغيرة وأرغمتها علي النزول إلى الشاطئ، ولمحاولة فهم ذلك سوف نعرض في نهاية هذا الكتاب دراسةً خاصَّةً عن فراكسينيتوم ودورها في المنطقة خلال الفترة التي وقعت فيها تحت حكم المسلمين.

والخُلاصةُ هي أنَّ التَّفوُّقَ البحريَّ للمُسلمين في شَمالِ غربِ المُتوسِّطِ جعلَ البحرين الأندلسيينَ يرتَادُونَ هذه المَنَاطِقَ بسهولَةٍ ويُسْرٍ، بسببِ انخفاضِ الدِّفاعَاتِ البحريَّةِ الإفرنجيَّةِ، وكذلك الفراغُ السُّكَّانيُّ، وكان هدفُهم دائمًا هو الكنائسُ والأديرةُ لمَا تحويه من ذخائرَ وكنوزٍ، ونجحتْ هذه الجمَاعَاتُ البحريَةُ فيما فشلتْ فيه الجيوشُ البريَّةُ، حيثُ احتلَّتْ الكثيرَ من المواقعِ الاستراتيجيَّةِ

= إلمامه بالمنطقة وتضاريسها كونه كان شماسا في الكنيسة خدم في بلاط هيو البروفنسالي ٩٢٦-٩٤٩ وفي بلاط خليفته برنجار الثاني ٩٥٠-٩٦١م قبل أن يترك الأخير وينتقل لخدمة أوتو الكبير ، راجع ، علي أحمد السيد، صفحة من العلاقات الدبلوماسية الألمانية البيزنطية ، الدار المصرية ، الإسكندرية ١٩٩٩م ، ٧، ٨، ٩.

(١) رينو ، الفتوحات ، ص١٥٢-١٥٣

(2) Liudprand ,the work of Liudprand, p,33.

(3) the Arab-Muslim p.62 M. WENNER,

على السَّاحِلِ الإفرنجيِّ، وأقامتْ كيانًا سياسيًا على الساحل الجنوبي لفرنسا في إقليم البروفانس، ومنه انطلقت لإتمامِ عمليَّاتِهَا في التُّرابِ الفرنسي، والحديثُ عن شرعيَّةِ عمليَّاتِها التي اختلطَ فيها الجهادُ بالقرصنَةِ تم تفصيله في المتن، لكن ما يجبُ الإشارةُ إليه هو أنَّ طبيعَةَ المرحلةِ استوجبَتْ تلك العمليَّاتِ.

* * *

المصادر والمراجع

-الإدريسي أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز الشريف ت٥٨٨هـ/١١٦٢م ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية ، ١٩٩٤م .

-البكري أبو عبيد الله بن عبد العزيز ت٤٨٧هـ/١١٠٣م : المغرب في ذكر إفريقية والمغرب ، مكتبة المثني، بغداد ، ٦٢ .

-ابن حيان ابن حيان القرطبي ت٤٦٩هـ/١٠٧٦م ، المقتبس في أخبار الأندلس ،ج٥، تحقيق : شالميتا ، الرباط ١٩٧٩م.

-... المقتبس ،ج ٢ ، تحقيق : محمود علي مكي ، وزارة الأوقاف المصرية ١٩٩٥م.

-ابن عذارى المراكشي ت القرن ٨هـ/١٤م ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ،ج١ تحقيق ج. س. كولان ، ليفي بروفنسال ، الدار العربية للكتاب ، ط٣ لسنة ١٩٨٣مم

-العمري ، ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م مسالك الأبصار وصف افريقية والمغرب والأندلس ، تعليق ونشر : حسن حسني عبد الوهاب ، تونس .

-ابن الفقيه الهمداني ت نحو سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م ، مختصر تاريخ البلدان ، طبع ليدن ١٨٨٥م.

LIUDPRAND, the work of Liudprand of Cremona ,translated by F.A.Wright, London 1930

الحوليات الديرية

ANNALES DE SAINT-BERTIN. - ANNALES DE METZ 840-868dans collection Des memoires-

A l, Histoire De France , M. Guizot, Paris 1824

- Annals of ST- Bertin, ninth-century histories, volume 1 ,Translated and annotated by Janet L. Nelson, Manchester University 1981

-The Annals of Fulda: Ninth-century Histories, Translated by Timothy Reuter , Ma - chester University 1992

المراجع العربية

-أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية.

-أرشيبالد .ر. لويس : القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة : أحمد محمد عيسي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٠م .

-جوزيف رينو : الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا في القرن الثامن والتاسع والعاشر الميلادي ، ترجمة: إسماعيل العربي ، دار الحداثة بيروت بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية ،ط١ ١٩٨٤م .

-حسين مؤنس : " المسلمون في حوض البحر المتوسط إلي الحروب الصليبية "، مجلة الجمعية ا لمصرية للدراسات التاريخية ، مجلد ٤ لسنة ١٩٥٢م.

-سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ الإسكندرية من أقدم العصور ، محافظة الإسكندرية ، ١٩٦٣م.

-شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، دار الحياة بيروت ١٩٦٦ م.

-طرخان ، إبراهيم علي : المسلمون في أوربا في العصور الوسطي ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ١٩٦٦م.

-علي أحمد السيد ، صفحة من العلاقات الدبلوماسية الألمانية البيزنطية ، الدار المصرية ، الإسكندرية ١٩٩٩م.

- ليفي بروفنسال : تاريخ أسبانيا الإسلامية ، ترجمة : علي عبد الرءوف البمبي وآخرين ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠٠م.

-محمد خالد مصطفي المؤمني : " الصراع بين الدين والدولة في عصر الحكم الربضي " ، دراسات العلوم الإنسانية الاجتماعية الجامعة الأردنية م٣٦، العدد ٣ لعام ٢٠٠٩م

- محمد عباسة : " العلاقات الاجتماعية بين العرب والفرنجة وتأثيرها علي الأدب والفكر "، مجلة حوليات التراث الجزائر ٢٠٠٥م .

-محمد مرسي الشيخ ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨١م .

-نورمان كانتور : التاريخ الوسيط ، ج١ ترجمة : قاسم عبده قاسم ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤م.

-وفاء عبد الله المزروع : جهاد المسلمين خلف جبال البرتات ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القري١٩٨٧م .

يري بوجن أولسومر، أسلافنا العرب ، ترجمة وتعليق : محمد محفل ، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق ١٩٩٥م.

المراجع الأجنبية

-E.SEMPLE, " The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin and Its Northern Breaches as Factors in History" ANNALS OF THE ASSOCIATION OF AMERICAN GEOGRAPHERS, Vol. 5 1915

-F. GANShof, "notes sur les ports de provence du v111e au xe siècle" , REVUE HISTORIQUE 183, 1938

-- H .Krueger, "The Italian Cities and Arabs before 1095" A HISTORY OF CURSADES vol .1,ed Setton, K., Philadelphia 1955

-J. PRYOR, Geography, and war, studies in the maritime history of the Mediterranean 649-1571,Cambridge University,1992

-K. VERSTEEGH, " the Arab presence in France and Switzerland in the 10 th century " , ARAICA, tome xxxv11,1990.

-M. Ballan,"Fraxinetum: an Islamic frontier state in tenth-century Provence" JOURNAL OF MEDIEVAL AND RENAISSANCE STUDIES,vol.412010

-M. WENNER, " the Arab/ Muslim presence in medieval central Europe ", JOURNAL OF MIDDLE EAST STUDIES,12 1980

-R .Lopes, medieval trade in the Mediterranean world, oxford university , London 1955.

(٢)

القرصنة غربي المتوسط

القرن ٢-٥هـ / ٨-١١م

في البداية أود أن أُشير إلي التَّردد الذي امتلكني حينما قررت التَّعرض لهذا الموضوع الشَّائك، ومرد ذلك ندرة المصادر والمراجع العربية التي تناولت هذا الموضوع ؛ خاصة عن الجانب الإسلامي، وحتى مَنْ تناولها من روادنا الفُضلاء ؛ أشار إليها على استحياء ، ولم يُبدِ رأيًا واضحًا فيما انتهجه قراصنة المسلمين ، بيد أن إتباع منهج البحث المُحايد يحتم تسمية الأشياء بمُسمياتها ، دون خوفٍ أو خَجَلٍ من تشويه ماضي المسلمين المشرق وإن اعترته مثل هذه التَّصرفات ؛ خاصة أن قلة من المسلمين امتهنت القرصنة في غربي المتوسط في فترة البحث القرن ٢-٥هـ/٨-١١م محاكاة للقراصنة الأوربيين ، والولوج إلي هذا الموضوع هو ما يُنزِّه تاريخنا الإسلامي ، ويبعد عن كتابته تُهمة التَّحيِّز المقيت .

وترجع صُعوبة محاولة كشف النِّقاب عن هذه العمليات إلي وضع الباحث في حرج الانتماء؛ خاصة أن المادة المُتاحة أبانت عن أن أكثر حالات القرصنة في الفترة المُشار إليها ، قام بها بحارة مسلمون ضد البلاد الأوربية وسفنهم ، وهذا ليس معناه أنَّ المسلمين في غربي المتوسط هم الجُناة والأوربيين هم الضَّحية ، بل كانت هناك بعض الشُّعوب الأوربية التي تخصَّصت في عمليات القرصنة ، وعاني منها المسلمون كثيرا قبل ازدهار بحريتهم .

ومن العبث السَّعيُ وراء تفسيرات تُجَنِّبُ المسلمين تُهمة القرصنة في غربي المتوسط ، ومحاولة إلصاق هذه التُّهمة بالآخرين من البيزنطيين ، والإيطاليين ، والإفرنج ، والنورمان وغيرهم ، ولكنَّ المعيار الموضوعي هنا هو رصد ما حدث ، ووصفه بحيادٍ ، ، والقضية التي تضعنا علي المَحَكِّ

هي قضية البحريين الأندلسيين الذين جابوا غربي المتوسط ؛ وما دار حولهم من لَغَطٍ ؛ هل كانوا مُجاهدين أم قراصنة ؟ مما يحتم علي الدراسة ولوج منحى فقهيا للتعرف علي معني الجهاد كما بينه الإسلام ، وهو ما يُفسِّر لنا الكثير من الإشكاليات الأخرى التي تدور في الاتجاه نفسه ، وعلي الله قصد السبيل .

تداول النُّفوذ والسَّيطرة علي غربي المتوسط :

ورث البيزنطيون السَّيطرة والنُّفوذ علي البحر المتوسط خلفا للإمبراطورية الرومانية ، حتى ألصق أسمهم بالبحر المتوسط ، وعرف في المصادر العربية بالبحر الرومي . فلم يكن البحر فقط هو الذي يقع في دائرة نفوذهم ؛ بل صدر من القوانين في عهد بومبي ما أعطي للإمبراطورية الرومانية الحقَّ في الإشراف علي كامل سواحل المتوسط ، بالإضافة إلى خمسين ميلاً داخل أراضي هذه السواح[١] ، وعندما آلت إمبراطورية الرومان إلي البيزنطيين ؛ مارس البيزنطيون نوعًا من القرصنة التجارية ، والرقابة علي التجارة في البحر المتوسط ، من خلال احتكار تجارته لصالح الإمبراطورية البيزنطية وحلفائها ، وأمعنوا في احتكارهم بمنع التُّجار السوريين والمصريين من الوصول إلي أسواق الغرب ، وكذلك منع تجار اليونان من نقل التجارة في مناطق القسطنطينية وبحر إيجة وآسيا الصغرى ، فضلا عن منع التجارة الدولية من المرور خلال مواضع معينة من المتوسط ما يزيد عن مائة عام ٩٨-٢١٢هـ/٧١٦-٨٢٧م[٢] ، ومكَّنهم ذلك من بسط سيطرتهم على معظم سواحل البحر المتوسط الأوربية والأسيوية والإفريقية ، ولأنَّ البحر المتوسط حلقة الوصل بين القارات الثلاث اختصُّوا أنفسهم وحدهم بالوساطة في التجارة العالمية ، ولم يسمحوا لأي قوى أخرى بمشاركتهم في هذا الدور[٣] .

تركت هذه الرَّقابة والحظر التجاري أثرا إيجابيا في جانب الطرف الغربي للإمبراطورية ، فمنحت سفن هذه المنطقة الامتياز في الاتِّجار مع القسطنطينية خاصة ، ومع موانئ البحر المتوسط

---

(1) Starr, Chester G., Coastal defense in the Roman world, American Journal of Philology no. 2531943,pp.60.

(٢) لويس ، القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة ، أحمد محمد عيسي ، القاهرة ١٩٦٠م، ص١٨٤-١٨٥، ١٨٨

(٣) محمود إسماعيل ، الأغالبة ، مكتبة وراقة الجامعة ، فاس ١٩٧٨ ، ص ١٨٨.

عامة، وكان أكثر المستفيدين من هذا الحظر تجار المدن الإيطالية ، أمثال أمالفي ونابولي وجايتا والبندقية ؛ عندما تغيَّر الوسطاء علي إثر الحظر ؛ بذلك خلا المجال لسفن المدن الإيطالية في المنطقة[١]، وتحوَّل التجار الإيطاليون من أصحاب ثغور تتمتع بامتيازات خاصة إلى وسطاء في التَّبادل التجاري بين الغرب والشرق . نجم عن الازدهار الاقتصادي لبعض هذه المدن أن حققت مكسبًا سياسيًا بلغت بمُقتضاه البندقية ونابولي وبعض المدن الإيطالية الأخرى مرتبة الولايات المستقلة[٢] .

وبدأت أولي محاولات المسلمين فكِّ حصار البيزنطيين عن المتوسط منذ معركة ذات الصواري، ومن بعدها انطلق المسلمون في عرض البحر[٣] ، ويبدو أنه كانت هناك خطة أموية ما ترمي إلي تطويق الوجود البيزنطي في البحر المتوسط عن طريق انتزاع سواحله الجنوبية ومهاجمة الجزر المتوسطية وذلك من خلال سلسلة من المعارك بين سنتي ٢٩-٣٥هـ/ ٦٤٩-٦٥٥م دمَّروا فيها القوي البحرية البيزنطية[٤] ، وفي غربي المتوسط مُنيت البحرية البيزنطية بخسارة فادحة سنة ٧٩هـ/٦٩٨م ، وذلك عندما استولي حسان بن النعمان علي قرطاجنة[٥] . ولم تأتِ سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م إلا وقد انتهت هذه السَّيطرة والهيمنة البيزنطية علي المتوسط ، عندما دخل الأغالبة إلي صقلية بعد عدد من الغزوات المهمة .

---

(١) لويس ، القوى البحرية والتجارية ، ص ١٨٥ - ١٨٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٨٨.

(٣) يري أحد الدارسين المحدثين أن معركة ذات الصواري ٣١هـ أو ٣٤هـ كانت أول معركة حاسمة في البحر خاضها المسلمون ، كما اجتهد في تحديد مكان المعركة بعد اختبار المصادر العربية والمراجع الأجنبية بأن ثغر فونيكة الذي يقع غرب الإسكندرية بالقرب من مدينة مرسي مطروح هو ميدان هذه المعركة ، راجع ، شوقي أبو خليل ، ذات الصواري ، دار الفكر المعاصر،دمشق ٢٠٠١ ، ص ٥٨-٦٩ ويري معظم المستشرقين أن مكان المعركة يقع جنوبي أسيا الصغرى ، راجع ، حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر المتوسط إلي الحروب الصليبية ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، م٤ لسنة١٩٥٢م، ص٩٠ والحاشية .

(٤) لويس ، القوي البحرية ، ص١٧.

(5) Krueger،H.C، The Italian Cities and Arabs before 1095،in a history of crusades vol.1،ed. by setton ،K.،philadelphia1955،p41 .

حطَّم مسلمو الشَّمال الإفريقي قوة القسطنطينية البحرية ، وأسَّسوا قوة خاصة بهم[١] ، وفطنت المدن الإيطالية إلي تغيُّر ميزان القوي في غربي المتوسط لصالح المسلمين ؛ فبدأت في الاتِّجار مع مناطق الحظر البيزنطي ، وخاصة الموانئ الإسلامية في شمالي أفريقيا ومصر. وتجلى اختراق هذا الحظر في تجارة هذه المدن خاصة البندقية[٢] وأمالفي مع موانئ إفريقية ، حيث اتَّجهوا صوب مصالحهم التجارية ، ولم يعبئوا بقرارات الحظر البيزنطي ؛ خاصة أنَّ أمالفي كانت تُزوِّد أوربا بمنتجات الشرق[٣] ، ولها علاقتها مع دول الشمال الإفريقي قبل فتح صقلية[٤] .

أصبحت القوي الإسلامية تسيطر علي وسط المتوسط وغربيه من خلال الأغالبة ، ثم الفاطميين من بعدهم في صقلية ، وكذلك القوي البحرية المغربية والأندلسية ، وساعدتهم طبيعة الحوض الغربي الملاحية ، حيث تنوَّعت طرق التجارة البحرية فيه أكثر منه في الحوض الشرقي ، كما أنَّ الرياح السَّائدة في الحوض الغربي كانت تفرض صعوبات أقل علي المسارات البحرية ؛ مُقارنة بالرياح المُحبطة في الحوض الشرقي ، وبالتالي لم تكن الطرق في الحوض الغربي قصرا علي المسارات البحرية الضيقة ، حيث يمكن التَّغلب علي معظم الصعوبات بسهولة ، ومع ذلك كانت الملاحة الشاطئية علي طرق محدَّدة أكثر انتشاراً في الحوض الغربي عندما كانت الظروف السياسية والدينية تسمح بذلك[٥] ، لذلك فإنَّ القوي الإسلامية ممثلة في الأساطيل الرسمية للأغالبة وأمويي الأندلس ، وغيرهم من البحريين الذين كانوا يعملون لحسابهم الخاص ، تعددت هجماتهم علي البحر الأدرياتي شرقي إيطاليا والبحر التيراني في غربها خلال القرن٣هـ/ ٩م ،

---

(١) لويس ، القوي البحرية ، ص ١٧٠ ، ١٨٤.

(٢) عن نشاط البنادقة في اختراق الحظر وتصدير الخشب والرقيق إلى الشواطئ الإسلامية ، انظر لويس ، القوى البحرية والتجارية ، ص ١٧٩ ؛ ويشكك لويس في تطبيق هذه الحظر خاصة على موانئ إفريقية فيما بين سوسة وقابس ، نفسه ص ١٧٧ ، وعن تطبيق هذا الحظر على موانئ إفريقية الأخرى ، أنظر هايد ، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى ، ترجمة ، أحمد محمد رضا ، القاهرة ١٩٨٥ ، ١ ص ١٢٦.

(٣) إدورد جيبون ، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ترجمة محمد علي أبو ريده ، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٩م ٣ص ١٣٦.

(4) Citarella ,Armand. o.,The relations of Amalfi with the Arab world before the Crusades ,speculum 42 1967 ,p.303

(5) Pryor. Geography. technology. and war studies in the maritime history of the Medite - ranean 649-1571.Cambidge un.1992.p.89.

وظلُّوا يُرهبون الشواطئ الإيطالية حتى القرن ٥هـ/ ١١م[١] ، ولم تعد السفن الغادية إلي شواطئ أوربا والعائدة منها تنتقل في حرية بين شواطئ الشام ومصر والمغرب وبين ما شاءت من شواطئ أوربا صادرة بالمتاجر واردة بالخيرات ، وإنما خيَّم علي شواطئ فرنسا الجنوبية وإيطاليا الشرقية والغربية سكونٌ ، إذ لم تعد هناك سفن تذهب أو تجيء[٢] .

اتسمت سواحل المغرب من تونس وحتى المحيط الأطلسي بخصوبة الأراضي وراحة السُّكني، ووفرة الماءً ؛ لذلك كان النشاط البحري في هذه المنطقة من المتوسط جزءًا لا يتجزأ من حياته وكيانه الاقتصادي[٣] ، ورب ضارة نافعة فالهجمات القرصانية التي تعرضت لها القوى الإسلامية في غربي العالم الإسلامي قبل بناء بحريتها كان لها فوائد سياسية واقتصادية ، حيث اضطرتها إلي أن تبني بحريتها وإقامة الرباطات والمحارس؛ لحماية سواحلها من القراصنة ، وتحطيم السفن الغازية ، فضلاً عن الإبحار بتجارتها إلي العالم الخارجي ، وينطبق ذلك أيضا علي جنوة وبيزا وأمالفي وبرشلونة في شمالي غربي المتوسط بعد ذلك ؛ ففي إطار حروبها الطويلة مع البحرية الإسلامية عزَّزت قوتها البحرية ، ونهضت ببحريتها ، واضطلعت بدورها كدول بحرية[٤] أصبح غربي المتوسط بحيرة إسلامية منذ القرن ٣هـ/٩م ؛ ممَّا سهَّل علي الأسطول الإسلامي والقراصنة المسلمين الرسميين المدعومين من حكوماتهم تنفيذ عملياتهم[٥] ، حيث مكنتهم قواعدهم المتقدمة في الجزر المختلفة في غربي المتوسط علي انجاز عملياتهم بسهولة ؛ فالمسافة بين جزر البليار الجزائر الشرقية[٦] في الجنوب وخليج ليون في الشمال ٢٥٠ ميلاً ، كما كانت فراكسينيتوم

---

(1) Ibid ،p106

(٢) حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر المتوسط ، ٨٤.

(٣) المرجع نفسه ، ص٩٦.

(4) Ellen Churchill Semple، Pirate coasts of the Mediterranean sea, The Geographical R - view II،1916،p.150.

(٥) سوف يأتي تفصيل هذا اللقب عند الحديث أنواع القرصنة.

(٦) فتحت ميورقة سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م علي يد عصام الخولاني في عهد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط ٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م ، وبعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس وظهور ملوك الطوائف، كانت ميورقة وكل الجزائر الشرقية جزر البليار تتبع لمملكة دانية برئاسة أسرة مجاهد العامري. وظلت كذلك حتى سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م تاريخ سقوط مملكة دانية في يد المقتدر بن هود صاحب سرقسطة، فاستقل برئاستها حينئذٍ =

تسيطر علي بحر Ligurian ، والبحر التيراني محصورٌ بين صقلية وسردانية وكورسيكا قورشقة، ناهيك عن سيطرتهم علي كامل سواحل الشمال الإفريقي وجزره[١] .

القرصنة والقراصنة

بدهي أن تشير الدراسة باختصار إلي التعريف بكلمة قرصنة[٢] ، ومدلولاتها في الكتابات العربية والغربية ؛ ممَّا يُجلي الصَّورة عند التَّعرض لهذا المصطلح عبر هذه الدراسة حتى لا يتم الخلط بين معانيها ؛ فهناك نوعان من القرصنة ، الأول : يُسمَّي قرصنة خاصَّة ، والثاني : يُطلق عليه قرصنة رسمية . أمَّا النوع الأول القرصنة الخاصة أو القرصنة الحرة ، فهي ما يُعبَّر عنها بالفعل Pirate الإنجليزي ، وأمَّا الاسم فهو Piracy ، والكلمة مُشتقَّة من الإسم اللاتيني Pirata ويعني قرصانا ، لكنها تعود إلي أصل يوناني ، حيث تمَّ استخدامها في اللغة اليونانية قبل القرن الرابع أو القرن الثالث ق.م ، وتعني : الهجوم أو محاولة الاعتداء علي السُّفن التِّجارية[٣] ، ظل

= عبد الله المرتضى الذي كان والياً عليها من قبل علي بن مجاهد العامري حتى سنة ٤٨٦ هـ تاريخ وفاته، فخلفه على ولايتها أحد فتيانه وهو مبشر بن سليمان إلى غاية سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م، وهو التاريخ الذي تعرضت فيه ميورقة للغزو الإسباني الذي اتحدت فيه جمهوريتا بيزة وجنوة وإمارة برشلونة، وهو أول غزو إسباني لها منذ فتحها ولكن سرعان ما استعادها المرابطون في أواخر سنة ٥٠٩ هـ/١١١٥ وعينوا عليها والياً جديداً هو أنور بن أبي بكر اللمتوني، فأضحت بذلك الجزائر الشرقية جزءاً من الدولة المرابطية الكبرى ودخلت في عهد جديد من تاريخها، سيما بعد تعيين محمد بن غانية المسوفي والياً عليها سنة ٥٢٠ هـ/١١٢٦م، من قبل الأمير علي بن يوسف. واستطال حكمه لتلك الجزائر زهاء ثلاثين عاماً، أي إلى مابعد سقوط الدولة المرابطية في المغرب والأندلس. وعمل على توطيد سلطانه هناك والاستقلال بشؤونها وجعل منها ملجأً ومثوى للوافدين والفارين من فلول لمتونة أمام الموحدين. وبعد وفاته سنة ٥٥٠ هـ/١١٥٥م خلفه على ولاية ميورقة ابنه عبد الملك الذي لم تطل ولايته إذ خلفه أخوه إسحاق بن محمد حتى تاريخ وفاته سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٣م .ووليها ابنه عبد الله منذ سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م حتى سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٣م تاريخ افتتاحها من طرف الموحدين. راجع ، محمد بن معمر ، قراءة في مخطوط تاريخ ميورقة لأبي عمير المخزومي ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، العدد ٩٨لسنة ٢٠٠٥م.

(1) Pryor. Geography. technology. and war.p105.

(٢) كلمة قرصان معربة عن الكلمة الإيطالية carsale ، راجع ،

The Encyclopedia of Islam. New Edition. Leiden.1986. 5.p.502

(3) Henry A. Ormerod. Piracy in the Ancient World. Liverpool.1924.p.59.

هذا الاسم ملتصقا بأعمال القرصنة الخاصة أو الحرة خلال العصور الوسطي ليدلل علي السَّلب والأسر من أي سفن تُصادف القُرصان ، بصرف النظر عن نوع السفينة ، وجنسية مَنْ علي متنها ودينه[١] ، وتصف المصادر العربية مَنْ يقوم بأعمال القرصنة الخاصة أو الحرة بلصوص البحر[٢] ، وكذلك بالقطاع[٣] ويعرِّفُها آخر[٤] بأنَّها مجموعة فوضويَّة خارجة علي القانون تعتدي علي الملاحة، وتستولي علي التجارة البحرية ، وتبيعها بأسعار دون سعرها الحقيقي . وبالتَّالي فإنَّ طبيعة عمل القراصنة من هذا النوع من القرصنة Piracy هو اعتراض مجموعة من المغامرين السُّفن التجارية أو الهجوم علي السواحل يقودهم حلم الثراء السريع ، وتكون السفن والسواحل كافة عُرضة لهجماتهم وغاراتهم الخاطفة ، وغاية هدفهم هو الغنيمة علي حساب الضَّرر العام[٥] .

ويطلق علي النوع الثاني من القرصنة : القرصنة الرَّسمية Corsair بالإنجليزية ، Corsaire بالفرنسية[٦] ، وينسب قدماء المؤرخين هذا اللفظ إلي اسم جزيرة كورسيكا Corse ؛ لأنَّ سُكانها اشتهروا بالاستيلاء علي ممتلكات غيرهم[٧] ، ويري آخر أنَّ أصل هذه الكلمة يعود إلي الكلمة الإسبانية corsrio ، وتعني كل عمل خاص يضرُّ بسفن العدو التجارية مع تغاض واضح من السُّلطات[٨] . وأيًا ما كان أصل الكلمة فإنَّ مصطلح Corsair يُطلق علي المتطوِّع البحري العسكري ، ويعتبر بمثابة مُحارب قانوني يزاول مهمته بطلب ، أو بترخيص من إحدى القوات المُتحاربة ، بهدف التضييق علي الملاحة التجارية للخصم ، والإضرار بمصالحه ، ومن ثم يُنظر إليه

---

(1) The Encyclopedia of Islam 5.p.502

(٢) الونشريسي ، أحمد بن يحي ت٩١٤هـ ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب ، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨١م ،٨ ص٣٠٢.

(٣) في ترجمة لولد الإمام سحنون محمد ت٢٥٦هـ الذي كان ينقطع للعبادة وللحرس علي المسلين في قصر الطوب يقول الراوي : « فنزلت قطاع الروم بساحل ذلك البحر » ، راجع ، المالكي ، أبا بكر عبد الله بن محمد ، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ، دار الغرب الإسلامي ، ط٢ بيروت ١٩٩٤م ، ١ص٤٤٦.

(4) Ellen Churchill Semple. Pirate coasts of the Mediterranean sea. .p.134.

(٥) حسن أميلي ، مسألة الجهاد البحري بين القرصنة ولصوصية البحر ، البحر في تاريخ المغرب ، جامعة الحسن الثاني – المحمدية ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، سلسلة ندوات رقم ٧ ، ص١١٤.

(٦) نقلا عن حسن أميلي ، المرجع نفسه ، ص١١٢.

(٧) حسن أميلي ، المرجع نفسه ، ص١٢٢ والحاشية.

(٨) لويس ، القوي البحرية ، ص٢٤١.

كجندي يخدم مصالح السُّلطة التي يأتمر بأمرها ، ويحافظ علي ديمومة الصِّراع بديلاً عن القوات النِّظامية ، وبالتالي فإنَّ القرصنة من هذا النوع مُرخَّصة وتحظي بالدَّعم والتَّأييد من السلطات السياسية التي كانت تُقدِّم لها التسهيلات مقابل جزء من الأرباح[١] . وأيًا ما كانت قرصنة خاصة أو رسمية فالنتيجة واحدة ، لكن يبقي أن نشير إلي أنَّ مصطلح القرصنة الخاصة Pirate يعود في أصله إلي شرقي البحر المتوسط ، وأمَّا مصطلح القرصنة الرسمية Corsair فيعود إلي غربيه، والأخير يدلِّلُ علي تطوُّر هذه المهنة بحيث أصبحت بإشراف السُّلطات الرسمية .

يخضع القُرصان لعمليات تدريب وتعليم ؛ مثلما يتدرَّب ملاحو البحرية التجارية[٢] ، ولابد أن يكونوا مهرة وخبراء بطرق البحر وبالسفن والبحار التي يُبحرون فيها ؛ إذا أرادوا النَّجاح لأنفسهم، من حيث معرفة الأجزاء الحيوية من الخطوط البحرية التي تتجمع فيها السفن في أوقات معينة من السنة لأسباب اقتصادية ؛ مثل مواسم التجارة في سلعة معينة ، أو أسباب بحرية تتعلق بمواعيد الإبحار ، ليتخذوا من هذه المناطق مقاما منها ينقضون علي فريستهم ، ولا غرابة في أن المناطق التي حددتها المصادر التاريخية بأنَّها مناطق تجمع القراصنة ، هي مناطق الخطوط البحرية الحيوية نفسها ؛ فكان تواجدهم عند تقاطع هذه الخطوط بعضها مع بعض ، أو في أماكن مرور هذه الخطوط بخلجان صغيرة ، وكذلك بالمضايق البحرية[٣] ، فضلاً عن أنشطتهم بين الجزر وأشباه الجزر[٤].

تتجنب السفن التجارية الملاحة في الشتاء[٥] ، وكان الإغريق والرومان يتركون سفنهم التجارية في الموانئ من شهر أكتوبر إلي شهر ابريل ؛ بسبب العواصف وانخفاض الرؤية الناتج عن تزايد الضَّباب خاصة في الملاحة الشاطئية المحاذية للشاطئ ، وظلَّ هذا الوضع قائمًا منذ القدم حتى القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، حيث تتوقَّف الملاحة في تلك الفترة ، بل إنَّ

---

(1) Pryor, Geography, technology, and war, ,p155,

لويس ، المرجع السابق ، ص٢٤١.

(٢) إميل لودفيغ ، البحر المتوسط ، ترجمة عادل زعيتر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٢م ، ص٤٤٥.

(3) Pryor, Geography, technology, and war,p.156.

(4) Ellen Churchill Semple, Pirate coasts of the Mediterranean sea ,p.135

(٥) راجع ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، دار الكتاب المصري اللبناني، ص٢٣٦.

حالة الحرب البحرية والقرصنة توقَّفت في الشِّتاء أيضًا[١] ، وعرف العرب مبكرًا مواعيد الإبحار؛ فعندما قدم عطاء بن رافع الهذلي في مراكب أهل مصر قاصدًا سردينيا في ثمانينيات القرن الأول الهجري ؛ رسا بميناء سوسة ؛ فكتب موسي بن نصير لعطاء إنَّ ركوبَ البحر قد فات هذا العام ؛ فأقم ولا تغرر بنفسك [٢] ، ويحتم المناخ توقف القرصنة فيتخذها القراصنة فرصة لإعادة تجهيز أنفسهم لموسم قادم ، ومع ذلك لم يكن الشتاء دائما خاليا من عمليات القرصنة علي ندرتها[٣] ؛ ففي القرن٥ ، ٦ هـ/ ١١ ، ١٢م كان البحر يخلو من السفن والبحارة من نوفمبر إلي مارس في العالم الإسلامي ، وكذلك كان يفعل الغرب المسيحي ؛ فقد كان يفرض علي القبطان الذي يدخل بسفينته إلي الميناء في بيزا علي سبيل المثال ألا يغادره إلا في موسم الإبحار[٤] الذي يبدأ من شهر مارس[٥] .

يختلف مركب القُرصان في شكله عن المركب الحربي ، ودائمًا ما يُشار إلي مراكب القراصنة بأنَّها قوة مُعادية وليست سفنا حربية ، ولم نجد أنَّ القراصنة استعملوا زيًا خاصًا أو نوعًا معينًا من السُّفن ، وفي أغلب الحالات كان القُرصان يكتفي بأول مركب يحصل عليه ، إمَّا عن طريق السَّرقة أو الشِّراء[٦] ، ولم يكن هناك فارق بين المجدفين والبحارة في سفن القراصنة الكل يعمل كفريق واحد لتنفيذ مهمة معينة[٧] ، وقد كانت السَّفينة الشَّائع استخدامها في البحر المتوسط حتى القرن ٦هـ/ ١٢م هي القادوس ، وهي عبارة عن مركب شراعي ذو مجاديف[٨] .

---

(1) Pryor, Geography, technology, and war,p87-88.

(٢) أماري ، المكتبة العربية الصقلية ، ليبسك ١٨٥٧م ، ص ١٦٣ .

(3) Henry A. Ormerod, Piracy in the Ancient World, p18.

(4) Pryor, Geography, technology, and war, p.88.

(٥) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص٢٣٨ .

(6) Henry A. Ormerod, Piracy in the Ancient World, p28-29.

(٧) هيو كينيدي ، الفتوحات العربية الكبرى ، ترجمة : قاسم عبده قاسم ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ٢٠٠٨م، ص٤٦٦ .

(٨) جون كلود هوكت ، العلاقات البحرية والملاحية في البحر المتوسط ، ترجمة لمياء الأيوبي ، ضمن كتاب ، ابن خلدون ، البحر المتوسط في القرن الرابع عشر ، قيام وسقوط إمبراطوريات ، مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٧م ، ص٢١٢ ، ولكن في العصر الحديث ـ في بداية القرن الثامن عشر الميلادي ـ رفعت سفن القراصنة علم القرصان Jolly Roger؛ لإرهاب السُّفن ، مرسوما عليه الجمجمة والعظمتين المُتقاطعتين ، ثم تطور إلي أشكال أخري .

القرصنة والدِّين بين الشَّمال والجنوب

نشطت القرصنة الرسمية Corsair عندما خضعت السواحل الجنوبية للمتوسط لسلطان المسلمين والشمالية لسيطرة المسيحيين ، وانصياعا لمُعطيات الفترة التاريخية التي تنتمي لعصر الإيمان ، فإنَّه تمَّ إضفاء الهالة الدينية علي القرصنة عند الطرفين ، بمعني اعتبار القرصنة عملاً جهاديًا مُقدَّسًا ؛ يقوم به كل طرف ضد الآخر ، وإن كانت لا تعدو في أصلها عمليات قرصنة رسمية تتمُّ بموافقة الحكومات في الجانبين . والنصوص العربية القليلة عن النشاط البحري للمسلمين في غربي المتوسط تري أنَّ هذا النشاط كان حربًا دينية ، وغزواً للدول المسيحية وسفنهم في إطار الجهاد الديني ، وتصف حوليات الأديرة في البلاد التي وجه البحريون المسلمون إليها نشاطهم هذا النشاط بالقرصنة بعد توضيح ما قام به المسلمون من أعمال سلب ونهب ، والفيصل هنا بالنسبة للمسلمين هو توافر نية الجهاد لديهم لاعتبار أعمالهم جهادًا ، وحسب المذهب المالكي الذي ساد في غربي العالم الإسلامي ينبغي علي المجاهد أن يعقد نيته علي الجهاد ، ولابد من توافر ستة شروط في المجاهد إذا سقط واحد منها لا يعتبر جهادا ، وهي الإسلام ، والبلوغ ، والعقل ، والحرية ، والذكورة ، والاستطاعة بصحة البدن ، وما يحتاج إليه من مال[١] ، أمَّا إذا لم تتوافر النية ، ولم تكتمل الشروط فيكونون مجرد طامعين في الغنم والسلب[٢] ، وينطبق عليهم وصف الكُتَّاب الغربيين الذين يعتبرونهم قراصنة Pirates .

ويصف المؤرخون الغربيون المعاصرون أتباع دينهم من رجال البحر أنهم المجاهدون حقًا ، وما يفعلوه بالمسلمين من أعمال قرصنة إنما وسام علي صدورهم[٣] ، ويسمي بعضهم[٤] هؤلاء القراصنة بالبحرية الخاصة التي تعاونت مع البحرية النظامية للدول التابعة لها Corsair ، وعلي الجانب الآخر يعتبر بعض الكتَّاب المسلمين رجالهم من المسلمين مجاهدين ينفذون أحد واجبات الدين الإسلامي ، وهو تحيُّز سافر ـ من الفريقين ـ لا يخضع لمنهج البحث عن الحقيقة ولا يستسيغه

---

(١) ابن رشد ، المقدمات الممهدات ، دار الكتب العلمية ، بيروت٢٠٠٢م ١ص١٧٨ ، ١٨٣.

(٢) حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر المتوسط ، ص٩٨ ، ١١٤.

(٣) حسن أميلي ، مسألة الجهاد البحري ، ص١١٣.

(4) Francesco Gabrieli. Greeks and Arabs in the central Mediterranean area. Dumbarton Oaks Papers. vol.18 1964.p.59 .

المنطق المحايد ؛ بمعني أن كل فريق يعتبر أتباعه هم المجاهدين ؛ والآخرين لصوصا غير شرعيين ، وبالتالي اصطبغ الصراع البحري بالصبغة الدينية ، وأصبح صراعًا بين الإسلام والمسيحية ، وكانت اتفاقيات ومعاهدات السلام تمثل مجرد فترات عارضة لا أكثر[١] .

قَدَّم الدين قدرًا قليلاً من الحماية من القرصنة ، وكان هدف معظم القراصنة الذين يجوبون البحر هو سفن أصحاب الديانات الأخرى إلا في حالة حدوث حروب مذهبية داخل الدين الواحد، وبالتالي يعتبر النَّيل من سفن بعضهم البعض هدفًا مشروعًا ، ونظرًا لأنَّ بيع أبناء الدين نفسه كان عملاً صعبًا فإنَّ هذا كان يساعد علي جعل الصراع بين الأديان الصفة الغالبة علي عمليات القرصنة[٢] . فقد كان القراصنة المسيحيون يغيرون علي سفن خصومهم المسلمين بسعادة ، أمَّا القراصنة المسلمين فلم يكن واضحًا لديهم هذا الوضع علي الأقل في فترة ضعف النفوذ الإسلامي علي غربي المتوسط ؛ إذ إنه في القرنين ٥-٦هـ/ ١١-١٢م كان قراصنة طرابلس وجربة يغيرون علي سفن المسلمين التي تسير بمحاذاة السواحل الجنوبية . بمعني أنَّ الدين لا يوفر عندهم أي حماية[٣] .

وقفت الدولة الأموية في الأندلس موقف الدول المسيحية نفسه من رعاياها الذين كانوا يُغيرون علي شواطئ المتوسط والسفن التجارية فيه ، ولم يكن قراصنة قطلونية وغيرها بأقل خطرًا علي الملاَّحين الآمنين من القراصنة الأندلسيين ، بل كانوا يعفون سفن النصارى إخوانهم من الأذى[٤]، وخلال القرن الحادي عشر الميلادي يري pryor أن عمليات القرصنة الإسلامية Muslim corsairs مدعومة بموافقة الحكومات أدت إلي زيادة عمليات القرصنة الخاصة piracy ، ويفسر القرصنة الرسمية كونها نوعا من الجهاد الإسلامي ، حيث أُقرَّت رسميًا من

(1) Pryor, Geography, technology, and war, p.156.

(2) Ibid, p. 155.

(٣) بن الأثير، الكامل في التاريخ ، تحقيق : أبي الفداء عبد الله القاضي ، ط٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٥م ، ٩ ص ١٦١، ٢٨٦ ؛ يشير ابن الأثير إلي جزيرة جربة باعتبارها مركزا لنشاط القراصنة عندما يقول : أهلها لا يدخلون تحت سلطان ويعرفون بالفساد وقطع الطريق وفي نهاية القرن ٥هـ/١١م أصبحت جزيرة جربة الملاذ الحقيقي للقراصنة المسلمين Pirates ، ولم يهاجموا السفن المسيحية فقط بل أزعجوا شواطئ تونس كلها في سنة ٥١٠هـ/١١١٦م فتحها علي بن يحي ، لكن سرعان ما دخلت تحت حكم النورمان سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م .

(٤) حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر المتوسط ، نقلا عن بروفنسال ص١٢٧.

جانب الحكام ، لكنه يفرق بينها وبين الأساطيل الرسمية للدولة الإسلامية[١] ، كما يري Goitein أن القرصنة الإسلامية كانت جزءا من مجموع الحرب المقدسة ضد المسيحية ، وهناك الكثير من الأسري الرومان والطليان واليهود تم أسرهم في المتوسط عن طريق المسلمين ، وظهر ذلك جليًا في القرن٥هـ/ ١١م من خلال وثائق الجنيزا[٢] ، ويري كذلك أن القرصنة الخاصة piracy عند المسلمين أخذت فرصتها نتيجة الانشقاقات الدينية وانقسام العالم الإسلامي ، حيث أضحت البحرية التجارية الإسلامية هي نفسها الفريسة في القرن ١١م[٣] .

فرض القراصنة المسلمون كلمتهم علي غربي المتوسط بدافع السلب والغنيمة وبزعم الجهاد حتى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، وعندما حاق الضعف بالدول الإسلامية في مغرب العالم الإسلامي ومشرقه وقويت الدول المسيحية أوغل قراصنتهم في إظهار قوتهم من خلال سلبهم لتجارة المسلمين وإغارتهم علي سواحلهم بزعم الانتصار للمسيحية ، وظهر ذلك بوضوح في القرن ٦هـ/ ١٢م عندما أسفر هؤلاء القراصنة عن أهدافهم ، بعدما غلبوا علي الممرات البحرية في المتوسط ، وأوضح قادتهم بأن أهدافهم الأساسية هي سفن الأديان الأخرى ، وهم بذلك يعنون سفن المسلمين[٤] ، وحتى استخدام السفن المسيحية في ذلك الوقت من جانب المسلمين للسفر ،

(1) Pryor, Geography, technology, and war,p105

(2) Mediterranean society, Jewish communities of Arab world as partrayed in documents of the Cairo Geniza 969-1250, University of California 2,p.327

(٣) أدت عمليات القرصنة بين الأمويين السنة ضد الفاطميين الشيعة إلي إشعال صراع بحري بين الدولتين عندما اعترض مركب أموي تابع للخليفة عبد الرحمن الناصر كان في طريقه للمشرق مركبا فاطميا قادما من صقلية إلي المعز الفاطمي في المهدية واستيلاء الأول علي محتويات مركب الفاطميين بما فيهم مكاتبات مهمة من صقلية إلي المعز ، هذه القرصنة المدعومة من الحكومة الأموية أدت إلي إشعال صراع بحري بين الجارتين التي يفصل بينهما البحر ؛ عندما وجه المعز أسطولا إلي المرية تصادف عند وصوله عودة المركب الفاطمي الذي ارتكب عملية= = القرصنة؛ فأحرقوه ومعه عدد من المراكب الراسية في الميناء ، تبع ذلك رد فعل أموي بتوجيه حملات علي مراسي المغرب ، راجع وصف الحادثة في ، القاضي النعمان ت ٣٦٣هـ ، المجالس والمسايرات ، تحقيق ، الحبيب القاضي وآخرين ، دار المنتظر ، بيروت ١٩٩٦م ، ص ١٦٥-١٦٧ ، أماري ، المكتبة العربية الصقلية ، ٤١١ ، ٤١٢ ؛ ؛ ويري دوزي انه ربما ارتاب عبد الرحمن الناصر في أن يكون في المكاتبات التي حملها المركب خطة مهاجمة الأندلس ، المسلمون في الأندلس ، ٢ص٤٦ .

(4) khalilieh, Islamic maritime law, Brill1998, p.174.

أو لإرسال بضائعهم عليها ، أو تأجيرها ، كان له مخاطره ؛ فالعلم المسيحي لم يكن يحمي المسلم ولا بضاعته إذا استولي قرصان مسيحي علي السفينة ، فضلاً عن أنَّ مُلاك السُّفن المسيحيين كانوا لا يترفَّعون عن بيع المسافرين المسلمين كعبيد ، فكانت السفن المسيحية التي يستأجرها مسلمون ، أو التي يمتلك فيها مسلمون نصيبًا لا تزال معرَّضة لمخاطر القراصنة المسيحيين حتى وإن كانت تسافر تحت علم مسيحي[١] ، وهذا لا يعني أنه لم تكن هناك سفن إسلامية ، لكن في ذلك الوقت كان السفر علي سفن مسيحية يوفِّر الأمان ، وتستطيع هذه السفن استخدام الطُّرق الرئيسية السريعة الآمنة من خطر القراصنة المسيحيين ، فقد كانت السفن المسيحية أقل تعرضًا لهجوم القراصنة من أبناء دينهم ، بينما السفن الإسلامية التي تعمل علي الطرق الرئيسة كانت عُرضة لعمليات قراصنة الغرب المسيحي بشكل دائم[٢] .

ظاهرة القرصنة في غربي المتوسط :

انتشرت القرصنة في البحر المتوسط منذ القدم ، وظلت حتى القرن التاسع عشر الميلادي، وكان يزيد من انتشارها استرخاء السيطرة البحرية[٣] ، وأهَّلت ظروف البحر المتوسط الجغرافية الفرصة دائمًا لإنتاج هذه الظاهرة ، وجعلت منه حقلاً مربحًا للقراصنة ليس فقط من خلال السَّطو علي التجارة في البحر المفتوح ، وإنَّما أيضًا من خلال الإغارة علي الساحل وسلب سكانه[٤] ؛ وفيما إذا كانت غايتهم السطو علي التجارة الداخلية كانوا يركِّزون علي الموانى[٥] ، فغربي المتوسط منذ القدم لم تنقطع فيه القرصنة وكانت الحرفة المفضَّلة لسكان صقلية التي كانت تصدر العبيد ؛ وفقًا لما جاء في أوديسة هوميروس اليوناني[٦] ، ويزعم بعضهم أن السفينة المذكورة في القرآن إنما خرقها الخضر ببحر رادس ساحل رباط رادس الذي يبعد عن تونس ستة أميال وأن

---

(1) Pryor. Geography. technology. and war.p159.

(2) Loc. Cit.

(3) Ellen Churchill Semple. Pirate coasts of the Mediterranean sea .p.135.

(4) Ibid, pp.135136.

(5) Ibid , p.135.

(6) Henry A. Ormerod. Piracy in the Ancient World.p.151.

الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا هو الجلندي ملك قرطاجنة[١] وأيا كان صحة تفسير الرواية القرآنية ونسبتها للمكان ؛ فالثابت أن القرآن الكريم يدعم وجود هذه الظاهرة عبر التاريخ ويوصم الملك بالقرصان ، حيث يخضع ما يقوم به من سلب السفن المارة بسواحله لمصطلح القرصنة الرسمية corsairs [٢] .

أسهمت الجزر المنتشرة في غرب المتوسط في عمليات القرصنة ، حيث كان الهجوم علي السفن التجارية من جزر كورسيكا وسردنيا وجزر البليار وساحل بحر ليجوريا[٣] ، مثل المرض المُتوطن[٤] ، وعلي سبيل المثال أهلت الجغرافيا الطبيعية والأحوال الاقتصادية أهل كورسيكا للقرصنة من فقر تربتها ، ووعورة سواحلها ، وموقعها علي طرق التجارة البحرية ومساحتها الصغيرة ، هذا كله جعلها تمتلك المؤهلات الطبيعية للقرصنة المُزمنة[٥] ، كما أن جزر الساحل الجنوبي الغربي للمتوسط كانت مكانًا مناسبًا لعمليات القرصنة أيضا ، حيث ترسي فيها السفن العابرة للاستراحة والتزود بالماء والطعام[٦] ، ؛ وهي جزر متباينة في مساحتها ، ومنها ما هو معمور وآخر غير مأهول ؛ مثل جزيرة جربة التي كانت وكرا للقراصنة من أهلها الذين أهلتهم الظروف لذلك[٧] وجزيرة قملارية، وجزائر الكراث الواقعة علي مقربة من مرسي بنزرت وقورية بإزاء المنستير[٨] ، والجزيرة التي تبعد

---

(١) التجاني ،أبو محمد عبد الله بن محمد أحمد ، رحلة التجاني ، تقديم حسن حسني عبد الوهاب ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا تونس ١٩٨١م ، ص ٨ .

(٢) أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان ورآءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا « سورة الكهف الأية ٧٩ » .

(3) Henry A. Ormerod. Piracy in the Ancient World. p.151.

(4) Ibid, p14.

(5) Ellen Churchill Semple. Pirate coasts of the Mediterranean sea .pp.146.

(٦) المالكي ، رياض النفوس ،١ص٤٢١.

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ٩ ، ص٢٨٦، ١٦١ .

(٨) السيد عبد العزيز سالم ، تفوق الفاطميين البحري في النصف الغربي من حوض البحر المتوسط ، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت١٩٩١م ، ص٢٥ ، وتسمي أيضا انبدوشة أو لنيدوشة وهي جزيرة صغيرة خالية من السكان يتخذها المناشون للسواحل التونسية ، المالكي ، رياض النفوس ، ١ تعليق المحقق هامش ١٨ ص٧.

رمية سهم عن جزائر بني مزغناي[١] ، وجزيرة قرقنة التي تقع في منتصف المسافة بين قصر زياد وصفاقص[٢] ، وغيرها من الجزر الصغيرة المنتشرة بمحاذاة الساحل .

وعلي مرِّ التاريخ عندما تكون البحار آمنة من القراصنة واللصوص نجد السواحل عامرة بالسكان ، أما إذا سدر القراصنة في غيهم تخلو السواحل من القاطنين ، حيث يتراجعون إلي الداخل في ظل زيادة عمليات القرصنة ، وتعتبر السواحل أماكن طبيعية لسكني القراصنة ، خاصة إذا كانت ذات طبيعة قاحلة وصخرية ؛ مثل الكثير من سواحل البحر المتوسط الأمر الذي يؤدِّي إلي هجر السكان للساحل[٣] . وبالتالي تصبح هذه السواحل مكانًا ملائمًا لعمليات القرصنة ومأوي مناسبًا للقراصنة ، فخلال فترة الاستعمار الإغريقي للسواحل الجنوبية لإيطاليا تأسست مدن وازدهرت علي هذه السواحل ، وفي العصور الوسطي أصبحت خالية من السكان بسبب اعتداء قراصنة دلماشيا والوندال ، والمسلمين ، والبربر ، وظهرت مدن مثل بيزا وغيرها بعيدًا عن الساحل[٤] ، وعلي الجانب الآخر أسس المسلمون مدنهم بعيدا عن الساحل في فترة الفتوحات الأولي خوفا من البيزنطيين وقراصنتهم ، ويعتبر بناء مدينة القيروان نموذجا مثاليا للمدن المحمية من القراصنة ، وعندما امتلك المسلمون سفنا للدفاع عن سواحلهم ظهرت الموانى الإسلامية علي استحياء ، عندما اختار حسان بن النعمان مدينة تونس البعيدة عن البحر المفتوح خوفا من هجمات البحرية البيزنطية وقراصنتها ، حيث تقع علي بحيرة ضحلة تربطها بالبحر قناة قصيرة وهو ما سهل تحصينها بدرجة كبيرة لتكون ميناء للقيروان[٥] ، ثم ما لبث أن تطورت البحرية الإسلامية في شمالي أفريقيا وأضحت مرهوبة الجانب وتستطيع حماية الساحل ؛ فاختار الأغالبة مدينة سوسة المفتوحة علي البحر لتكون مرفأ حربيا لمدينة القيروان[٦] .

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض ، منشورات دار الحياة ، بيروت ، ص٧٦.

(٢) التجاني ، رحلة التجاني ، ص٦٧.

(3) Henry A. Ormerod. Piracy in the Ancient World. p14

(4) Ellen Churchill Semple. Pirate coasts of the Mediterranean sea .p.13.

(٥) هيو كينيدي ، الفتوح العربية الكبرى ، ، ص٤٥٦.

(٦) حسن حسني عبد الوهاب ، وقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، مكتبة المنار ، تونس ١٩٨١م ، ص٢٩.

ورغم أنَّ هناك نوعان من القرصنة واحدة خاصة ، وأخري رسمية إلا أنَّهما اتَّفقتا في مجالين من العمل ، اهتمت أولاهما بالإغارة علي السفن التجارية في عرض البحر ، واستيلاء القراصنة علي السفن بكل ما عليها من بضائع وبشر[١] ، واختصت الأخرى بعمليات الغزو الفوضوي للسواحل[٢] ، ويري البعض[٣] أن ظهور هذه العمليات القرصانية الخاصة piracy في غربي المتوسط بدأ مع القرن ٢هـ/٨م ، ثم تصاعد قدرا وأثرا خاصة في كل من منطقة شمالي أفريقيا والأندلس ، ويري لويس[٤] أنَّ أساطيل الأقاليم الطرفية من العالم الإسلامي ؛ مثل أساطيل سرقسطة Saragossa في الأندلس وبلرم Palermo في صقلية كانت أقرب ما تكون إلي سفن قراصنة معظمهم من المغامرين المسلمين ، ومن المسيحيين الذين تحوَّلوا عن دينهم ، وانصب غرض هذه الجماعات علي النهب والغنيمة ، ويعتمد في ذلك علي قول ابن حوقل ت القرن ٤هـ/ ١٠م في وصفه لميناء بلرم في صقلية أواخر القرن ٤هـ/ ١٠م ، وهو قول أكد به لويس ما تحاول الدراسة درأه من تحيز وتعصب ؛ إذ حاد تماما عن ما يعنيه أبن حوقل إلي معني أخر انضم به لويس إلي أهل التحيز من الطرفين والبعد عن الموضوعية والمنهجية إذ كان ابن حوقل يتحدث عن سكان الرباطات الذي اعتبر لويس سكانها في عداد القراصنة[٥] .

أثارت عمليات قراصنة السواحل الرُّعب بين سكان سواحل المتوسط ، وكان لهذه العمليات أثر عظيم علي الحياة في حوض المتوسط ؛ فعندما تنشط القرصنة ينعدم الأمان بين سكان السواحل ، حيث يتم سلب كل ما تمتد إليه الأيدي ، فضلا عن الأسر لكل من يقع في أيدي القراصنة ، ويصبح منذ تلك اللحظة عبدا يباع في أماكن الطلب علي العبيد[٦] ، أو أن يدفع الأهالي الفدية لضحايا القراصنة لتحريرهم من العبودية[٧] ، وكان أحد الأهداف الأساسية لعامة القراصنة الحصول

---

(١) الونشريسي ، المعيار ، ٨ص٣٠٢.

(2) Ellen Churchill Semple. Pirate coasts of the Mediterranean sea .p.151.

(3) Henry A. Ormerod. Piracy in the Ancient World.p.503.

(٤) القوي البحرية والتجارية ، ص٢٣٩.

(٥) أماري ، المكتبة العربية الصقلية ، ص٧.

(6) The Encyclopedia of Islam 5.p.504.

(7) Henry A. Ormerod. Piracy in the Ancient World.p31.

علي العبيد[١] ؛ فعلي الساحل الشمالي للمتوسط كان القراصنة المسلمون وبالتحديد الأندلسيين يأسرون السكان ويبيعونهم عبيدا في الأندلس[٢] ، وعلي الساحل الجنوبي كان القراصنة الأوربيين يغيرون علي سكان الساحل المسلمين يسلبون السكان ويأسرونهم ويحولونهم إلي عبيد[٣] ، أمَّا إذا كانت القرصنة في عرض البحر ضد المراكب التجارية ، يصير كل المسافرين عليها والطاقم معهم أسري إلي أن يتم فداؤهم[٤]، ويري Goitein [٥] اعتمادًا علي المصادر الأدبية ، وما ورد في خطابات الجنيزا أن متوسط الفدية بالنسبة للمسلم والمسيحي واليهودي علي حدٍ سواء كان ١٠٠ دينار لكل ثلاثة أسري ، ويري آخر[٦] أن متوسط فدية الأسير من ١٥-٢٠ دينارا ، ولم يكن هذا بالمبلغ الزهيد الذي تستطيع الأسرة تدبيره ، وإنما كان مبلغا يكفي لإعالة أسرة لمدة أربعة شهور ، ويبدو أن قيمة الفدية قد اختلف حسب الدين والجنس والمجهود الذي بذل في عملية الأسر والمفاوضات بين الأهالي والقراصنة ، ويقترب هذا الرقم من فدية أسري الحرب المسيحيين التي فرضها صلاح الدين الأيوبي عليهم حينما استرد بيت المقدس ، حيث كانت فدية الأسير النصراني عشرة دنانير وخمسة للأنثى[٧] ، ولم يكن ذلك المبلغ قاعدة عامة إذ كانت هناك استثناءات مثل

---

(1) Pryor, Geography، technology، and war,p.155.

(٢) قل الرقيق بسبب تحول كثير من أهل شمالي أوربا إلي المسيحية وبالتالي زاد عليه الطلب وأصبح مع الذهب أهم سلعتين في تلك الفترة .

- دوزي ، المسلمون في الأندلس ، ترجمة : حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م ، ٢ص٣٨

(٣) المالكي ، رياض النفوس ، ١ص٤٤٦-٤٤٧ ، اهتم القراصنة في كل منطقة بالسلعة التي تحقق لهم مكاسب أكثر ، فإن أهتم قراصنة سواحل المتوسط بالعبيد كانت الخيول من أهم غنائم قراصنة المحيط الهندي ، راجع Simon Digby, The maritime trade of India, in The Cambridge Economic history of India, 1200-1750. Edited by Tapun Raychaudhuri, Cambridge university 1982,p154

(4) Henry A. Ormerod، Piracy in the Ancient World،p31 ؛ The Encyclopedia of Islam 5،p.504.

(5) Mediterranean society2 ،p.329.

(6) Ben Sasson، Italy and Ifriqia from the ninth to the eleventh century ، in « Les Relation Intercommunautaires Juives en Mediterranee Occidentale، x111e-xxe siecles، Paris، 1982 ، p.38.

(٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، قسم الموحدين ، تحقيق:محمد إبراهيم الكتاني وآخرون ، دار الثقافة ، الدار البيضاء١٩٨٥ ، ص١٩٧ .

إهداء الأسير أو ارتفاع السعر بسبب قيمة الأسير ، إذ وصلت فدية البعض منهم إلي ١٠٠ قطعة من الذهب في ثلاثينيات القرن ١١م[١].

لم تكن القرصنة ومهاجمة السفن في البحر وأسر من فيها ثم المساومة علي فدائهم أمراً لا دخل للملوك والحكام فيه ، نصارى كانوا أو مسلمين ، ولم يكن هؤلاء وأولئك ليهتموا بنزول القراصنة علي سواحل أراضيهم ، إلا إذا ما اتسم هذا النزول بخطر صريحً علي موانئهم ؛ لذلك حصنوها وأقاموا المحارس التي يسهر عليها حرس حكومي[٢] ، ووقع عبء مدافعة القراصنة عند النزول علي ساحل القرى والمنازل علي كواهل سكان السواحل أنفسهم ؛ فكان عليهم أن يقيموا ما يلزم للحراسة والحماية التي اتخذت أشكالا متعددة منها إنشاء المراقب العالية لكشف المقبل من البحر علي مسافة كافية للاستعداد له ،أو بنقل قُراهم ومساكنهم إلي المرتفعات القريبة من الساحل . ولم يكن ذلك وقفا علي أهل ديانة بعينها ، وإنما قام به أهل السواحل النصرانية والإسلامية علي حدا سواء[٣] .

اعتبرت دساتير مارسيليا وبيزا والبندقية ، والقوانين البحرية لمملكة بيت المقدس الصليبية خسارة الشحنة نتيجة القرصنة مثل خسارتها نتيجة تحطم السفن بسبب الظروف الطبيعية ، وجعلت الوكيل في العقد التجاري حراً من كل التزام تجاه موكِّله الذي أمدَّه برأس مال الرحلة[٤]، بينما تركت هذه الأمور في الشمال الأفريقي لتقدير أصحاب الفُتيا[٥] ؛ حيث تثبت النوازل الفقهية وقوع مراكب التجار المسلمين في المتوسط في أيدي اللصوص والقراصنة ، ومن هنا يأتي السؤال عن كيفية محاسبة أصحاب السفن عن الإيجار المستحق عليهم وعن التزام الوكلاء ؛ مثل ما ورد في نوازل أصبغ " ، قيل أرأيت إن كانت الريح غير غالبة لهم ، ولكن ردهم فزع اللصوص أو الروم "[٦] .

---

(1) Goitein , Mediterranean society2 ،p.329.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية ، مكتبة المنار ، تونس ١٩٨١م ص٥١.

(٣) حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر المتوسط ، نقلا عن بروفنسال ، ص١٢٨.

(4) Pryor, Geography, technology, and war,pp.155 .

(٥) الونشريسي ، المعيار ، ٨ ، ص٣٠٢ .

(٦) ابن رشد الجد ، البيان والتحصيل ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٨م ، ٩ ، ص١٤٨ .

يرفع الاضطراب السياسي وغزو الأراضي أو الإغارة عليها عادة من أجور النقل وكذلك علي إبحار السفن التجارية ، فلم تعد تبحر إلا في جماعات ، فعلي سبيل المثال نتيجة عدم الاستقرار في إفريقية الذي سببه دخول بني هلال وسليم إلي البلاد سنة٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م ظهر القراصنة علي السواحل المغربية ، وبالتالي زاد أصحاب السفن التجارية من الحماية ممَّا رفع أسعار النقل البحري، كما كانت الإتاوة التي تدفع لقراصنة جزيرة جربة هي الأخرى تُضاف علي أجرة النقل ، وكانت المنطقة فيما بين برقة وتونس مسرحًا لعمليات القراصنة في ذلك الوقت ؛ ممَّا اضطر مُلاَّك السُّفن إلي دفع الكثير لحماية الشحنات التي تحملها سفنهم[١] .

انتظم التجار في قوافل تجارية خوفًا من القراصنة ، فقد كان التجار في رحلتهم من أوربا إلي فلسطين والتي يحملون فيها سلعًا ثمينة يفضلون السَّفر فيما يسمَّي بالقوافل البحرية التي تتضمن عددًا كبيرًا من السفن ، يمكن أن نطلق عليها لفظ أسطول ؛ لأنَّها تكفل لهم أمنًا من غارات القراصنة ، وكانت تتم في رحلتين فقط خلال العام الأولي في الربيع والأخرى في الصيف[٢]، وتفاديًا لخطر القراصنة كان التجار يسلكون طرقًا أكثر أمنًا ، ففي خطاب من وثائق الجنيزا يعود إلي منتصف القرن ١١م أرسل من أمالفي إلي المهدية بتونس يروي فيه التاجر اليهودي أنَّه سافر من مصر إلي أمالفي عن طريق القسطنطينية حاملاً بضائع تتكون من فلفل ولبان لإتقاء خطر القراصنة ، حيث وصل في ٧٠ يوم ، وينعي فيه حظَّه علي هذا التأخير الذي تصادف مع وصوله حالة من الفوضى السياسية أدَّت إلي توقُّف الأعمال التجارية[٣] .

حصن روم صقلية جزيرتهم ضد هجمات والي إفريقية عبد الرحمن بن حبيب الذي غزا صقلية سنة ١٣٥هـ/٧٥٢م وعاد محملا بالغنائم والسبايا وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة في موسم إبحار التجارة وتذبُّ عنها ، وربما طاردوا تجارًا من المسلمين فيأخذونهم[٤] ، وكان رد الفعل من بحارة شمالي أفريقيا هو القيام بأعمال قرصنة في أواخر القرن الثاني الهجري

---

(1) khalilieh. Islamic maritime law. p.72.

(٢) هايد ، تاريخ التجارة ، ١ص١٩١-١٩٢.

(3) Citarella . Armand .O.. Patterns in Medieval Trade : the commerce of Amalfi before the crusades ,p544.

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٥ ، ص٩٦.

ضد السفن التجارية الأوربية ، وأثناء قيامهم بأعمال القرصنة ساعدوا أمويي الأندلس في القيام بسلسلة من الغارات علي كورسيكا وسردينيا وجنوبي إيطاليا عام ١٩٠هـ/ ٨٠٥م ، ويرجّح أحد الباحثين العرب أن العون من الشمال الأفريقي قدم من قبل الرستميين ، وليس من الأغالبة أو الأدارسة نتيجة العداء السياسي بينهم وبين أمويي الأندلس[١]، ويصف هايد قراصنة المسلمين في الفترة الباكرة من تاريخ الإسلام فيقول :" كانت السفن الإسلامية ترسو علي سواحل اليونان وإيطاليا وفرنسا ، لم يكن النازلون منها تجارا مسالمين ، ولكن شراذم من جند وقراصنة يحرقون ويدمّرون كل شيء "[٢] ، الأمر الذي جعل المدن التجارية الإيطالية تتعاون معهم خلال القرن٣هـ/ ٩م ، حيث أصبحت هذه المدن ملاذًا لقراصنة شمالي أفريقيا ، وعقدت معهم أحلافًا واشتركوا معا في بعض الحملات وتقاسموا الأسلاب[٣] ، ويشير هايد إلي هذا التعاون خاصة مع نابولي[٤] .

إزاء هذا التعاون بين المدن الإيطالية وبحارة شمالي أفريقيا سعت صقلية إلي السير في الاتجاه نفسه ، حيث تشير اتفاقيات الهدنة التي عقدت بين الأغالبة وحكام صقلية البيزنطيين في عامي ١٩٠هـ / ٨٠٥م و ١٩٨هـ / ٨١٣م إلى حرية التجارة والتجار في التنقل بين الجانبين في كل من صقلية وموانئ إفريقية ، وعلي عدم التعرض للمراكب التجارية الأغلبية المتجهة إلي صقلية، وتنص الاتفاقيات أيضًا علي ضمان أمن المسلمين في صقلية ، وتبادل الأسري[٥] ؛ وتعد هذه الاتفاقيات دليل حرص الحكام على استمرار الاتصال التجاري الذي لم ينقطع مع صقلية مفتاح أوربا[٦] .

---

(١) محمود إسماعيل ، الأغالبة ، ص١٢٦.

(٢) هايد ، تاريخ التجارة ، ١ص٦٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ١ص٦٨.

(٤) الإمبراطور لويس الثاني أتهم في وثيقة نابولي بأنها أصبحت بمثابة بالرمو أخري أي تابعة لأفريقية لأن نابولي كانت توفر للقراصنة العرب مأوى أمينا وتزودهم بالأسلحة والمؤن وتقتسم معهم الأسلاب ، راجع هايد ، تاريخ التجارة ، ١ص١١٤.

(٥) عقد إبراهيم بن الاغلب اتفاقية مع بطريرك صقلية عام ١٩٠هـ/ ٨٠٥ ، وعقد أبو العباس إبراهيم الأغلبي صلحاً مدته عشر سنوات مع بطريرك صقلية جريجوري سنة ١٩٨هـ / ٨١٣م ،انظر فازيليف ، العرب والروم ترجمة ، محمد عبد الهادي شعيرة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ص ٦٤ .

(6) Krueger, the Italian Cities, P. 43.

لم يراع حكام صقلية هذه المعاهدات ، أو أنَّ هذه الاتفاقيات لم تكن مُلزمة لقراصنة الجزيرة ، بدليل أنه قبيل فتح الأغالبة لجزيرة صقلية كان هناك أسري من المسلمين لدي روم صقلية بشهادة قائد البحرية فيمي[١] ، بل أن فيمي نفسه قام بعمليات قرصنة علي سواحل إفريقية ونهب الكثير منها ، وأسر من أهلها وخاصة من التجار قبل أن ينقلب علي سيده حاكم صقلية[٢] ؛ إذ يذكر أن قسطنطين حاكم صقلية أرسله سنة ٢١١هـ/٨٢٦م علي رأس أسطول ؛ فغزا إفريقية وأخذ من سواحلها تجاراً ونهب وبقي هناك مدة[٣] ، ثم تمرَّد فيمي علي قسطنطين ، وحاول أن يقصيه ليحل محله ، وحين باءت محاولته بالفشل اضطر إلي اللجوء إلي دولة الأغالبة سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧م وحث واليها زيادة الله بن الأغلب علي غزو صقلية .

حاولت الدولة البيزنطية بعد هزيمة أسطولها في صقلية وفقدانها الجزيرة أن تمارس القرصنة الرسمية ضد الأغالبة حكام الجزيرة الجدد ، حيث استولي أسطول الإمبراطور البيزنطي نقفور فوقاس في عام ٢٦١هـ/٨٧٩م علي عدد من المراكب الأغلبية التي كانت تحمِّل زيت الزيتون في طريقها إلي المدن الإيطالية ، وذلك في مهمة لدعم مركز بيزنطة في المياه الإيطالية ؛ ممَّا أدَّي إلي خفض سعر الزيت في القسطنطينية ، وينم ذلك عن ضخامة كمية الزيت ، وبالتالي عدد المراكب التي تحمله[٤] ، وكان ردُّ فعل الأغالبه أن عقدوا تحالفًا في سنة ٢٦٢هـ/ ٨٧٥م مع أمراء سالرنو ونابولي وجايتو وأمالفي ، واشتركوا معًا في نهب الجنوب الإيطالي[٥] ، وأغار المسلمون علي الساحل مابين جنوة وبيزا ، وضيَّقوا علي النشاط الاقتصادي لمدن شمال إيطاليا ، وعانت المدن الساحلية كثيراً من هجماتهم ، وذلك بسبب تدمير التجارة ذات الأهمية القصوى في اقتصادياتهم ؛ لأنَّها كانت تمثِّل الهدف الأساسي لغارات المسلمين ، وكانت سفنها تمثِّل هدفًا خاصًا للقراصنة المسلمين[٦] ، ويري كروجر[٧] أنَّ هجوم المسلمين علي المدن الإيطالية في تلك الفترة؛ هو مجرد قرصنة بسبب أنَّ قوتهم البحرية كانت مشغولة في مناطق أخري .

---

(١) المالكي ، رياض النفوس ،١ ص٢٧٠.

(٢) فازليف، العرب والروم ، ص٦٧.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ٥ص٤٣٦ ، فازيليف ، العرب والروم ، ،ص٦٧.

(٤) محمود إسماعيل ، الأغالبة ، ص١٨٥.

(٥) هايد ، تاريخ التجارة ، ١ص١١٤.

(6) Krueger.H.C. The Italian Cities and Arabs before 1095.p.52.

(7) Ibid, p.41.

انقض القراصنة النورمان علي موانى غربي الأندلس وشمال غربي أفريقيا عدة مرات في القرن ٣هـ/٩م ، وهذا يفسِّر وصول نقود عربية في هذه الفترة الباكرة إلي الشمال الأوربي[١] ، وتعرضت منطقة العدوة بين الأندلس والمغرب الأقصى لغاراتهم المتكررة وخاصة مدينة نكور التي نهبوها سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م وامتدَّت أعمال النَّهب والسَّلب من قبلهم إلي إشبيلية Seville بالأندلس، وإلي كل المناطق التي خلت أو كادت من الحراسة والمدافعة[٢] ، وحرصوا علي الابتعاد عن جميع المناطق التي تملك أساطيل حربية قوية ؛ تستطيع بواسطتها أن تعترض عمليات سلبهم ونهبهم ؛ لذلك نجدهم يبتعدون عن الساحل الأندلسي بين دانية Denia وطرطوشة Sortosa ، وساحل إفريقية حيث الأسطول الأغلبي ، ثم صقلية وجنوبي إيطاليا[٣] ، وعندما انحرف مركبان من مراكبهم إلي منطقة باجة Beja التي استعدت بمراكب معدة لمقاومتهم وقع من كان بها أسري ونهب ما فيهما من ذهب وفضة وعدة[٤] ، نبه هذا الأمر الأمير عبد الرحمن الأوسط ٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م إلي الاهتمام بالبحرية ، كما أدت السيطرة علي ميورقة Mouorca أكبر جزر البليار الجزائر الشرقية سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م إلي تأمين المنطقة الواقعة بين العدوتين من القراصنة النورمان وغيرهم إلا من حالات القرصنة الخاصة[٥] .

لعبت المصادفة في تحويل عدد من النورمان عائدين من زيارة بيت المقدس سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م في طريقهم إلي نورماندیا إلي قراصنة ؛ حيث تصادف نشوب معركة بين المسلمين والمسيحيين في صقلية ، انضم النورمانديون إلي جانب المسيحيين فنجدوهم ، وفور عودتهم بغنائم الحرب وهدايا مسيحيي صقلية إلي بلادهم ؛ أغري الكسب شباب نورماندیا وتحمسوا للخروج في جماعات ، يجوبون شواطئ صقلية وما جاورها ، واحترفوا القرصنة ، ونهبوا الإيطاليين واليونانيين والمسلمين علي حدٍّ سواء ، وتمكَّنت جماعة منهم من إنشاء مركز لها في بعض نواحي الجزيرة ، واتخذته وكرًا لعملياتها ، ولكنَّ إقامتهم به لم تطل ؛ حيث طردهم المسلمون منه سريعا[٦] .

---

(١) هايد ، تاريخ التجارة ، ١ص٧٦.

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ، ج . س كولان ، ليفي بروفنسال ، الدار العربية للكتاب ط٣ بيروت ١٩٨٣م ، ٢ص٩٦ ،٩٧.

(٣) لويس ، القوي البحرية ، ص٢٣١-٢٣٢ .

(٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ٢ص٩٦.

(٥) المصدر نفسه ، ٢ص٩٧.

(٦) ممدوح حسين ، الحروب الصليبية في شمال أفريقية ، ، دار عمار ، عمان الأردن ١٩٩٨م ، ١٣٦-١٣٧ والحاشية .

وعندما احتلَّ النورمان صقلية استولوا علي بلرم Palermo ؛ وبقيت مازر Mazzara بأيدي المسلمين لفترة ، فرض القراصنة النورمان بالتعاون مع نظرائهم المسلمين علي كل مهاجر من مازر إلي شواطئ إفريقية ثلاث أونصات أوقيات من الذهب أو أكثر[١]، ونشط قراصنة صقلية بعد استيلاء النورمان عليها ، حيث كانت مراكب روجار صاحب صقلية تصل بالقرب من السواحل الإفريقية ، وتكدِّر وصول التجارات إليها ، وممَّا يذكره ابن الأثيرت٦٣٠هـ[٢] في هذا الشأن : استيلاء مراكب روجار علي بعض السفن القادمة من مصر إلي الحسن بن علي بن يحيي بن تميم بن المعز بن باديس ؛ صاحب إفريقية ، بالرغم من اتفاقية الهدنة المُبرمة بين الطرفين ، الأمر الذي جعل الحسن يلحُّ علي تجديد الهُدنة رغبة منه في وصول الغلال من صقلية إلي إفريقية ؛ " لأنَّ الغلاء كان فيها إفريقية شديدا ، والموت كثيرا " ، والغالب علي الظن إنَّ خرق الهدنة من جانب روجار جاء بهدف فرض شروط جديدة في بنود الهدنة بين الطرفين ليحصل من خلالها علي مميزات علي الساحل الإفريقي ، وأذعن الحسن للشروط الجديدة ؛ بسبب الظروف التي كانت تمر بها بلاده[٣] ، كما تعرضت السفن التجارية القادمة من تونس إلي صقلية لقرصنة ابن الثمنة[٤] أحد القواد المسلمين الذي استقوي بالنورمان علي نظرائه من حكام طوائف صقلية ، حيث يرصد خطاب جنيزا مهاجمة ابن الثمنة مركبا تونسيا بالقرب من صقلية ، واستيلاءه علي كُلَّ حمولة المركب من المنسوجات بينما ترك حمولتها من زيت الزيتون ، بسبب ضخامة الحمولة[٥] .

وكانت هناك عمليات قرصنة ساحلية من جانب سكان إفريقية علي سفن الروم في المنستير ، حيث استحلُّوا سبيهم وأخذ أموالهم ؛ " لأنهم لم يكن بينهم وبين المسلمين عهد ولا هدنة "[٦] ، وإن كانت هذه الحادثة قد جوزها الفقهاء من خلال اغتنام أموال أهل الكتاب الذين ليس لهم

---

(1) khalilieh, Islamic maritime law p72.

(٢) الكامل ، ٩ص٣٢٥.

(3) khalilieh , Islamic maritime law p135.

(٤) ابن الثمنة من القواد المسلمين الذين انتزوا بسرقوسة وقطانية واستقوي بالنورمان علي المسلمين واشترك معهم في حصار مدن المسلمين في صقلية ، راجع ابن أبي دينار ، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، دار المسيرة ، ط٣ بيروت ، ١٩٩٣م ، ص١١٠ ، راجع ممدوح حسين ، الحروب الصليبية في شمالي أفريقيا ، ص١٣٤-١٣٦ .

(5) Goitein. Mediterranean society2.p.340.

(٦) المالكي ، رياض النفوس ،١ص٤٢١.

عهد ولا أمان لدي المسلمين ؛ فإن هناك حادثة قرصنة أخري من جانب المسلمين ضد إخوانهم من أهل الأندلس ؛ وردت في ترجمة الفقيه المالكي عبد الله بن أبي المهزول ت٣٣٩هـ/ ففي بنزرت اشتكي بعض السكان إليه من أولئك الذين يرصدون المراكب العابرة من الأندلس إلي مصر ، ويعتدون عليها[١] .

اهتم الفاطميون بقواتهم البحرية وبلغت شأوا كبيرا مكنهم من عقد المعاهدات بينهم وبين قراصنة المدن الإيطالية ، ووضعوا أنفسهم في مكانة عالية بلغت حد المباهاة عندما تمكنوا من استرجاع عدد من الأسري المسلمين ، وعلي الرغم من تلك العلاقة لم تسلم مراكب الفاطميين التجارية من هؤلاء القراصنة عندما تعرَّض مركب يسمي الحمَّال كان يحمل خشبا من غابات صقلية أو حبوبا لعملية قرصنة ، لكنه عاد بمقتضي تلك المعاهدات[٢] ، ورغم قوتهم تلك تعرَّضت بعض سفنهم التجارية في المتوسط لقرصنة رسمية من قبل البحرية الجنوية والبيزية ، وأُهين مَنْ فيها من رعايا الدولة الفاطمية[٣] ، أما القراصنة البيزنطيون فكانوا يترصدون المراكب التجارية الفاطمية في مناطق طرفية ويستولون عليها بما تحمله ؛ إذ تعرضت احدي سفن الفاطميين التي كانت في طريقها من المهدية إلي الإسكندرية عند جبل برقة لقرصنة البيزنطيين ، وأجبروها علي الاتجاه إلي بلادهم ، وبينما هم في طريقهم التقت بهم مراكب من مسلمي صقلية ، فأنقذوا السفينة الفاطمية منهم وأتوا بها إلي صقلية[٤] ، ويري لويس[٥] أن بلاد المغرب أَثْرَتْ من أعمال القرصنة والتجارة علي زمن الفاطميين ؛ فقد كانت السُّلطات الفاطمية تدعم أعمال القرصنة ، وتُحصِّل ضريبة قدرها العُشْر من أسلاب حملات القراصنة من أهل إفريقية نظير هذا الدعم[٦] ، ومما يؤكد دعم الحكومة الفاطمية للقراصنة إشارة وردت في ترجمة الفقيه المالكي أبي جعفر القمودي

---

(١) جاء ذلك في ترجمة أبو محمد عبد الله بن أبي المهزول المتعبد ت٣٣٩هـ الذي يسكن مرسي الياقوتة بناحية بنزرت ، راجع ، المالكي ، رياض النفوس ،٢ص٣٧٦ .

(٢) المالكي ، رياض النفوس ،١ص٤٢١ .

(٣) صابر دياب ، دراسات في العلاقات بين المدن الإيطالية والدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط بين القرنين العاشر والثاني عشر الميلاديين ، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ، العدد الرابع ، ١٩٧٣م ، ص٧،٨.

(٤) البرزلي ، فتاوى البرزلي ، ٣ ص٦٥١ ؛ الونشريسي ، المعيار ، ٨، ص٣٠٢.

(٥) القوي البحرية ، ص٢٥٥.

(٦) المرجع نفسه ، ص٢٤١.

ت٣٢٤هـ/٩٣٦م الذي لجأ إليه تجار من الأندلس وصلوا علي متن مركب إلي المهدية " فغصب متولي الموضع رحلهم " ليدعوا لهم بأن يرد الله عليهم رحلهم ولم يلجئوا إلي الحكام فالقرصان من أهل الحكم والتجار تابعون للخلافة الأموية بالأندلس التي تناصبهم العداء[١] .

وبعد خروج الفاطميين من المغرب إلي مصر تولي بنو زيري الحكم نيابة عنهم ، وكان أمير برقة في سنة٤٤٣هـ/ ١٠٥١م جبارة بن مكثر من أهم الولاة الذين عملوا في القرصنة ، حيث ورد اسمه في أوراق الجنيزة علي أنَّه قُرصان مريع ، وحامل للبضائع وحام من خطر القراصنة الآخرين[٢]، فقد كانت شواطئ الشمال الأفريقي فيما بين برقة وطرابلس خلال القرن ٥هـ/ ١١م كارثة علي التجارة البحرية المصرية المُتّجهة إلي المغرب[٣] ، واستخدم الفاطميون القراصنة في برقة لمعاقبة السُّنة في غربي الشمال الأفريقي بالطريقة التي تم بها توظيف عرب بني هلال وسليم ؛ لتخريب المنطقة التي كانت مُزدهرة بعد شَقِّ المُعِزّ بن باديس الصنهاجي ٤٠٦-٤٥٣هـ/١٠١٥-١٠٦١م عصا الطاعة على الفاطميين .

وتنطق أوراق الجنيزا من خلال خطاب من أحد ضحايا جبارة ؛ يوضِّح الخطاب تجبر جبارة وفداحة صنعه ؛ عندما هاجم احدي السفن التجارية " وأفرغ جبارة حمولة المركب " ، وقد كانت حمولة المركب في العصور الوسطي تقدر بستين طنا[٤] كما توضِّح هذه الوثائق أن جباره ووالده وأقرباءه، وعددا آخر من قراصنة سكان برقة العرب ؛ ظهروا في وقت مبكر من القرن ٥هـ/ ١١م ، حيث تعود الوثائق إلي سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م ، ٤١٩هـ/١٠٢٨م ،٤٢٣هـ/١٠٣١م ، هذه الوثائق توضح مدي نشاط هؤلاء في مهاجمة السفن البيزنطية ، كما شجعهم الفاطميون علي التقدم غربا ومهاجمة تجار بني زيري ؛ لضرب تجارة إفريقية التي شقت عصا الطاعة عليهم ، وساعدهم أيضًا ضعف البحرية في المنطقة ؛ نتيجة انتصار البحرية البيزنطية علي المسلمين في صقلية وإفريقية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن ١١م ، وفي سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١-١٠٥٢م تحوَّل جبارة بولائه

---

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ٢ص٢٢٣.

(٢) جوايتاين ، دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية ، ترجمة عطية القوصى ، وكالة المطبوعات ، الكويت ١٩٨٠م ،ص٢٤٥.

(3) Pryor, Geography, technology, and war,p.106.

(٤) هيو كينيدي ، الفتوح العربية الكبرى ، ص٤٤٦.

من الفاطميين إلي المعز بن باديس الصنهاجي حاكم تونس ، فاتجه نشاطه البحري شرقا إلي مصر وحاصر الإسكندرية برًا وبحرًا ، وبلغت شهرته الداني والقاصي ، وعرفوا مدي قوته فدرأ أصحاب السفن والتجار خطره بأن استخدموه كحام لهم ضد القراصنة الآخرين ؛ ففرض عليهم إتاوات ثقيلة تسمي غفارة ؛ لذلك يصفه Goitein بالحاكم صاحب الولاء المتقلب ، فمرة يعمل مع الفاطميين، وأخري ضدهم ، ونصيرا للحرب المقدسة ، وقاطع طريق ، وقرصان ضد المسلمين ، والحامي ضد القرصنة ، والرُّبان البحري[١] .

وأشهر حكام بني زيري الذي اتُّهم بعمليات قرصنة هو تميم بن المعز ٤٥٤-٥٠١هـ ١٠٦٢-١١٠٧م فقد وصفه هايد بأنَّه قرصان ذائع الصيت أشاعت حملاته البحرية الرعب في أنحاء بعيدة من البحر المتوسط[٢] ، ويري آخر : أن تميمًا كان حاكمًا ناشطًا أراد إنعاش ثروات الزيريين، من خلال تسخير كل الإمكانيات لدعم هجومه البحري ، كما شجَّع سفن المهدية في القيام بعمليات غزو ضد المراكب المسيحية[٣] ، وقد لجأ إلي هذا الأسلوب بعد غزو القبائل العربية لإفريقية ؛ حيث فرضت عليه الظروف الاقتصادية التوجه إلي البحر فقام القراصنة الرسميون بدعم منه بمهاجمة تجارة بيزا وجنوة ، فكانوا يخرجون من المهدية ؛ يسلبون ويأسرون السفن والتجار الإيطاليين ، ممَّا دعا الأخيرتين إلي تجريد حملة علي المهدية سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م[٤] ، مكنتهم من فرض شروط سلام علي دولة بني زيري في إفريقية ؛ ومن بين هذه الشروط الامتناع عن مواصلة عمليات القرصنة[٥] ، كما عملت الدولة الزيرية بإلحاح للقضاء علي النشاط التجاري لإمارة بني جامع العرب التي قامت في قابس والتي عقدت علاقات تجارية بحرية مع جيرانها بفضل بناء أسطول بحري علاوة علي موقع إمارتهم الذي تميز بمميزات المدينة البحرية والصحراوية في آن واحد ، حيث

---

(1) Mediterranean society 2،p.328

(٢) هايد ، تاريخ التجارة ، ١ص١٣٦ ، داود أبو العافية ، دور التجارة في الاتصال الإسلامي المسيحي خلال العصور الوسطي ، ضمن كتاب التأثير العربي في أوربا ، تحرير ، ديونيسيوس آجيوس ، ريتشارد هيتشكوك ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ١٩٩٩م ، ص١٩-٢٠ .

(3) Cowdrey،H.،E.،J.، The Mahdia campaign of 1087 ,The English Historical Review، no. CCCLXII،1977 ،p8.

(4) Krueger،H.C، The Italian Cities and Arabs before 1095,p.52 .

(٥) Ibid ,p.41.

أرسل علي بن يحي بن تميم بن المعز حاكم المهدية سنة ٥١١هـ/١١١٧م أسطوله لقطع الطريق علي سفينة بني جامع والاستيلاء عليها في البحر[١] وكان لدولة بني حماد هي الأخرى قراصنة رسميون ؛ ففي عهد العزيز بن المنصور ٤٩٨هـ/١١٠٥م وقع في أيدي القراصنة سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م بعض الرهبان الطليان الذين ردهم الأمير الحمادي بواسطة من ملك صقلية روجيه[٢] .

ويؤكد كثافة عمل القراصنة خلال القرن ٤ -٥هـ/١٠-١١م تكرار وقوع يهود في قبضة القراصنة أثناء رحلاتهم البحرية في المتوسط ، حيث تورد وثائق الجنيزا معلومات عن أسر طبيب يهودي إيطالي ؛ أُسِرَ في البحر بواسطة المسلمين سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م ، وتمَّ فداؤه في القيروان[٣]، ويورد Mann [٤] وفقًا لوثائق الجنيزا قصة أسر أربعة من كبار أحبار اليهود ؛ كانوا في طريقهم لجمع تبرعات للمدارس اليهودية في العراق ؛ في الثلث الأخير من القرن العاشر الميلادي/الرابع الهجري ؛ أثناء عودتهم من باري إلي بغداد عن طريق مصر ، تم فداء أحدهم في الإسكندرية بواسطة إخوانه من اليهود ، ونال آخر حريته في إفريقية بالفداء ، ويحاول Mann أن يُلصق تهمة القرصنة هذه بأمير البحر عبد الله بن رماحس قائد البحرية الأندلسية في عهد الخليفة الحكم المستنصر الأموي أثناء غزوه لطنجة ٣٦١هـ/٩٧٢م ، وهو قولٌ يُجافي الحقيقة ، إذ لا يتَّسق أن يكون عبد الله بن رماحس في طنجة علي المحيط الأطلسي ؛ وفي الوقت نفسه يأسر علماء يهود في شرق إيطاليا[٥] ، علاوة علي أن فداء أحد هؤلاء الأربعة تم في الإسكندرية وتم فداء الآخر في إفريقية وكلاهما كان بعيدا كلية عن سلطة أمويي الأندلس كما لم يكن بينهما وبين الأمويين معاهدات في هذا المجال أو غيره .

تتحدث بعض الوثائق الإيطالية أيضًا عن فكِّ أسر ثلاثة من اليهود بالإسكندرية سنة٤٥٢هـ/

---

(١) مصطفي أبو ضيف أحمد ، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين ، الدار البيضاء ١٩٨٢م ، ص٥٩ .

(٢) عبد الحليم عويس ، دولة بني حماد ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٨٠م ، ص١٨٩-١٩٠.

(3) Ben Sasson, Italy and Ifriqia from the ninth to the eleventh century , , p.38.

(4) Mann, Jacob, The Responsa of the Babylonian Geonim as A source of the Jewish hi - tory, J.Q.R 9,1918-19,pp168169.

(٥) راجع ، عبد الرحمن بشير ، اليهود في المغرب العربي ،دار عين للدراسات والبحوث , القاهرة ٢٠٠٠م ، ١٤٥-١٤٦ والحاشية.

١٠٦٠م ؛ كانوا قد أُسروا في عرض البحر واستولي القراصنة علي سفينتهم ، وباعوهم في عرض البحر إلي تجار أمالفيين بكمية من شراب الروم ، وجلبهم هؤلاء التجار إلي الإسكندرية لبيعهم أو لفدائهم من جانب إخوانهم اليهود[١] ، ويسفر هذا العمل عن تلك العلاقة التجارية فيما بين القراصنة ـ أيًا كانوا ـ والتجار الإيطاليين ؛ خاصة تجار أمالفي الذين كانوا يُبادلون أسري القراصنة من اليهود ، ثم ينقلبون إلي المجتمعات اليهودية في موانئ شمالي أفريقيا وطلب فدية لتسليمهم الأسري ؛ وهي عملية أسهل من التجارة في البضائع ، وتعود عليهم بأرباح أكثر ، فقد كانت هذه الصفقة رابحة جدًا لتجار أمالفي الذين رأوا فيها فرصة استثمار مفيدة ؛ فعملوا علي توفير المال اللازم لمبادلة الأسري من القراصنة ، وكذلك وجدوها عمليات قليلة المخاطر ، فهم في مأمن من عملائهم القراصنة ، ويؤكد علي ذلك ما عكسته وثائق الجنيزا من أنَّ تاجرا من أمالفي باع ليهود الإسكندرية ثلاثة أسري من الذين أُخذوا من مركب تعرَّض للقرصنة بواسطة البيزنطيين أو الإيطاليين الذين أتوا علي كل ما فيه[٢] ، ويبدو أنَّ الوسطاء المسيحيين أيقنوا أنَّ المجتمعات اليهودية قد ترسَّخت لديهم تقاليد مُبادلة الأسري ، حيث أصبح هناك بندٌ ثابتٌ في ميزانية هذه المجتمعات لمُبادلة الأسري ، ولقد سمح التُّجار المسيحيون للمجتمع اليهودي بالوقت الكافي لتوفير الفدية ؛ إذ لم يكن المبلغ الموقوف للفدية كافيًا[٣] .

ومنذ نهاية القرن٥هـ/ ١١م انتشرت دور صناعة السفن علي السواحل الأندلسية والمغربية في مرسي الخزر وبونة وبجاية ، وبدأ القراصنة المحليون pirates المجهزون بالسفن تمشيط سواحل جزر البحر المتوسط والتجول فيه ؛ بحثًا عن الغنائم[٤] ، ومنذ بداية القرن ٦هـ/ ١٢م سادت القرصنة بنوعيها كل البحر المتوسط ، فلم تخلُ منطقة أو فترة زمنية منهما ، ولم تكن هناك مدينة أو دولة أو شعب بحري لم يشارك بحارته في القرصنة ، وكان القباطنة من جميع الأجناس يجوبون البحار في خدمة أي شخص يمكن أن يدفع لهم أو يرخص لهم بذلك[٥] .

(1) Citarella، Armand ،O.، Patterns in Medieval Trade : the commerce of Amalfi before the crusades, p.544.

(2) Goitein، Mediterranean society، 2p.329.

(3) Ben Sasson، Italy and Ifriqia from the ninth to the eleventh century ، ، p38

(4) The Encyclopedia of Islam 5،p.504.

(5) Pryor، Geography، technology، and war،pp. 153-154.

البحريون المسلمون في غربي المتوسط مجاهدون أم قراصنة ؟

تحدَّثت المصادر اللاتينية والبيزنطية بإسهاب عن غارات البحريين الأندلسيين ، ووصفت أصحابها بأنهم قراصنة يعملون لحسابهم الخاص ، والواقع أن أعمال القرصنة في ذلك الوقت لم تكن قاصرا علي القوي الإسلامية وحدها ، بل كانت شائعة بين بحارة الدول والإمارات المسيحية الذين سبقوا في هذا المضمار والوثنيين من النورمانديين أيضًا ، وتشهد والحوليات الأوربية بوضوح علي أنَّ هؤلاء الأندلسيين قد ركبوا البحر ، وعرفوا القتال فيه وحذقوه ؛ منذ أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي[١] ، ويؤكد أحد المُحْدَثين علي أنَّ السبب في صمت المصادر العربية عن النشاط البحري الذي بدأه أهل المغرب ابتداء من أواخر القرن الثامن الميلادي/ الثاني الهجري، هو أنَّ معظم هذا النشاط كان نشاطًا غير رسمي ، أي أن أهل سواحل المغرب كانوا يقومون به لحسابهم[٢] ، وترجع بداية اشتغال الغُزاة البحريين المسلمين بأعمال الغزو والنهب ، أو ما يسميه الغربيون بالقرصنة علي سواحل إيطاليا وفرنسا الجنوبية ، وجزر البحر المتوسط ، مثل صقلية وكريت إقريطش ، إلي عهد أمير الأندلس الحكم الربضي ١٨٠ ـ ٢٠٦هـ /٧٩٦-٨٢٢م ، وأبنه عبد الرحمن الأوسط ٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م ، ولكن ينبغي الإشارة هنا إلى أنَّ أعمال هؤلاء الغُزاة لم تكن تتم بموافقة رسمية من حكومة قرطبة ، خاصة أنهم أخرجوا من ديارهم مكرهين علي أثر ثورتهم علي الأمير الأندلسي الحكم الربضي فيما عرف في التاريخ الأندلسي بثورة الربض[٣] .

وصل بعض من غزاة البحر الأندلسيين إلي الإسكندرية واستولوا عليها سنة ٢٠٢هـ/٨١٨م ، ثم خرجوا منها تحت ضغط عبد الله بن طاهر قائد الخليفة العباسي المأمون ١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م ؛ فاتجهوا إلي كريت واستولوا عليها من أيدي البيزنطيين سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م[٤] ، وكذلك

---

(١) احمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ،مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، ص١٤٤-١٤٥.

(٢) حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر المتوسط ، ص٩٩.

(٣) أحمد مختار العبادي ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط ، مؤسسة شباب الجامعات ، الإسكندرية ، ٢ص١٥١ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ،٥ص٤٨٠.

ساعدوا الأغالبة في فتح صقلية ٢١٥هـ/ ٨٣٠م " إذ أقبل أسطول كبير من الأندلس خرجوا غزاة " بقيادة أصبغ بن وكيل الملقب بفرغلوش ونزل بصقلية[١] ، شجعت النجاحات التي أحرزها هؤلاء إخوانهم من البحريين الأندلسيين علي غزو السواحل الفرنجية وجزر البحر المتوسط ، قبل وجود بحرية أموية في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وكان المركز الرئيسي لهم منطقة تقع على الساحل الشمالي الشرقي من الأندلس بين طرطوشة Sortosa وبلنسية Valencia ، وكان يتزعمها في الغالب والي سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى الأندلسي ، وفي منطقة أخري علي الساحل الجنوبي الشرقي عند الموقع التي قامت عليه مرية بجانة Pechina ، وأسس هؤلاء مدينة تنس علي ساحل الشمال الأفريقي سنة ٢٦٢هـ/ ٨٧٥م ، ومنهم من أسس مدينة وهران بالاشتراك مع قبيلتي نفزة وإزداجة سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م[٢] .

يتَّفق المؤرخون القدامى علي أنَّ هؤلاء البحريين الأندلسيين شاركوا بالصُّدفة مع الأغالبة في فتح صقلية[٣] ، أمَّا المحدثون فقد اختلفوا في صدق نياتهم[٤] ، إذ يري بعضهم أن أصبغ قائد البحريين لم يشترك في معارك صقلية رغبة في الجهاد ؛ بقدر طمعه في الرئاسة والمغانم[٥] ، ويري كروجر[٦] أن البحريين الأندلسيين الذين ظهروا بصورة غير متوقعة سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م للقيام بعمليات السَّلب ساندوا الأغالبة المُحاصِرين ، وفي سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م شارك البعض منهم في إتمام فتح صقلية ، ويري فازيلييف[٧] أنَّ أسطول البحريين الأندلسيين جاء لنهب صقلية مستقلاً بعملياته ، ولم يأتِ عونا لعرب إفريقية ، ويري آخرون أن أعمالهم لم تكن تتم بموافقة رسمية

(١) المصدر نفسه ، ٥ص٤٣٨.

(٢) السيد عبد العزيز سالم و تاريخ مدينة المرية الإسلامية، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٦٩م ،ص٣٣-٣٤

(٣) وفي سنة ٢١٥ كان غزو فرغلوش ؛ فأخذوا القلاع ، وسبوا ، وغنموا في بلاد الروم ، ثم سئلوا إغاثة من كان من المسلمين بها ؛ فأجابوهم علي أن يكون أمر الناس إلي فرغلوش" راجع ابن عذارى ، البيان المغرب ، ١ص١٠٤ .

(٤) حسب المذهب المالكي ينبغي علي المجاهد أن يعقد نيته علي الجهاد ، راجع ، ابن رشد ، المقدمات الممهدات، ١ص١٧٨ .

(٥) محمود إسماعيل ، الأغالبة ،ص١٢٧-١٢٨.

(6) Krueger.H.C. The Italian Cities and Arabs before 1095.p44.

(٧) العرب والروم ، ص١١٥-١١٦.

من حكومة قرطبة[١] ، ويساوي أحد المحدثين النابهين[٢] بينهم وبين قراصنة النورمان الفيكنج Vikings ، كما يري أنَّ الذين نزلوا صقلية ليسوا من أهل كريت ، وإنَّما من أهل سواحل الأندلس الشرقية الذين اتخذوا من الغزو في البحر صناعة لهم ، ويدلل علي عملهم بالقرصنة " بأنهم استفاقوا علي ما أنزله بهم الوباء من الخسائر في صقلية ، ليجدوا أنفسهم قد انغمسوا في أمر ليس من شئونهم بصفتهم باحثين عن المغانم والأسلاب ؛ وليسوا جندًا نظاميًا فاتحًا "[٣] ، ويؤكد ذلك ما ذكره ابن عذاري من أنهم ما لبثوا أن قفلوا راجعين إلي الأندلس[٤] .

من الصعب علي معظم المؤرخين المحدثين المسلمين القبول بإطلاق لقب قراصنة علي هؤلاء ، وفي نفس الوقت أيضًا لا يمكن وصفهم بالمجاهدين ، خاصة أنهم فقدوا الغطاء الشرعي من أموي الأندلس ، وليس لهم قبول لدي العباسيين ، ويقومون بأعمالهم وفقًا لمصالحهم الخاصة ، وبذلك ينقصهم إذن الإمام ، أو طاعة الإمام في النفير إلي الحرب والجهاد[٥] ، فقد تبرَّأ منهم الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط عندما طلب منه الإمبراطور تيوفل الضغط عليهم لوقف غاراتهم البحرية ضد ممتلكاته ، حيث قال في خطابه له الذي يرد فيه علي طلبه : " ولم نكن نحسبك تعجز عنهم ولا تصعب عن نكايتهم ، ولا تتوقف عن إخراجهم عما تطرقوه من بلدك "[٦] ، كما أنَّ الإمبراطور أوتو الكبير ٣٢٥-٣٦٣هـ/٩٣٦-٩٧٣م إمبراطور الدولة الرومانية المقدَّسة تبادل

---

(١) أحمد مختار العبادي ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط ، ٢ص١٥١ .

(٢) سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ٢ص٢٣٠ .

(٣) المرجع نفسه ،٢ ، ص٢٣٣.

(٤) ابن عذارى ، البيان المغرب.

(٥) راجع ، ابن رشد ، المقدمات والممهدات ، ١ص١٧٤ ؛ فكانت الهدنة والحرب مع روم صقلية ما كانت لتتم إلا بعلم الخلافة العباسية في بغداد الإمام أو بموافقتها الضمنية علي الأقل سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، ٢ص٢٢٩ وبالتالي تكون عملياتهم مغلفة بغطاء شرعي ، وفي الأندلس زمن الخليفة الناصر الأموي ما كان الأسطول الرسمي للخلافة يغزو إلا بأمر الخليفة الإمام راجع ، ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق ، شالميتا ، مدريد ، ١٩٧٩م ، ٥ص٣١٢-٣١٣.

(٦) أما ما ذكرت من أمر أبي حفص الأندلسي قائد البحريين في كريت ، ومن صار معه من أهل بلدنا في خضوعهم لأبن ماردة الخليفة العباسي المعتصم ودخولهم في طاعته ، وما سألت من النظر في أمورهم والإنكار لفعلهم فإنه لم ينزع إليه منهم إلا سفلتهم وسوادهم وفسقتهم وأباقهم ، وليسوا في بلدنا ولا برتبتنا فنغير=

الرسائل مع الخليفة ألأموي عبد الرحمن الناصر ٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م بسبب الغارات البحرية التي شنها الأندلسيون علي سواحل بلاده الجنوبية دون أن تتوقف هذه الهجمات[١] .

يري بعضهم أنَّ هذه الأعمال تأتي في إطار أعمال القرصنة الحرة التي كانت شائعة في ذلك الوقت بين المسلمين والمسيحيين علي السواء[٢] ، ويقول لويس : إنَّ القراصنة العرب والمغامرين أحدثوا الكثير من التَّخريب في مدن غربي إيطاليا وفي جنوبي إيطاليا ووسطها ، وامتدَّ تخريبهم فيما وراء الساحل ، وذلك فيما بين عامي ٨٨٦، ٨٤٠ م ، ويري آخر أن هذه جماعات مجاهدة تغزو سواحل البلاد النصرانية ، وترد أذاها عن بلاد المسلمين ، ويرد علي قول المصادر اللاتينية عن كونهم قراصنة بأنه لم يكن في الواقع كذلك تماما[٣] ، ويفسر ذلك بقوله : ربما كان ذلك صحيحًا من بعض الوجوه - عمل المسلمين بالقرصنة - لأنَّ الأساطيل الإسلامية التَّابعة للدويلات المستقلة في غربي العالم الإسلامي قصرت جهدها علي الدفاع عن الشواطئ ، أمَّا الغارات فكانت تقوم بها في الغالب جماعات تعمل لحسابها الخاص ، هدفها الإغارة علي الشواطئ الأوربية والفوز بالغنائم ، ومن ثَمَّ كانت أعمالاً قريبة من القرصنة ؛ ومن هنا نفهم السبب في أنَّ المراجع العربية لا تذكر شيئًا عن هذه الأعمال[٤] .

ويسمي مستشرق آخر[٥] هذه الجماعات بالبحرية الخاصة التي تعاونت مع البحرية النظامية للدول التابعة لها ، ووفقًا للمفاهيم المُعاصرة في العلاقات الدولية يطلق علي مثل هذه الأنشطة قرصنة ، لكن بعض المسلمين يعتبرونهم مجاهدين ينفِّذون أحد واجبات الدين الإسلامي ، ويري أنَّ الجزء الأكبر من الحرب علي الشواطئ الإيطالية كانت في مجملها حالات مُبادرة شخصية؛

= عليهم ونكفيك مئونتهم « ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق محمود علي مكي ، ٢، الرياض ٢٠٠٣ص٢ ؛ ليفي بروفنسال، المسلمون في المغرب والأندلس ، ترجمة عبد العزيز سالم ، الإسكندرية ١٩٩٠م ، ١١٥-١١٨.

(١) حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر المتوسط ، ص١٢٧ .

(٢) في تاريخ المغرب والأندلس ، ص٢١٧.

(٣) حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر المتوسط ، ص١٢٧.

(٤) المرجع نفسه ، ص١٣٦ .

(5) Francesco Gabrieli, Greeks and Arabs in the central Mediterranean area, Dumbarton Oaks Papers, vol.18 1964,p59

استمرت مع الهيمنة العربية علي المتوسط ، ويتفق آخر معه في الرأي ، حيث يفرق بين البحرية الخاصة وبين الأساطيل الرسمية للدولة الإسلامية[١] ، وينطبق هذا الرأي علي البحريين الأندلسيين أيام الخليفة الأموي الناصر ؛ الذي شهدت فترة حكمه تعاونا بين البحرية الخاصة والبحرية النظامية خاصة في ألمرية Al mria ، حيث اشترك البحريون مع الأسطول الأندلسي في غزواته برسم الجهاد علي سواحل الفرنجة ، كما تولي أحد زعماء البحريين ويدعي محمد بن رماحس قيادة الأسطول البحري في عهد الخليفة الأموي الناصر[٢] ، وبالتالي كانت مسألة البحريين في ميناء المرية منظمة ولهم زعماء ، وحاجة الأسطول لهم في غزواته برسم الجهاد علي سواحل الفرنجة كانت لخبرتهم في المنطقة في عملياتهم الخاصة Pirates ؛ خاصة في فترات تمزُّق وحدة الأندلس السياسية ، كما أن قوة شكيمة الناصر وهيبته لدي هؤلاء البحريين جعلتهم يلتزمون بالاتفاقيات التي يبرمها مع غيره من الحكام والتجار ؛ فقد أبرم الناصر عددا من الاتفاقيات التجارية تتضمن بنودها عدم التعرض القراصنة المسلمين للسفن التجارية ، مثلما حدث مع شنيير حاكم برشلونة Barcelona [٣] ، وكذلك اتفاقياته مع تجار أمالفي الذي أمَّنهم الناصر ، فصارت تجارتهم تصل إلي الأندلس بعد انقطاع[٤] .

سلطنة باري[٥] ٢٢٧هـ/٨٤١م - ٢٥٨هـ/٨٧١م

تعددت الاجتهادات حول حكام باري وأصولهم وهويتهم السياسية ؛ بيد أن كلها لا ترقى إلي مصاف الحقيقة التاريخية لغياب النصوص التي تؤكدها ، لكن المؤكد أنهم كانوا يعملون لحسابهم الخاص ، فلو أنهم كانوا تابعين للعباسيين أو للأمويين في الأندلس لوجدت أعمالهم صدي في كتابات المعاصرين في ذلك الوقت من المُوالين للفريقين ، وغموض أصل حكامها هو

---

(1) Pryor, Geography, technology, and war,p.105.

(٢) أنظر ، ابن حيان ، المقتبس ، ٥ص٢١٣ ،٣٦٦-٣٦٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ٥، ص٤٥٤-٤٥٥.

(٤) المصدر نفسه ، ٥، ص٤٧٨.

(٥) باري ميناء هام في الجنوب الشرقي الإيطالي يتحكم في مدخل البحر الأدرياتي وقبل استيلاء المسلمين عليه كان تابعا للدولة البيزنطية وبه صناعة للسفن وهو محطة بين موانى المنطقة ، راجع ، الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٩م ، ٢ ص٧٦٣ ، طرخان ، المسلمون في أوربا ، ص٢١٥ .

الذي يرجِّح فرضية كونهم قراصنة[١] ، وأيًا كان أصلهم وتبعيتهم فهم في هيامهم في المتوسط بحثًا عن ملاذ وجدوا ضالتهم في باري التي أهلها موقعها الجغرافي أقرب ما تكون استراحة قرصان لمدة ٣٠ سنة أو يزيد ، وتحكَّموا بذلك في مدخل البحر الأدرياتي ، والمرجَّح أنهم بجانب أعمال القرصنة قاموا ـ في بعض فتراتهم ـ بعمليات غزو جهادية ضد الأقاليم الإيطالية المجاورة، حيث فتح أحد زعمائهم المفرج بن سلام أربعة وعشرين حصنًا زمن الخليفة العباسي المتوكل ٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٧-٨٦١م[٢].

عجَّل التنافس والتَّحاسد من أجل السلطة بقتل الزعيم المفرج بن سلام وتولية آخر يدعي سوران ؛ الذي أسمته المصادر الغربية سلطان ، وطلبهم التقليد من المتوكل العباسي هو نوعٌ من الغطاء الشَّرعي لعملياتهم ، كما أنَّ تجارتهم في الرَّقيق علي مستوي عالٍ ترجح عملهم في القرصنة[٣] ، ويقول لويس[٤] : إنَّ سلطان باري كان حاكمًا قرصانًا ، لذلك أصبح الطريق من جنوبي إيطاليا إلي الشام عن طريق الإسكندرية محفوفًا بمخاطر القراصنة المسلمين مشيرا إلي ما تمثله قرصنة باري من خطورة علي الخط التجاري البحري المختصر ، و لجأت التجارة إلي طرق أكثر أمنا مع أنها طويلة للوصول إلي الشام وشرقي المتوسط من خلال الدوران حول جنوب بلاد اليونان، عبر كريت ، وعلي طول سلسلة الجزر حتى جنوبي تركيا أو قبرص ، ثم ساحل بلاد الشام؛ لذلك فإن جزءًا كبيرًا من السفن المتجهة من جنوبي إيطاليا صوب الإسكندرية كانت تمرُّ بموانئ الشام ؛ خاصة عكا الأمر الذي يزيد في مدة الإبحار وفي تكاليف الرحلة[٥] .

---

(١) اختلفت الفرضيات حول أصلهم فيما بين أنهم من كريت أي أندلسيين وبين أنهم من الأغالبة ، راجع ، طرخان، المسلمون في أوربا في العصور الوسطي ، مؤسسة سجل العرب ١٩٦٦م ، ص٢١٦.

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق : عبد الله أنيس الطباع ، مؤسسة المعارف ، بيروت ١٩٨٧م ١ص٢٣٦.

(٣) يصف برنارد الحكيم ميناء باري أثناء استعداده لرحلة الحج إلي القدس بوجود أربعة سفن تحمل ستة آلاف أسير مسيحي من إقليم بنفنتم تستعد للإبحار إلي موانى تونس بخلاف السفينة التي استقلها إلي الإسكندرية التي حملت هي الأخري ستة آلاف أسير ، راجع :

- Bernard the wise , the voyage of Bernard the wise, in Early travels in Palestine, ed. by Thomas Wright, London 1848 , p.24.

(٤) القوي التجارية ص٢٧٥ .

(٥) داود أبو العافية ، دور التجارة في الاتصال الإسلامي المسيحي، ص٢٢ .

أما من يريد السفر من جنوبي إيطاليا إلي الإسكندرية من خلال الخط البحري المختصر فعليه أن يحصل علي حماية سلطان باري ؛ لذلك لجأ الحجاج النصارى إليه لحمايتهم خلال سفرهم إلي القدس عن طريق الإسكندرية ؛ ممَّا يؤكد علي هيمنته ونفوذه علي الطريق البحري إلي الإسكندرية والشام ، وتزويدهم بخطابات تزكِّيهم لدي حكَّام مصر ؛ هو نوعٌ من الحماية حتى خارج منطقة نفوذه ؛ لكن هذه الخطابات لم تعفهم من دفع إتاوة قدرها ١٣ ديناراً عن كل حاج لحاكم الإسكندرية ، وإتاوة أخري لربَّان السفينة الذي رفض نزولهم إلي الميناء إلا بعد دفع ٦ أوري Aurei عملة ذهبية أوربية[١] ، وهو فيما يبدو كان نظامًا لتبادل المنافع بين العاملين في المجال البحري .

ويري أحد المحدثين[٢] أن المفرج بن سلام كان يعمل لحسابه الخاص ، وأن هؤلاء الغُزاة كانوا يمثِّلون طلائع القوات النِّظامية ، وهو قولٌ مردود عليه ؛ لأنَّ هؤلاء لم يتَّبعوا لسلطان أحد طالما بقوا في باري ؛ حتى يكونوا في مقدمة قواتهم ، ويصفهم أيضا بأنَّهم انتابتهم موجة من الحماس من أجل الجهاد الذي لا ينتقص من قدره ما صاحبه من الرغبة في المغانم الثمينة والسبي الجميل، وقد يكون هذا تجميلا لصورة من دخلوا باري بخلاف وصفه الصريح للبحريين في صقلية بأنهم قراصنة[٣] .

المحارس والرباطات :

اعتمد الرومان زمن سيطرتهم علي المتوسط علي منظومة للدفاع عن السواحل ضد الأعداء والقراصنة . اتَّخذت هذه المنظومة طريقتين ، إحداهما موجبة تعوِّل علي الدفاع النَّشط عن السواحل ، عن طريق قطع الأسطول الروماني الذي يبحث عن العدو قبل أن يدنو من الساحل ، والأخرى سلبية ، وتتمثل في تحصين السواحل نفسها[٤] ، وتستخدم الطريقة الأولي في ظل قوة الإمبراطورية ، وتعمل الأخرى في حالات الاسترخاء[٥] ، ويدخل في إطار الطريقة الثانية ما صدر

(1) Bernard, the voyage of Bernard the wise, p. 23-24.

(٢) تاريخ المغرب العربي ، ٢ص٢٦٥ .

(٣) انظر قبله .

(4) Starr, Coastal defense in the Roman world, p.56.

(5) Ibid ,pp.69-70.

من قوانين في عهد بومبي التي نصَّت علي إشراف الإمبراطورية علي كامل سواحل المتوسط، فضلاً عن خمسين ميلاً داخل أراضي هذه السواحل[١] ، ولقد تركت هذه الطريقة الكثير من الحصون والمحارس علي طول السواحل المغربية ، استفاد المسلمون بها في أغراضهم الدفاعية[٢] ، ويبدو أن سواحل غرب المتوسط اتخذت الطريقة الثانية بعد أن زالت السيطرة الرومانية ومن بعدها البيزنطية ، لذلك شيَّد المسلمون المحارس والرباطات علي سواحل البحر المتوسط الغربية ؛ لصدِّ عمليات القرصنة والاعتداءات البحرية ، وكذلك شيّدت الدول البحرية الأوربية في غربي المتوسط استحكامات دفاعية علي سواحلها للغرض نفسه[٣] .

عرفت المياه الإقليمية في العصور الإسلامية الباكرة علي ما يبدو ، وهي تقدَّر بمسافة رؤية قمة صواري السفن علي الساحل ، وتكون هذه المسافة البحرية تحت سيادة الدولة ، ولابد من التعرف علي المراكب التي تجتاز هذه المنطقة ، ويؤكد ذلك واقعة ظهور سفن علي مرأى من موانئ غالة، وتكهن البعض أنَّها تنتمي لتجار يهود ،غير أن شارلمان عرف من خلال نظره الثاقب أنها سفن القراصنة النورمان[٤] الذين يمرون بعيدا عن المنطقة التي يمكن تمييز المراكب فيها من علي الساحل حيث تعارف البحارة علي كونها تقع تحت سيادة الدولة ، ومن الجانب الآخر يحدد ابن ماجد الذي عاش في أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجري أنَّ المياه الإقليمية تمتدُّ إلي الحد الذي يغيب فيه الساحل عن بصر الملاَّح من فوق مركب شراعي وهو يبتعد عن البرِّ ، وتقدر هذه المسافة بنحو أربعة أميال بحرية في الظروف المعتادة[٥] .

يحدد ابن المجاور ت ٦٩٠هـ/١٢٩١م[٦] طريقة رصد المراكب في ميناء عدن من علي الجبل أثناء فترة الشروق والغروب في لحظة دخولها المياه الإقليمية عندما يقول " ويكون الناظور الناظر

(1) Ibid ،pp.60

(٢) العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، ص٢٩٢ .

(٣) حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر المتوسط ، نقلا عن بروفنسال ، ص١٢٨.

(٤) هايد تاريخ التجارة ،١ص١٤٢ هامش ٢ .

(٥) أنور عبد العليم ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، عالم المعرفة ، الكويت العدد رقم ١٣ لسنة ١٩٧٩م ، ص٢١٩ .

(٦) المستبصر ، صفة بلاد اليمن ومكة والحجاز ، تصحيح وضبط ، اوسكر لوفجرين ، ليدن ١٩٥١م،ص١٣٨.

قد عرض عودًا قُدَّامه فإذا تخايل له شيء في البحر قاس ذلك الشيء علي العود ... فإن كان الخيال مستقيمًا علي في ء العود ثبت عنده أنَّه مركب " ، عندها يكون المركب في المياه الإقليمية، واستنتج أحد الدارسين[١] أن المياه الإقليمية في الأندلس كانت تقدر بستة أميال من الشاطئ وهو استنتاج خاطئ مبني علي قراءة مبتورة لنص الإدريسي ت٥٥٩هـ/١١٦٦م[٢] ؛ فالإدريسي يصف المسافة ما بين قري ومدن بجانة في البر والبحر بمحاذاة الشاطئ ، والمسافة في البحر أسرع وأقرب من البر بسبب الطبيعة في هذه المنطقة فيقول :" ومن قرية البجانس إلي أخر إقليم الجون – وعليه برج مبني بالحجارة مصنوع لوقيد النار فيه عند ظهور العدو – ستة أميال " .

والرِّباط هو نظام دفاعي إسلامي عن السواحل الإسلامية ، استحدثه المسلمون للعمل كنظام إنذار عندما تتعرض الحدود الساحلية لأي اعتداءات خارجية[٣] ، وهو مأخوذ من الربط ؛ لأنه إذا لازم المرابط الثغر أو الساحل فكأنه قد ربط نفسه به[٤] وكذلك شيّدت الدول البحرية الأوربية في غربي المتوسط استحكامات دفاعية علي سواحلها للغرض نفسه[٥] والمحارس هي معاقل ساحلية دفاعية عن المدن الساحلية يكلف الحرس بالسهر علي مراقبة البحر منها ومن الأبراج المقامة علي سور المدينة المواجه للبحر[٦] ، والفرق بين النظامين أن الأول نظام حماية يقع علي كاهل الأهالي ولو كان من بناء الحكام ، حيث يتطوع الزهاد والمتعبدون والمتصوفة فيه بالدفاع عن البلاد تطبيقا لفريضة الجهاد ، لذلك يعتبر مؤسسة عسكرية دينية ، أما الثاني فهو حكومي ويقوم علي العمل فيه جند نظاميون ، وقد شيَّد المسلمون في الشمال الأفريقي الرباطات والمحارس علي الساحل في وقت باكر لصد غارات القوة البحرية البيزنطية والأوربية وقرصنتها ، مثل رباط المنستير الذي بني سنة ١٨٠هـ/ ٧٩٦م في عهد الوالي العباسي علي إفريقية هرثمة بن أعين ، ويعتبر من أقدم

---

(1) Khalilieh,p138, Islamic Maritime.

(٢) نزهة المشتاق ،٢ص٥٦٣ .

(3) Hassan S. Khalilieh, the RIBAT system and its role in coastal navigation, JESHO 422, 1999pp.212.

(٤) ابن رشد ، المقدمات والممهدات ، ١ ص ١٨٣.

(٥) حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر المتوسط ، نقلا عن بروفنسال ، ص١٢٨.

(٦) حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية ،ص٥١.

رباطات إفريقية[١] ، وهو يقع بين المهدية وسوسة علي نحر البحر[٢] ، ويورد المالكي[٣] أحاديث عن الرسول صلي الله عليه وسلم عن فضل الرباط في المنستير يبدو أنها ضعيفة لكنها للتحفيز علي الرباط ، ومن أشهر المرابطين في هذا الرباط الفقيه المالكي سعيد بن سحنون ت ٢٤٠هـ[٤].

شهد القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي بناء الكثير من الرباطات بإفريقية عندما زاد الصراع علي السيادة في غربي المتوسط بين البيزنطيين والأوربيين من جهة والمسلمين من جهة أخري ، منها رباط قصر الطوب[٥] الذي بناه زيادة الله الأغلبي سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م علي حطام حصن أقامه أبوه إبراهيم[٦] ، ويرصد اليعقوبي ت القرن الثالث الهجري عددا من الرباطات فيما بين صفاقص وبنزرت[٧] علي سواحل إفريقية ، وقد كانت الرباطات والمحارس في إفريقية أكثر من غيرها من دول الساحل الأفريقي ؛ لقربها من جزر المتوسط ، وسهولة الرسو علي سواحلها الغربية[٨] التي جذبت كثيرا من سكان الداخل للعمل بالزراعة ؛ فانتشرت القرى والمنازل علي الساحل بخلاف بقية سواحل الجنوب الغربي للمتوسط التي لم تكن جاذبة للسكان لطبيعتها الجبلية حيث يضيق الساحل وتمثل سلاسل الجبال حماية طبيعية من جهة البحر ، وكذلك نشأت الرباطات علي سواحل الأندلس ؛ مثل رباط دانية ورباط القبطة بمرية بجانة الذي أُنشئ ردًا علي غارات النورمان علي السواحل الأندلسية ، وغيرهما من الرباطات الكثيرة التي شُيِّدت استجابة للتحديات البحرية[٩] .

---

(١) البكري ، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب , مكتبة المثني , بغداد ، ص٣٦ ، احمد مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب الأندلس ، الإسكندرية ١٩٦٨م ، ص٢٩١ لويس ، القوي البحرية ، ص١٥٩ .

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، طبعة ليدن ، ١٩٣٨م، ص٧٣ .

(٣) رياض النفوس ، ١ ، ص٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ١ص٣٨١.

(٥) يجاور رباط قصر الطوب مدينة سوسة ، راجع ، المالكي ، رياض النفوس ، ٢ص٢٢٢.

(٦) يقول ابن حوقل « وفيها سوسة محارس مبنية للرباط بها » راجع ، صورة الأرض ، ص٧٠؛ عن الطراز المعماري لبناء رباط سوسة راجع ، سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ،٢ص١٧-٧٢؛

.Hassan S. Khalilieh, the RIBAT system and its role in coastal navigation, pp.223,225

(٧) البلدان ، ليدن ١٨٩٢م ، ص٣٥٠.

(8) Ellen Churchill Semple, Pirate coasts of the Mediterranean sea, the Geographical R - view, vol.II1916,p.137

(٩) عن رباطات الأندلس راجع ، السيد عبد العزيز سالم ، أسرات من قادة البحر الآندلسيين في العصر الإسلامي، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩١م ، ١ص٥٨٩-٥٩٠.

ويتمُّ اختيار مكان الرباط علي أساس مسافات مدروسة ، من حيث قربه من الموانئ ، ومن حيث جغرافية المكان[١] ، وجرت العادة أن تكون الرباطات فوق هضاب صغيرة علي الساحل[٢] ؛ لكشف السفن المعادية أو سفن القراصنة من مسافة بعيدة ، فقد كانت هناك إشارات تنبئ المرابطين عن قرب هجوم القراصنة من خلال تحركات مراكبهم في البحر مما يزيد من استعداداتهم للمواجهة[٣] ، فإذا ما اكتشفوا قدوم أحدٍ منها أشعلوا النار في منارات أعدت لذلك الغرض ؛ إذا كان الوقت ليلاً أو إثارة الدُّخان منها إذا كان الوقت نهاراً[٤] .

يتكون الرباط عادة من غرف لسكني المرابطين ومسجدا ومنارا لرصد المهاجمين[٥] واعتبر الصالحون المرابطة فيه واجبًا شرعيًا[٦] ؛ لردِّ قراصنة البحر عن سواحلهم[٧] ، فكانوا يرابطون علي الساحل وبين الحين والأخر يرجعون إلي الداخل لتدريس العلوم الشرعية وفي كثير من تراجمهم ما يتصل بأدب الرباط[٨] ، كما يأتي ضمن مناقبهم عبارة " كثير السياحة والرباط "[٩] ويرد كثير

---

(1) Hassan S. Khalilieh. the RIBAT system and its role in coastal navigation. JESHO 422. ,1999pp.214219.

(٢) راجع ، البكري ، المغرب، ص٣٥.

(٣) المالكي ، رياض النفوس ، ٢ص٢٤٠-٢٤١.

(٤) احمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص١٥٠ .

(٥) حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات من الحضارة ، ص٢٤-٢٥ .

(٦) يعتبره البعض شعبة من شعب الجهاد ، والأجر فيه علي قدر الخوف من ذلك الثغر ، وحاجة أهله إلي حراستهم من العدو ، أنظر ، ابن رشد ، المقدمات الممهدات ، ١ص١٨٣ .

(٧) لما دخل عبيد الله المهدي إلي إفريقية ، ونزل برقادة ترك أحد الصالحين الرباط في قصر الطوب وأتي القيروان فلما سئل عن ذلك قال: »كنا نحرس عدوا بيننا وبينه البحر فتركناه وأقبلنا علي حراسة هذا الذي حل بساحتنا لأنه أشد علينا من الروم « ، راجع ، المالكي ، رياض النفوس ، ٢ص٣٧ .

(٨) وعلي سبيل المثال راجع ترجمة أبو يوسف جبلة بن حمود بن عبد الرحمن ت٢٩٧هـ الذي كان يرابط بقصر الطوب ثم يرجع إلي القيروان فيسمع الناس منه ثم يرجع وكان يقول : » أحرس عورات المسلمين من هؤلاء القوم الروم فإن رأيت منهم شيئا حركت المسلمين عليهم ، راجع المالكي رياض النفوس ، ٢ص٢٧ ،٣٨ ، وكذلك ترجمة أبو الفضل يوسف بن مسرور ت ٣٢٤هـ الذي كان كثير الحرس علي المسلمين ، المالكي ، رياض النفوس، ٢ص٢٤٠ .

(٩) الدباغ ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، تحقيق : ماضور ، مكتبة الخانجي مصر ، المكتبة العتيقة تونس ،١٩٧٨م ،٣ص١٦ ، ١٨ .

من الإشارات في تراجم هؤلاء تبيِّن بعض ما يدور في هذه الرباطات من تدريبات عسكرية؛ لمُلاقاة قراصنة السواحل[١] ، حيث يترأس الرباط أحد الصالحين يسمي شيخ الرباط[٢] ، وكان الولاة يُهيئون الناس لمُلاقاة أعداء البحر عندما تقلُّ أعداد المُرابطين ، ويُقَسِّم الناس إلي نوبات حرس، ويبدو أن منطقة ساحل سوسة كانت من أكثر المناطق المستهدفة علي الساحل الجنوبي الغربي للمتوسط من القراصنة حيث يرد ذكر المرابطين علي سواحلها كثيرا[٣] ، حيث كان أهلها دائما مستنفرين لرد القراصنة لدرجة أنهم شقوا عصا الطاعة علي المعز بن باديس سنة٤٤٥هـ/ " ومنعوه ما كانوا يحملون إليه من المال وقالوا نحن أولي به لنذب به عن بلدنا "[٤] .

ويورد المالكي ت ٤٣٨هـ/١٠٤٧م معركة بين القراصنة الروم وبين المرابطين علي ساحل البحر بقيادة الفقيه محمد بن سحنون ت٢٥٦هـ عندما هاجموا سكان منطقة الساحلين التي تقع بين قصر الطوب وسهل بالقرب من سوسة ، حيث كانت هذه المنطقة دائما عرضة لهجمات من القراصنة الروم لنهبها واسترقاق أهلها لقربها من الساحل وخلوها من سور يحميها ، فعندما ظهر القراصنة وضربوا حصارهم علي المنازل تصايح الناس واجتمع المرابطون بقيادة محمد بن سحنون فوجدوا القراصنة قد أشرفوا علي نهب الأموال وسبي الحريم فهزموهم وطاردوهم حتى ولوا الأدبار إلي البحر[٥] .

أما بالنسبة لحماية التجارة البحرية ، فقد رافقت الأسطول التجاري الإسلامي قوة حماية من قطع البحرية العسكرية للحماية من الاعتداءات البحرية من الأعداء وسفن القراصنة[٦] ، ويلقَّبون

---

(١) في ترجمة أبي سعيد خلف بن محمد بن جرير السرتي اليحصبي ت ٣٢٣هـ « كان يحسن الفروسية مولعا بشراء الخيل ويخرج إلي الرباط بها للحرس علي المسلمين والسياحة علي البحر ، وربما خرج من سوسة هو وأصحابه فيقفوا صفا واحدا كأن العدو بين أيديهم ويجرون خيلهم في ذلك الموضع حتى تطلع الشمس « ، راجع ، المالكي ، رياض النفوس ، ٢ص١٩٦ .

(٢) الدباغ ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ،٣ص٢١١ .

(٣) المالكي ، رياض النفوس ، ٢ص٢٤٠-٢٤١ .

(٤) التجاني ، رحلة التجاني ، ص٢٨ .

(٥) المالكي ، رياض النفوس ، ٢ص٤٤٦-٤٤٧ ؛ حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ،ص٩٣ .

(6) Goitien, letters of Medieval Jewish Trade, Princeton University Press1973,p311-315

بالعسكر البحرية ، ومنذ القرن٥هـ/ ١١م أصبحت هذه الظاهرة أكثر شيوعًا[١] ، وتتّضح هذه الصورة في الطريق البحري بين جنوبي إيطاليا وصقلية وموانئ إفريقية[٢] ، وكذلك علي الطريق البحري من الإسكندرية إلي الغرب ، وتشير إلي ذلك الرسائل التجارية المؤرخة بسنة ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م[٣] ، كما كان الأسطول الحربي للمدن التجارية الإيطالية يحمي تجارة تلك المدن ، وفق أسلوب مماثل لمنهاج مراكب الحراسة في الوقت الحالي[٤] ، وهذه السفن ذات أشرعة ومجاديف سريعة ؛ تسبق القافلة ببعض الوقت ؛ لاستكشاف الطريق[٥] .

قرصنة جنوة وبيزا ومقدمات الحروب الصليبية :

سيطر المسلمون علي غربي المتوسط ، وقبل ذلك علي صقلية والبليار وعلي سردينيا لفترة بسيطة ، وهاجموا جنوه ونهبوها سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م ، وتعرّضت بيزا إلي المصير نفسه سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م وسنة٤٠٢هـ/ ١٠١١م ، واستحال علي المدينتين أن تتوسعا في تجارتهما ؛ طالما ظل القراصنة المسلمون مُسيطرين علي القسم الغربي من المتوسط ، ورأت مدينتا جنوة وبيزا في نفسيهما دويلات علي خط المواجهة ، عليهما واجبٌ خاصٌّ ؛ وهو تطهير غربي المتوسط منْ القراصنة المسلمين علي حد قول أحد الباحثين[٦] ؛ فبدأتا خطتهما بالسيطرة علي متوسطة البحر المتوسط من شماليه حتى جنوبيه ؛ فاستولوا علي سردينيا سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م ، ٤٠٧هـ/

---

(1) Khalilieh، Islamic Maritime،p.46.

(٢) عبد الرحمن بشير ، العلاقات التجارية بين إفريقية وجنوبي إيطاليا وصقلية ، القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي ، مجلة كلية الآداب جامعة الزقازيق ، دراسات خاصة ، فبراير ٢٠٠٢م ، ص٢٢ ؛

.Talbi، law and economy in ifriqiya Tunisia ، in the third islamic century : in the med - eval city، ed by udovitch and otheres، London 1977،p.221.

(3) Goitien، letters , p.311.

(٤) إميل لودفيغ ، البحر المتوسط ، ص٤٩٨ .

(5) Goitien، letters , p.312،cutation,5

(٦) داود أبو العافية ، دور التجارة في الاتصال الإسلامي المسيحي خلال العصور الوسطي ضمن كتاب التأثير العربي في أوربا ، تحرير ، ديونيسيوس آجيوس ، ريتشارد هيتشكوك ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ١٩٩٩م ، ص١٩-٢٠ .

١٠١٦م واستخلصوها من يد القائد الأندلسي مجاهد بن عبد الله العامري[١] ؛ فاتجهوا إلي مدينة بونة سنة ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م علي ساحل إفريقية واستولوا عليها ، وأحكموا سيطرتهم علي متوسطة البحر المتوسط بالاستيلاء علي المهدية في عهد تميم بن المعز بن زيري ٤٥٤-٥٠١هـ ١٠٦٢-١١٠٧م[٢] ، وفرضوا شروط سلام علي إفريقية ، كان من بينها الامتناع عن مواصلة القرصنة[٣] ، وكذلك احتل قراصنة من بيزا وجنوة وبرشلونة جزيرة ميورقة إحدي جزر البليار خلال حكم المرابطين سنة ٥٠٨هـ/١١١٤ ولم يتركوها إلا بعد سنة عندما حررها منهم المرابطون وولوا عليها من جانبهم[٤] .

مال ميزان القوي ناحية جنوة وبيزا بعد الحملة علي بونه ، واحترفت الدولتان القرصنة ونهب التجارة الإسلامية ومدن المسلمين الساحلية ، ويري لويس[٥] أن مغانم القرصنة – لا التجارة – هي الدافع الأساسي لتحريك أساطيل هاتين المدينتين في القرن٥هـ/ ١١م ، وواتتهما الفرصة للظهور ؛ بسبب ما انتهي إليه حال المسلمين من ضعف في النصف الغربي من المتوسط ، حيث تحرّكت الدولة الفاطمية صوب مصر ، وتحوّلت بيزنطة حوالي سنة٤١٦هـ/ ١٠٢٥م صوب الشرق ، وتدهورت القوي البحرية بصقلية وشمالي أفريقيا إلي حد بعيد ، وانهار سلطان الأمويين بالأندلس وخلفتهم دول الطوائف في القرن ٥هـ/١١م التي انشغلت بالصراع فيما بينها ؛ فانهارت قوة الأندلس البحرية[٦] ، وعلي الجانب الآخر نهض الغرب اللاتيني من الفوضى والاضطراب اللذين ساداه منذ وفاة شارلمان[٧] ، وشجع النصر الذي أحرزته بيزا علي كل من الفاطميين وبني زيري

(١) استعد مجاهد لمشروعه الخطير، فحشد أسطولا وأقلع من ‹دانية› في ربيع الأول سنة ٤٠٦ هـ [أغسطس ١٠١٥ م] وكانت جزيرة سردانية موضع اهتمام المسلمين منذ فتح الأندلس وقد غزاها المسلمون عدة مرات سنة ٧١١ م، ٧٥٢ م، ٨١٣ م، ٨١٦ م، ٨١٧ م، ٨٣٨ م بيد أن هذه الحملات كلها كانت عارضة لا تخطط للبقاء بالجزيرة، وكانت هذه الجزيرة تحت حكم الدولة البيزنطية ثم حكم الإفرنج ولكنها كانت مستقلة ذاتيا يحكمها قادة محليون

(2) The Italian Cities and Arabs before 1095,p.52. Krueger.

(3) Ibid ,p.41

(٤) محمد بن معمر ، قراءة في مخطوط تاريخ ميورقة ، مجلة التراث العربي ، دمشق ٩٨لسنة ٢٠٠٥ .

(٥) القوي البحرية ، ص٣١٥ .

(٦) ممدوح حسين ، الحروب الصليبية في شمال أفريقية ، ص١٠٥ .

(٧) لويس ، القوي البحرية ، ص٢٩٣ .

علي المضي في احتراف القرصنة ونهب تجارة المسلمين بعامة في المتوسط ، وكان قسم من مغانم القرصنة يخصص لتدعيم الأساطيل وزيادة عدد قطعها[١] .

وهكذا أصبحت بيزا وجنوة منذ النصف الأول للقرن الحادي عشر الميلادي صاحبة اليد العليا في متوسطة البحر المتوسط ؛ نتيجة عمليات القرصنة ضد سفن وتجارة المسلمين ، وإلي هذه القرصنة وما عادت به من أرباح وأموال طائلة ، يرجع الفضل في تحويل مدينة بيزا إلي حكومة أرستقراطية غنية[٢] ، وفي فترات الاضطرابات العامة كانت جنوا وبيزا والبندقية تتساهل مع أعمال القراصنة إن لم تكن تشجعها ، ولم تكن القرصنة تعرقل تجارة هذه المدن ؛ لأنَّ القراصنة كانوا يتسامحون دائما مع مواطنيهم[٣] .

ويري لويس[٤] أنه من الخطأ النظر إلي هذا التطور في جنوة ومثيلاتها علي أنه مجرد رد فعل لقرصنة المسلمين أو للحصار الإسلامي الذي فرض عليهم ، ويصحُّ أنه بدأ كذلك ، ولكنه سرعان ما لبث أن تحول إلي طريقة ممنهجة لجمع الثروة ، وعلي هذه الثروة اعتمد النمو الاقتصادي فيما بعد ؛ بمعني أن ذهب القراصنة هو الذي بني جنوة وبيزا كما بني بلرم والمهدية علي حد قوله ، ثم تحوَّلت القرصنة إلي تجارة علي السواحل الغربية بعد أن تخلَّصت إلي حد ما من قرصنة المسلمين التي تعرضت لها قرون طويلة ، وبعدما توافر لها رأس مال كبير من الذهب . وتظهر وثائق الجنيزا التعاون بين المدن الإيطالية في مجال القرصنة ، حيث أصبح هناك وسطاء من المدن الإيطالية متخصصين في شراء الأسري من إخوانهم القراصنة الإيطاليين في عرض البحر ، ثم ينقلبون بهم إلي أهليهم للحصول علي الفدية منهم[٥] .

---

(١) ممدوح حسين ، الحروب الصليبية في شمال أفريقية ، دار عمار ، عمان الأردن ١٩٩٨م ،ص١٠٦ .

(٢) صابر دياب ، دراسات في العلاقات بين المدن الإيطالية والدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط بين القرنيين العاشر والثاني عشر الميلاديين ، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ، العدد الرابع ، ١٩٧٣م ، ص٨،٧ .

(٣) هايد ، تاريخ التجارة ، ١ص٢٤٤ .

(٤) القوي البحرية ص٣٤٧ .

(5) Ben Sasson, Italy and Ifriqia from the ninth to the eleventh century , , p38 ; Goitein , Mediterranean society, 2p.329

ويصف لنا بنيامين التطيلي[١] في رحلته التي قام بها فيما بين عامي ٥٦١-٥٦٩هـ مارا بجنوة أعمال القرصنة في جنوة بقوله :" ويقومون بأعمال القرصنة علي الروم والمسلمين ، فيعودون إلي جنوة بالأسلاب والغنائم الوفيرة " ، ويبدو أنَّ الحروب الصليبية كانت نقطة التَّحوُّل ؛ لأن تتحول بيزا وجنوة من عمليات القرصنة ضد المسلمين في المتوسط إلي دور الوسيط التجاري في تجارة الغرب المسيحي مع الشرق الإسلامي[٢] ، ويرجع الفضل إلي البابوية في توجيه قوات بيزا وجنوة وجهة دينية وتوحيدهما لحرب المسلمين ، وهو ما يُعتبر مقدمة بعيدة للحروب الصليبية[٣].

تغيَّر ميزان القوي في غربي المتوسط خلال القرن الخامس الهجري ١١م لصالح القوي المسيحية؛ فقد ضعفت السيطرة الإسلامية علي هذه المنطقة رغم المحاولات الجريئة التي قام بها مجاهد العامري[٤] ، وبدا واضحًا الخطر الذي يُحيق بسفر المسلمين في الحوض الغربي من خلال رسالة الشاعر الصقلي أبي العرب مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي الزبيري معتذراً إلي المعتمد بن عباد ت ٤٨٨هـ/١٠٩٥م صاحب إشبيلية الذي أرسل إليه يستدعيه من صقلية ، حيث وصفت رسالته حالة منطقة غرب المتوسط ؛ بأنَّها للرُّوم والسُّفن التي تجري فيه معرضة للهلاك علي أيديهم ، أمَّا البَرُّ ففي أيدي العرب[٥] ، فقد بدأت القوي المسيحية في تجميع قواهم للكَرَّة علي العالم الإسلامي[٦] ، وظهرت الرُّوح الصليبية في كل ردود الفعل من جانب المدن الإيطالية، واختلطت مصالحها التجارية مع نوازعها الدينية ، بل انقلب زعماء قراصنتهم من مجرد قيادة مجموعة من اللصوص إلي قواد بحريين ، يتولُّون قيادة أساطيل أوطانهم في حالة الحرب إذا

---

(١) رحلة ابن يونه الأندلسي إلي بلاد الشرق الإسلامي ، ترجمة عزرا حداد ، دار ابن زيدون ، بيروت ١٩٩٦م، ص٥٨ .

(٢) صابر دياب ، دراسات في العلاقات بين المدن الإيطالية والدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط ، ص٣٢.

(٣) حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر المتوسط ، ص١٦٨ .

(٤) العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، ص٣١٧ .

(٥) حيث قال : البحر للروم لا يجري السفين به إلا علي الغرر والبر للعرب أماري، المكتبة الصقلية ، ص٦٢٨-٦٢٩ ،العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، ص٣١٧ .

(٦) ممدوح حسين ، الحروب الصليبية في شمال أفريقية ، ص١٠٥ .

كان الأمر يتعلَّق بانتماءات قومية ودينية[١] ، وبدأت الكنيسة في تقلُّد دورها القديم بتوجيه قادة المدن الإيطالية للقضاء علي الوجود الإسلامي في جزر المتوسط ، حيث تجاوبت بيزا وجنوة مع دعوة البابا بندكت الثامن بطرد العرب من جزيرة صقلية ، ووضعت بيزا يدها علي الجزيرة، ، وتَّبرعت بِسُدس ما غنمته من مهاجمتها ميناء باليرمو سنة٤٥٠هـ/ ١٠٦٢، ٤٥١هـ/١٠٦٣م لبناء كنيسة القديسة ماريا Maria Maggiore [٢] .

توالت دعوات الكنيسة للهجوم علي المسلمين في عقر دارهم ، والتَّبرُّع بالغنائم للكنائس والأديرة ، حيث تجلَّي التَّجاوب مع الرُّوح الصليبية في التَّبرُّع بالغنائم التي حازتها بيزا وجُنوة وبروفانس بالهجوم علي بونة سنة٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م لدير كلوني ، كما أن الهجوم علي المهدية كان بمبادرة من البابا فيكتور الثالث ، حيث وجد أنه من السهل إقناع ضحايا قراصنة بني زيري بيزا وجنوة وروما وأمالفي بالهجوم علي مدن الساحل الأفريقي ، ورعي البابا الحملة ومعه بندكت راعي كنيسة Modon، ورشح البابا قائد الحملة ، واشتركت كتائب من قوات الكنيسة تحمل رايتها في الهجوم[٣] وقد بني البيازنة والجنويه كنائس القديس سيكستوس St. Sixtus بغنائم المهدية[٤] ، ويري مؤرخو القرن الحادي عشر اللاتين أنَّ الهجوم علي المهدية هو الذي بشر بالحملة الصليبية الأولي[٥] ، ويدللون علي ذلك بأن البيازنة في هجومهم علي المهدية لبسوا شارة الحج، وهو ما يعني الجهاد المقدس ، فقد كان الحج والجهاد المقدس صورة واحدة[٦] ، ويري آخر أن الحرب الصليبية بدأت منذ سقوط طليطلة Toledo في أيدي نصارى مملكة قشتالة الأسبانية

---

(١) هايد ، تاريخ التجارة ، ١ص٢٤٤ .

(2) Krueger،H.C. The Italian Cities and Arabs before 1095p53.

(٣) ممدوح حسين ، الحروب الصليبية في أفريقيا ، ص١٣٩ .

(4) Krueger،H.C. The Italian Cities and Arabs before 1095p53 .

(5) Cowdrey،H.،E.،J.. The Mahdia campaign of 1087،p1.

ويختبر الكاتب النصوص اللاتينية والعربية ، ويصل إلي هذا التاريخ الذي وضعه في عنوان مقاله كتاريخ صحيح للهجوم علي المهدية ، راجع ، ص١١ ، ويتفق هذا التاريخ مع ما أورده ابن عذارى في أحداث سنة ٤٨٠هـ، راجع ، البيان المغرب ، ١ص٣٠١ .

(6) Cowdrey،H.،E.،J.. The Mahdia campaign of 1087،p22.

٤٧٨هـ/١٠٨٥م ، وسقوط سرقوسة Syracuse المدينة الصقلية في العام نفسه[١] .

تلهَّف حكام أوربا إلي العبور إلي العالم الإسلامي ، وركوب موجة توهج الروح الصليبية ، حيث طلب بلدوين ملك الفرنج من صهره روجار ملك صقلية مساعدته في غزو إفريقية التي يرتبط معها الأخير بمعاهدات[٢] ، لكنه أشار عليه بغزو القدس حتى يغلف حملته بأهداف دينية يتعاطف معها الشعب المسيحي[٣] ، وبذلك تغير هدف الحملة من شمالي أفريقيا إلي الشرق الإسلامي مما يدلل علي ضبابية الهدف ، وسوء القصد ، وتمكنت الحركات الدينية المسيحية تحت إشراف البابوية ، وعلي رأسها الحركة الكلونية من تعبئة الشعوب المسيحية في أوربا لحرب المسلمين في بلاد المشرق والمغرب ، بعد إعلان البابا أوربان الثاني الحرب علي المسلمين في مجمع كليرمون ٤٨٨هـ/١٠٩٥م[٤] .

غابت شمس البحرية الإسلامية ونشط قراصنة الغرب المسيحي في مياه المتوسط ، وخير تعبير عن ذلك رحلة ابن جبير الذي فضل السفر من سبته إلي الإسكندرية سنة٥٧٨هـ/١١٨٢م علي مركب جنوي عن طريق جزر البليار ، ثم سردينيا فصقلية ، ومنها إلي الإسكندرية ، والعودة كذلك علي مركب جنوي[٥] ، ولم يفكر في أن يستقل مركبًا إسلاميًا ؛ خوفًا من القراصنة المسيحيين[٦] ، ويري البعض[٧] أن من أسباب التفوق البحري للغرب المسيحي إبَّان حركة الحروب

= ويختبر الكاتب النصوص اللاتينية والعربية ، ويصل إلي هذا التاريخ الذي وضعه في عنوان مقاله كتاريخ صحيح للهجوم علي المهدية ، راجع p١١ ، ويتفق هذا التاريخ مع ما أورده ابن عذارى في أحداث سنة ٤٨٠هـ، راجع ، البيان المغرب ، ١ص٣٠١

(١) ممدوح حسين ، الحروب الصليبية في أفريقيا ، ص١٤٠ .

(٢) عقد تميم معاهدة مع الإيطاليين دفع بموجبها جزية من الدينارات الذهبية ومنح تجار بيزا وجنوة حرية الوصول إلي المهدية وأطلق سراح السجناء المسيحيين ووعد بإيقاف غارات القراصنة ، راجع H.C.Krueger، The Italian Cities and Arabs before 1095p52.53

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ٩ ص١٣ .

(٤) عصام سالم سيسالم ، جزر الأندلس المنسية ، ص١٢٣ .

(٥) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ١٩٨٠م ، ص٢٣٦ ، ٢٨٥، ٢٨٧ .

(6) khalilieh. Islamic maritime law. p174.

(7) Pryor. Geography. technology. and war.p152.

الصليبية ، الابتكار والاستيعاب في مجال التقنية حيث أصبح ركوب البحر آمنًا عن ذي قبل نتيجة التفاعل بين جغرافية المتوسط والتقنية البحرية الجديدة ، وكذلك الوضع الفريد للبرجوازية الأوربية في العصور الوسطي ، وظهور المبدأ البرجوازي إن لم يكن الرأسمالي ، وعلي الجانب الأخر ومنذ نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وبعد انتقال الدولة الفاطمية إلي مصر تراجعت البحرية الإسلامية في غربي المتوسط نتيجة أوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية مر بها الشمال الإفريقي ، وتخلي المسلمين عن مواكبة التقنية البحرية الجديدة ، وزاد تراجعها مع بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، حيث ضاعت جزيرة صقلية رمانة الميزان في غربي المتوسط ، وهجم النورمان علي المهدية ، وتخلي المسلمون عن جزيرة مالطة ، وأصبح غربي المتوسط تحت النفوذ المسيحي بشهادة ابن خلدون[١] في مقدمته عندما قال" لهم الكرة في هذا البحر في القرن الخامس " الهجري

الخاتمة

خلاصة القول فقد رصدت الدراسة عمليات القرصنة التي تمت في غربي البحر المتوسط في فترة القرن ٢-٥هـ/٨-١١م وخلصت إلي أن القرصنة في البحر هي الإغارة وقطع الطريق علي السفن ، وأن القرصنة لم تختص بها شعوب دون غيرها ولا عقيدة دينية دون سواها ، فالأديان السماوية نهت كلية عن نهب أموال الغير ناهيك عن استعباد الإنسان ، وبل وحضت علي أن يكون الإنسان أمنا علي نفسه وماله وولده وعرضه . وأبانت الدراسة أن عمليات القرصنة قام بها أفراد وجماعات من الرومان الوثنيين والشعوب الأوربية من المسيحيين أو من العرب والبربر والأندلسيين المسلمين ، وإن اختلف الدافع ؛ فكثير من هؤلاء وأولئك احترفوا العمل بمحض إرادتهم رغبة في الثراء السريع رغم ما يحف بهذا العمل من مخاطر ، وقليل منهم لعبت الصدفة دورها في امتهانهم هذا العمل ، حيث كانت الغنائم حافزا للاشتغال بها ، وهناك من أكره علي العمل بالقرصنة مثل الأندلسيين ، حيث كانت الظروف الصعبة ورحلة التيه هي التي فرضت عليهم القيام بأعمال قرصانية تأتي ضمن صراع الوجود ، لأنهم حال خروجهم من ديارهم لم تكن نيتهم

---

(١) المقدمة ، دار القلم بيروت ١٩٨٤م،ص٢٥٥ .

القيام بهذه الأعمال ، ومن العسف وصفهم بالمجاهدين حيث اختلطت أعمالهم بكثير من الشوائب التي أبعدتهم عن منزلة المجاهدين ، أما غزاة البحر المسلمون من برقة وجربة وبقية الساحل حتى طنجة فهم قراصنة حقيقيون منظمون تدعمهم حكوماتهم Corsair ، أما عن سبق الشعوب المسيحية في العمل بالقرصنة عن المسلمين فيرجع ذلك إلي أن ركوب البحر وصناعة السفن لديهم جزءا من حياتهم ، وعندما تمكن المسلمون من صناعة الأساطيل وركوب البحر حاكوا المسيحيين في هذا المضمار بل ونافسوهم عليه ، لكن لا يمكن مقارنة ما قام به المسلمون بما قام به القراصنة النورمان أو قراصنة المدن الإيطالية وغيرهم نتيجة فارق الخبرة البحرية ، ومن ثم فلا ضرورة لإقحام الدين في عمل القراصنة ، خاصة أن الدين لم يوفر الأمان للرهائن من القراصنة من إخوانهم أصحاب الدين نفسه .

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

ابن الأثير ، محمد بن عبد الواحد الشيبانيت٦٣٠هـ/١٢٣٢م، الكامل في التاريخ , تحقيق، أبي الفداء عبد الله القاضي ، ط٢، دار الكتب العلمية , بيروت ١٩٩٥م .

الإدريسي ، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس ت ٥٥٩هـ/١١٦٦م ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٩م

البرزلي ، أبي القاسم بن أحمد البلوي ت ٨٤١هـ/١٤٣٨م ، فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام ، تحقيق : محمد الحبيب الهيلة ، دار الغرب الإسلامي ٢٠٠٢م

البكري ، أبو عبد الله بن عبد العزيز ت٤٨٧هـ/١١٠٣م ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، مكتبة المثني بغداد ، بدون تاريخ .

البلاذري ، أبو الحسن أحمد بن يحي بن جابر ت٢٧٩هـ/١٢٢٩م فتوح البلدان ، تحقيق : عبد الله أنيس الطباع ، مؤسسة المعارف ، بيروت ١٩٨٧م .

بنيامين التطيلي ، رحلة ابن يونه الأندلسي إلي بلاد الشرق الإسلامي ٥٦١-٥٦٩هـ /١١٦٥ -١١٧٣م ، ترجمة عزرا حداد ، دار ابن زيدون ، بيروت ١٩٩٦م .

التجاني ،أبو محمد عبد الله بن محمد أحمد ت٧١٧هـ/ ، رحلة التجاني ، تقديم حسن حسني عبد الوهاب ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا تونس ١٩٨١م .

ابن جبير الأندلسي، أبي الحسن محمد بن أحمد ولد سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م ، رحلة ابن جبير ٥٦١-٥٦٩هـ ، دار الكتاب المصري اللبناني .

ابن حوقل النصيبي من كتاب النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، صورة الأرض ، منشورات دار الحياة , بيروت .

ابن حيان القرطبي ٤٦٩هـ/١٠٧٦م، المقتبس في أخبار الأندلس , السفر الخامس ، نشر شالميتا , المعهد الأسباني العربي للثقافة ، وكلية الآداب بالرباط ، مدريد ١٩٧٩م ، الجزء الثاني، تحقيق , محمود علي مكي ، الرياض ٢٠٠٣م .

الدباغ ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري ت٦٩٦هـ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، تحقيق: محمد ماضور ، المكتبة العتيقة بتونس ، مكتبة الخانجي بمصر ،١٩٧٨م.

ابن أبي دينار ،أبي عبدالله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني ت ١١١٠هـ/١٦٩٨م، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، دار المسيرة ، ط٣ بيروت ، ١٩٩٣م .

ابن رشد الجد ، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد٥٢٠هـ/١١٢٦م ، البيان والتحصيل ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٨

« « « « « المقدمات الممهدات ، دار الكتب العلمية ، بيروت٢٠٠٢م .

ابن عذارى ، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي ، توفي في القرن الثامن الهجري , البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق , ج . س كولان ، ليفي بروفنسال , الدار العربية للكتاب ط٣ بيروت ١٩٨٣م .

« « « « « « « ، البيان المغرب ، قسم الموحدين ، تحقيق:محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، دار الثقافة ، الدار البيضاء١٩٨٥م .

القاضي النعمان ت ٣٦٣هـ/٩٧٣م ، المجالس والمسايرات ، تحقيق ، الحبيب القاضي وآخرين، دار المنتظر ، بيروت ١٩٩٦م .

المالكي ، أبي بكر عبد الله بن محمد٤٣٨هـ/١٠٤٧م ، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، دار الغرب الإسلامي ، ط٢ بيروت ١٩٩٤م.

الونشريسي ، أحمد بن يحي ت٩١٤هـ/١٥٠٨م ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب ، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨١م.

ابن المجاور ، جمال الدين أبو الفتوح يوسف الشيباني الدمشقي ،٦٩٠هـ/١٢٩١م ، صفة بلاد اليمن ومكة والحجاز ، تصحيح وضبط ، اوسكر لوفجرين ، ليدن ١٩٥١م.

ثانيا : المراجع العربية والمترجمة

أحمد مختار العبّادي ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط ، مؤسسة شباب الجامعات ، الإسكندرية .

أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ،مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية.

السيد عبد العزيز سالم ، تفوق الفاطميين البحري في النصف الغربي من حوض البحر المتوسط ، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت١٩٩١م.

« « « ، تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، دار النهضة العربية ، بيروت١٩٦٩م .

« « « ، أسرات من قادة البحر الأندلسيين في العصر الإسلامي ، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة ،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩١م .

أماري ، المكتبة العربية الصقلية ، ليبسك ١٨٥٧م .

إميل لودفيغ ، البحر المتوسط ، ترجمة عادل زعيتر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٢م .

أنور عبد العليم ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، عالم المعرفة ، الكويت العدد رقم ١٣ لسنة ١٩٧٩م.

جوايتاين ، دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية ، ترجمة عطية القوصى ، وكالة المطبوعات ، الكويت ١٩٨٠ م .

جون كلود هوكت ، العلاقات البحرية والملاحية في البحر المتوسط ، ترجمة لمياء الأيوبي ، ضمن كتاب ، ابن خلدون، البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، قيام وسقوط إمبراطوريات ، مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٧م .

جيبون ، أدورد ، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ترجمة محمد علي أبو درة ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٩م .

حسن أميلي ، مسألة الجهاد البحري بين القرصنة ولصوصية البحر ، البحر في تاريخ المغرب، جامعة الحسن الثاني – المحمدية ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، سلسلة ندوات رقم ٧.

حسن حسني عبد الوهاب ، وقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، مكتبة المنار ، تونس ١٩٨١م .

حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر المتوسط إلي الحروب الصليبية ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، م٤ لسنة١٩٥٢م.

داود أبو العافية ، دور التجارة في الاتصال الإسلامي المسيحي خلال العصور الوسطي ' ضمن كتاب التأثير العربي في أوربا ، تحرير ، ديونيسيوس آجيوس ، ريتشارد هيتشكوك ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ١٩٩٩م.

سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، منشأة المعارف ، الإسكندرية .

دوزي ، المسلمون في الأندلس ، ترجمة : حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م .

شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، دار الحياة ، بيروت ١٩٦٦م .

شوقي أبو خليل ، ذات الصواري ، دار الفكر المعاصر،دمشق ٢٠٠١م .

صابر دياب ،دراسات في العلاقات بين المدن الإيطالية والدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط بين القرنيين العاشر والثاني عشر الميلاديين ، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ، العدد الرابع ، ١٩٧٣م .

طرخان ، إبراهيم علي ،المسلمون في أوربا في العصور الوسطي ، مؤسسة سجل العرب ١٩٦٦م .

فازيلييف ، العرب والروم ، ترجمة ، محمد عبد الهادي شعيرة ، دار الفكر العربي ، القاهرة.

عبادة كحيلة ، أنـدلسيات ، ط٢ ، القاهرة ٢٠٠١م

عبد الرحمن بشير ، العلاقات التجارية بين إفريقية وجنوبي إيطاليا وصقلية ، القرن الثالث الهجري- التاسع الميلادي ، مجلة كلية الآداب جامعة الزقازيق ، دراسات خاصة ، فبراير ٢٠٠٢م.

عبد الرحمن بشير ، اليهود في المغرب العربي ،دار عين للدراسات والبحوث , القاهرة ٢٠٠١م.

عصام سالم سيسالم ، جزر الأندلس المنسية ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٤م .

لويس ارشيبالد ، القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة ، أحمد محمد عيسي ، القاهرة ١٩٦٠م .

ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة عبد العزيز سالم ، الإسكندرية ١٩٩٠م .

محمد مرسي الشيخ ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨١م .

محمد السماك ، المسلمون علي جبال الألب ،

http://www.weghatnazar.com/article/article_details.

محمد بن معمر ، قراءة في مخطوط تاريخ ميورقة لأبي عمير المخزومي ، مجلة التراث العربي، دمشق ، العدد ٩٨لسنة ٢٠٠٥م .

محمود إسماعيل ، الأغالبة ، مكتبة وراقة الجامعة ، فاس ١٩٧٨م .

ممدوح حسين ، الحروب الصليبية في شمال أفريقية ، دار عمار ، عمان الأردن ١٩٩٨م.

هايد ، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى ، ترجمة ، أحمد محمد رضا ، القاهرة ١٩٨٥م .

هيو كينيدي ، الفتوح العربية الكبرى ، ترجمة : قاسم عبده قاسم ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ٢٠٠٨م .

ثالثا : المراجع الأجنبية

Bernard the wise ، the voyage of Bernard the wise، in Early travels in Palestine،ed. by Thomas Wright، London 1848.

Ben Sasson، Italy and Ifriqia from the ninth to the eleventh century ، in

« Les Relation Intercommunautaires Juives en Mediterranee Occidentale، x111e-xxe siecles، Paris، 1982.

- Cowdrey، H.، E.، J.، The Mahdia campaign of 1087 , The English Historical Review، no. CCCLXII، 1977.

Citarella ، Armand، o.، The relations of Amalfi with the Arab world before the Crusades ، speculum 42 1967.

Ellen Churchill Semple، Pirate coasts of the Mediterranean sea The Geographical Review II1916،.

The Encyclopedia of Islam، New Edition، Leiden1986،.

Francesco Gabrieli، Greeks and Arabs in the central Mediterranean area، Dumbarton Oaks Papers، vol.18 1964.

Goitein, Mediterranean society, Jewish communities of Arab world as partrayed in documents of the Cairo Geniza 969-1250, University of California.

Goitien، letters of Medieval Jewish Trade، Princeton University Press1973.

Henry A. Ormerod، Piracy in the Ancient World، Liverpool1924،.

khalilieh، Islamic maritime law, Brill1998.

Khalilieh، the RIBAT system and its role in coastal navigation، JESHO 421999 2،.

Krueger،H.C، The Italian Cities and Arabs before 1095،in a history of crusades vol.1،ed .by setton،K.،philadelphia1955.

Mann، Jacob، The Responsa of the Babylonian Geonim as A source of the Jewish history، J.Q.R 91918-19،.

Pryor، Geography، technology، and war studies in the maritime history of the Mediterranean 649-1571،Cambridge un.1992.

Starr، Chester G.، ، Coastal defense in the Roman world، ، American Journal of Philology no. 2531943.

Talbi m., Law and Economic in Ifriqiya Tunisia in the Third Islamic ce - tury, in the Medieval city, Ed. By Udovitch and others, London 1977

(٣)

فراكسينيتوم ٢٧٦-٣٦٢هـ/٨٨٩-٩٧٢م

والحضور المغاربي جنوبي فرنسا

تتناول الدراسة فترة مبكرة من الاستيطان الإسلامي علي التراب الفرنسي اكتنفها الغموض امتدت لأكثر من ثمانين عاما فرضت خلالها القوي الإسلامية سيطرتها علي مناطق واسعة من الجنوب الفرنسي وأقامت حياة مستقرة في إقليم البروفانس، وتوغلت باتجاه الشمال، وتحكمت في مسارات المرور من الغرب الأوربي إلي إيطاليا بفرض سلطانها علي ممرات جبال الألب .هذا الحضور الذي استمر لأكثر من جيلين لم نجد له صدي واسع في المظان العربية، ويرجع ذلك إلي ندرة الآثار التي خلفها المسلمون فضلا عن عزلة المنطقة وصعوبة الوصول إليها .

الوحيد من كتاب الأندلس الذي أشار إلي بعضا من تاريخ المنطقة في مقتبسه هو ابن حيان، حيث رصد فترات الصراع الأولي وبعض الغزوات البحرية علي السواحل الجنوبية لفرنسا ، علاوة علي تطرقه لمنطقة تدعي فرخشنيط التي اعتقد الباحثون من بعده أنها تعريب لفراكسينيتوم دون الخوض في تفاصيل المكان والسكان، مما أطلق العنان للمحدثين في التخمين وإصدار أحكام دون توثيق علي هوية المسلمين في المنطقة ومرجعيتهم السياسية .

أما بقية المظان العربية التي أشارت إلي المنطقة فهي مصادر جغرافية بامتياز ترجع إلي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، وعاصر مؤلفوها الفترة التاريخية محل الدراسة ، أولهم الأصطخري ت ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م في كتابه المسالك والممالك، وثانيهم ابن حوقل المتوفي بعد سنة ٣٦٧هـ/ ٩٨٨م في كتابه صورة الأرض ، وثالثهم مؤرخ فارسي مجهول صاحب كتاب حدود العالم كتبه سنة ٣٧٢هـ/٩٨٢م ، الثلاثة أشاروا إلي فراكسينيتوم باعتبارها جبل يدعي جبل القلال ، والمادة التاريخية في المصادر الثلاثة تكاد تكون واحدة ، ولا تزيد عن ثلاثة أسطر ؛ مما يدل علي أن المصدر الذي استقي منه الجغرافيون الثلاثة واحد ، الزيادة الوحيدة كانت عند ابن حوقل برسمه خريطة لجبل القلال باعتباره جزيرة خلافا للواقع مما يدل علي أن ما نقل لهم عن المكان لم يكن دقيقا وإن كان يمثل الرؤية الإسلامية التي لا غني عنها .

لذلك حاولت الدراسة الرجوع إلي المصادر الأصلية مترجمة من اللاتنية إلي الإنجليزية والفرنسية مثل حوليات القديس برتن ، وحوليات دير نوفاليس وغيرها من الحوليات الديرية ، ورحلة الأسقف ليو تبراند أسقف كرمونا "Liutprand of Cremona " ٩٢٠-٩٧٢م التي قام بها إلي القسطنطينية كسفير للأمبراطور أوتو الأول " "Otto 1 Great ملك ألمانيا ٩٣٦-٩٦٢م إلي الأمبراطور نقفور فوقاس الثاني ٩٦٣-٩٦٩م في عام ٩٦٨م التي تعتبر من أهم المصادر للتأريخ لفراكسينيتوم ، حيث عاصر هذا الأسقف استيطان المسلمين في المنطقة فترة تقترب من نصف قرن، ووصفهم بأنهم مغاربة، واجتاز المناطق التي سيطروا عليها خلال رحلاته إلي القسطنطينية، وسمع ما كان يتردد من حكايات عن وصولهم إلي فراكسينيتوم ورصد مادار من صراعات بينهم وبين الفرنجة.

رجعت الدراسة أيضا إلي عدد من المصادر الثانوية التي مثلت إضافة للدراسة مثل رسالة الأسقف مايولوس "Maiolus" مقدم دير كولوني الذي أسره المسلمون علي ممر سان برنار في غرب جبال الألب ، وهي الرسالة التي حرضت رجال الدين والعامة ضد المسلمين في المنطقة ، وكانت بداية النهاية لوجودهم في نفس العام ، حيث جيشت الجيوش لطرد المسلمين ، ومع أنها رسالة تلغرافية صغيرة لكن مضامينها كبيرة .

أولا :الساحل والابحار- الغزوات التمهيدية

يمتد ساحل المتوسط المحاذي لجنوب فرنسا من ميناء برشلونه في الجزء الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة الأيبيرية حتي جنوة في أقصي الشمال الغربي لإيطاليا ؛ وهو ساحل صخري خاصة في المناطق التي تمتد من مرسيليا حتى إيطاليا ، حيث يحتوي علي مئات من القمم الجبلية الصخرية جبال الألب التي يزيد ارتفاعها عن ٣٠٠٠متر عن سطح البحر، وتظهر هذه القمم بوضوح من عرض البحر [١]، وتشارك الهضبة الوسطي جبال الألب في إطلالتها علي السهل الساحلي للمتوسط[٢]، هذه التضاريس جعلت منطقة الساحل الفرنسي من برشلونة حتى جنوة يخلو من

---

(1) Pryor, John H., Geography, and war, studies in the maritime history of the Mediterranean 649-1571,Cambridge university,1992,p.21.

(٢) موسوعة المعرفة http://www.marefa.org/index.php-

موانيء ذات قيمة سوي مارسيليا [١] ، الأمر الذي جعل المنطقة مسرحا لعمليات المسلمين البحرية انطلاقا من الموانى الأندلسية منذ بداية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي.

أما ميناءا آرل" Arles " وأربونة " Narbonne "اللذان يقعان بين برشلونة ومرسيليا فهما من الموانى الداخلية ، فأولها ميناء نهري متصل بالبحر عن طريق دلتا الرون[٢]، أما الثاني فتدخل إليه السفن من المتوسط عن طريق المستنقعات المحيطة به من كل جانب[٣]، ومن ثم خلت منطقة الساحل من العمران مما سهل علي الحضور الإسلامي، حيث شهد الساحل الفرنسي بموانئه ظاهرة الغزوات البحرية الإسلامية، أو جهاد البحر كما يطلق عليه المؤرخون المسلمون عن طريق الغارات البحرية الهجومية القادمة من الأندلس، واتخذ المسلمون ميناء أربونة قاعدة للعمليات البحرية الأندلسية للهجوم علي الساحل الفرنجي ولمدة أربعين سنة تقريبا [٤] حتي خرجوا منها سنة ١٤٢هـ/٧٥٩م [٥].

يتوقف الإبحار علي طول هذا الساحل في الشتاء بسبب الطقس السيء، حيث تهب ريح المسترال من جبال الألب علي وادي الرون ثم علي ساحل مرسيليا وينشأ عن اصطدامه بالريح الحارة والفاترة الآتية من البحر عواصف عاتية [٦]، ويصاحب ذلك تزايد الضباب الذي يحجب الرؤية بالنسبة للملاحة الشاطئية[٧]، فإذا داهمت هذه الفترة البحارة المسلمين وهم في مناطق الغزو؛ لجأوا

---

(1) Pryor, John H., Geography, and war,op.cit,p.21

(2) SEMPLE,Ellen Churchill, "The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin and Its Northern Breaches as Factors in History", Annals of the Association of American Geographers , Vol. 5 1915p.58

(٣) جوزيف رينو ، الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا في القرن الثامن والتاسع والعاشر الميلادي ، ترجمة: إسماعيل العربي ، دار الحداثة بيروت بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية ،ط١ ١٩٨٤م ، ص٥٠.

(٤) رينو ، الفتوحات ، ص٩٤ .أرسلان ، شكيب، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، دار الحياة ، بيروت ١٩٦٦م ، ص٥٨ .طرخان ، إبراهيم علي ، المسلمون في أوربا في العصور الوسطي، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ١٩٦٦مص١٦٨.

(٥) رينو : الفتوحات ، ص٩٤ .

(٦) إميل لودفيغ ، البحر التوسط ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠١٠م ، ص٦٠.

(7) Pryor, Geography, and war , , op.cit,pp.87,89.

إلي الخلجان الكثيرة كثيفة الأشجار [١] والجزر غير المأهولة، وكمنوا فيها حتى تتحسن الظروف، وعادة ما تنشط الملاحة علي هذه السواحل في الفترة من أبريل حتى سبتمبر [٢].

ساعدت الظروف الطبيعية مراكب الأندلسيين الصغيرة في الوصول بسهولة إلي مناطق ساحل جنوبي فرنسا بإمكانيات محدودة من خلال المسارات البحرية الضيقة المحاذية للشاطيء، التي لا تحتاج إلي مراكب كبيرة كالتي تبحر في عرض البحر؛ إذ أن الملاحة بالقرب من الساحل المساحلة توفر رحلة أمنة؛ وتبحر المراكب بمحاذاة الساحل بين نقاط مرئية في وضح النهار ، وشكلت هذه الملاحة الوجه الغالب علي نشاطات الابحار في المتوسط خلال أزمنة طويلة [٣].

لم تتوقف عمليات غزو البحريين الأندلسيين للساحل الفرنسي منذ بداية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي تحت ستار الجهاد التي انطلقت من الأندلس، وترصد الحوليات الديرية تواجدا مستمرا للمسلمين في المنطقة، ثم طور المسلمون من هجماتهم في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي؛ فهاجموا مارسيليا وإيطاليا؛ وغزا أسطول قادم من طركونة "Tarragone" ميناء مارسيليا سنة٢٢٤هـ/ ٨٣٨م [٤] بدعم من جزر البليار[٥]، وخربوه وسبوا الراهبات، وأسروا رجال الدين وغيرهم من المدنيين، ونهبوا ثروات الكنائس هناك [٦]، كما وصلت مراكب المسلمين غربي إيطاليا في ٢٧ أغسطس ٨٤٦م/ ٢٣٢هـ [٧]، وتكشف حوليات القديس برتن [٨] عن تعاون بين البحريين المغاربة المور القادمين من إفريقية وبين البحريين الأندلسيين في هجومهم علي روما

---

(1) Pryor, John H., Geography, and war, op.cit ,p.21.

(2).Ganshof, F.l, " notes sur les ports de provence du v111e au xe siècle" , revue historique 183, 1938.,p.34

(٣) فرنان بروديل ، المتوسط والعالم المتوسطي ، ترجمة واختصار ، مروان أبي سمرا ، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٩٣م ، ص٣٥ .

(4) .Ganshof, notes sur les ports de provence, , op.cit ,p.32.

(٥) لويس ، القوي البحرية ، ص٢٣٠.

(6) Annals of ST- Bertin, ninth-century histories, volume 1 ,Translated and annotated by Janet L. Nelson, Manchester University 1981 ,p.59.

(7) The Annals of Fulda: Ninth-century Histories, Translated by Timothy Reuter , Ma - chester University 1992,p.26.

(8) Annals of ST- Bertin,p.65.

سنة٢٣٢هـ/ ٨٤٦م؛ حيث دخلوا نهر التيبر في غربي إيطاليا ووصلوا إلي روما سويا، ويؤكد تواصل غزو المسلمين للمنطقة ما أوردته في أحداث سنة٢٣٥هـ/ ٨٤٩م بقولها "مازالت البحرية الأندلسية تواصل تخريبها لسواحل البروفانس" (١)

هاجم البحريون الأندلسيون المغاربة "Les Maures"، ميناء آرل سنة٢٣٦هـ/ ٨٥٠م، واستمرت إقامة المسلمين في منطقة دلتا الرون بصفة شبه دائمة، واتخذو من جزيرة كاماراج " camargue" التي تقع جنوب آرل مقرا لهم (٢)، وتقدموا بعيدا عن الساحل حتى مدينة ماجلون التي اندثرت بعد ذلك، حيث عثر علي بعض الآثار التي تؤكد وصولهم المدينة؛ مما اضطر شارل الأصلع زعيم الفرنجة آنذاك علي توقيع صلح مهين معهم عام ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م أتاح لسكان هذه المنطقة بعض الراحة من غارات المسلمين (٣)، ويصف برتن (٤) المهاجمين بأنهم مغاربة "Les Maures"، قادمين من الأندلس، ومعلوم أن مؤرخي البحر المتوسط وغيرهم من الأوربيين اطلقوا لقب المغاربة "Moors-Maures" علي ذرية الأمازيغ الذين تألف منهم جيش طارق بن زياد في فتح شبه الجزيرة الأيبيرية (٥).

تعرض دير سانت سيزر Saint-Césaire" "حسب حوليات برتن في سنة٢٥٦هـ/ ٨٦٩م لتخريب المغاربة المستقرين في جزيرة كماراج التي اتخذها الدير ميناءا له يجلب منه معظم احتياجاته؛ وهاجم المسلمون المغاربة الدير وتصدي لهم رولاند رئيس اساقفة آرل، وتقول الحولية أن المسلمين اشتبكوا معه " بتهور وقتلوا من رجاله ٣٠٠ واعتقلوا رئيس الأساقفة الأسقف رولاند، واقتيد إلي مراكب المغاربة المسلمين مقيدا بالسلاسل، وطالب المغاربة فديته بـ ١٥٠ جنيها من

---

(1) ANNALES DE SAINT-BERTIN. - ANNALES DE METZ 840-868dans collection Des memoires A l, Histoire De France , M. Guizot, Paris 1824, remacle.org/bloodwolf/hist - riens/anonyme/annales.htm , événements849 .

(٢) حسين مؤنس ،" المسلمون في حوض البحر المتوسط إلي الحروب الصليبية " ، مجلة الجمعية ا لمصرية للدراسات التاريخية ، مجلد ٤ لسنة ١٩٥٢م ،ص١٢٩ ؛ Ganshof, "notes sur les ports de provence",, op.cit ,p.32

(٣) لويس ارشيبالد ، القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة : أحمد محمد عيسي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٠م ، ص٢٣٠

(4) ANNALES DE SAINT-BERTIN - ANNALES DE METZ, événements 850.

(٥) لودفيج ، البحر المتوسط ، ص٤٢٤ .

الفضة و١٥٠ من المعاطف و١٥٠ من السيوف الكبيرة و١٥٠ من العبيد، بيد أن الأسقف مات علي مراكبهم في ١٩ سبتمبر قبل وصول الفدية. استلم المغاربة الفدية وألبسوا جثة الأسقف ثيابه الكنسية وأوصلوه إلي الشاطيء، وعند استلامه عرف أتباعه أنه فارق الحياة؛ فحملوه بحزن كبير ودفن في ٢٢ سبتمبر في قبره الذي كان قد أعده بنفسه " [١]، ثم تخلى المسلمون المغاربة عن قاعدتهم في كاماراج في نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وتحول اهتمامهم شرقا مما مهد لنزولهم علي ساحل البروفانس في فراكسينيتوم.

ضعفت الدفاعات البحرية الفرنجية بعد انقسام الإمبراطورية على أثر الحرب الأهلية في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي مما ساعد الأندلسيون علي تثبيت وجودهم في منطقة الساحل [٢]، فضلا عن نمو طبقة ارستقراطية جديدة في الأقاليم الفرنسية مما أدي إلي نوع من الاستقلال السياسي لهذه الأقاليم ؛ وتسبب في تدهور السلطة المركزية[٣]؛ فبعد وفاة شارل الأصلع زعيم الفرنجة سنة٢٧٥هـ/ ٨٨٨م اشتعل الصراع بين شارل البسيط ممثل الأسرة الكارلونجية وأودو كونت باريس وامتدت حتى وفاة أودو سنة٢٨٥هـ/ ٨٩٨م [٤]، وخلال تلك الفترة أعلن ثائر يدعي بوزو Boso في الجنوب الخروج عن السلطة الفرنجية، وأعلن استقلاله سنة٢٦٦هـ/ ٨٧٩م وغلب علي ولايتي دوفنيه وبروفانس، ولقب نفسه بملك آرل، وتصدي له بعض الطامعين في السلطة في غاليسيا واندلعت بينهم حروب أهلية في مستهل العقد الأخير من القرن التاسع م [٥].

يؤكد ذلك ما رصده ليو تبراند [٦] حالة الصراعات السياسية في المنطقة والتي ساعدت

---

(1) ANNALES DE SAINT-BERTIN - ANNALES DE METZ, événements , 869

يري لويس ارشبيالد أن هناك تضارب وخلط بين قراصنة المسلمين والفايكنج وسيطرتهم علي جزيرة كماراج لكن برتن بورد حادثة أسر الأسقف رولان في أحداث سنة ٨٦٩م أما لويس فينسبها إلي سنة ٨٦٠م راجع ، القوي البحرية ص ٢٣٠ ، ٢٨١

(2) Ballan Mohammad, "Fraxinetum: an Islamic frontier state in tenth-century Provence", Journal of Medieval and Renaissance Studies,vol.412010 p.49

(٣) كانتور . نورمان ، التاريخ الوسيط ، ترجمة : قاسم عبده قاسم ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤م ، ٢ص ٢٦٨ .

(٤) محمد مرسي الشيخ ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨١م، ص١٨٩ .

(٥) محمد الشيخ ، دولة الفرنجة ، ص١٨٧-١٨٨ .

(6) Liudprand, the work of Liudprand of Cremona ,translated by F.A.Wright, London 1930 ,p.34.

المسلمين علي توطيد سلطانهم بها فيقول : "في هذه الأثناء كان ينتاب سكان البروفانس حالة من الانغلاق والتحاسد والغيرة المتبادلة، حيث أدت إلي تقطيع رقاب بعضهم البعض، ونهب ثروات البعض الآخر، وتبادل كل أنواع الأذي التي يمكن تصورها؛ لذلك فصيل واحد كان غير قادر بنفسه في ظل ظاهرة الاستياء المتبادلة والغيرة علي التخلص من المسلمين، الذين كانوا أشد مكرا ودهاء في انسجامهم مع بعضهم البعض في القضاء علي جيرانهم، فلم يكتفوا بالقتل فقط، وإنما حولوا الأرض الخصبة إلي صحراء، لكن دعنا نري ماذا فعل بهم حسدهم ".

ثانيا : هبوط المغاربة علي ساحل خليج سان تروبيز

هبط المغاربة في هذه الأثناء المضطربة سياسيا في فرنسا علي ساحل خليج سان تروبيز في البروفانس جنوبي فرنسا في منطقة تمثل نتوءا يفصل بين البحر اللورجي وخليج ليون، وتقع شرق مرسيليا بأكثر من ثمانين ميلا، وتتبع الآن منطقة الريفيرا الفرنسية، وأطلق المسلمون علي المنطقة اسم فراكسينيتوم "fraxinetum "؛ وهي كلمة لاتينية تعني شجر الدردار الذي كان منتشرا في المنطقة في ذلك الوقت، ويبدو حسب رأي بوش صاحب كتاب تاريخ بروفانس أن العرب قد أطلقوا أسم فراكسينيتوم علي كل الحصون التي شيدوها بعد ذلك في المنطقة [١]، حيث صارت هذه التسمية مصطلحا لوصف كل أماكن الاستيطان الإسلامي في المنطقة [٢].

وينفرد الأسقف ليو تبراند [٣] بوصف نزولهم، حيث تتحدث الرواية اللاتنية عن مجموعة من القراصنة المغاربة القادمين من الأندلس علي ظهر مركب صغير لايتجاوز عددهم عشرين شخصا

---

(١) نقلا عن رينو ، فتوحات ، ص١٥٤ .

(2) Kees versteegh , "the Arab presence in France and Switzerland in the 10 th century" , Arabica, tome xxxv11,1990 p.360.

(٣) قام الأسقف بسفارة إلي القسطنطينية مبعوثا من أوتو الكبير ملك ألمانيا وأمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ٩٦٢-٩٧٣م إلي الأمبراطور نقفور فوقاس الثاني ٩٦٣-٩٦٩م إمبراطور الدولة البيزنطية ، ويرجع إلمامه بالمنطقة وتضاريسها كونه كان شماسا في الكنيسة خدم في بلاط هيو البروفنسالي ٩٢٦-٩٤٩ وفي بلاط خليفته برنجار الثاني ٩٥٠-٩٦١م قبل أن يترك الأخير وينتقل لخدمة أوتو الكبير ، راجع ، علي أحمد السيد ، صفحة من العلاقات الدبلوماسية الألمانية البيزنطية ، الدار المصرية ، الإسكندرية ١٩٩٩م ، ٧، ٨، ٩

اضطرتهم الرياح العكسية عنوة إلي الجنوح إلي خليج سان تروبيز، ويري البعض [١] أن المنطقة لم تكن هدفهم، والصدفة وحدها هي التي أرغمتهم علي النزول إلي الشاطيء بسبب الحادث المناخي العارض، لكنهم وجدوا فيها مبتغاهم ، وبدؤا في التجول فيها ،فلما وصلوا إلي القمم الجبلية التي تشرف علي خليج سانت تروبيز من جهة الشمال، وتطل علي جبال الألب من جهة أخري أدركوا علي الفور مدي ملائمة المنطقة لاستقرارهم؛ فالبحر مفتوح أمامهم لتلقي الامدادات والنجدات، بينما يوفر لهم البر منفذا إلي النواحي التي يزمعون الأغارة عليها ، أما الغابة فتصلح ملجأ لهم عند الاضطرار [٢].

تقول رواية ليو تبراند " نزل هؤلاء القراصنة في ليلة محزنة تحت جنح الظلام ودخلوا إلي قرية خلسة، وقتلوا للأسف سكانها المسيحيين، ثم استولوا بعد ذلك علي المكان وأصبح ملكا لهم، واتخذوا من جبل المور المجاور لهم حصنا ضد هجمات جيرانهم " [٣].

ومع أن هذه الرواية وحيدة ومتحيزة فلا مفر من الاعتماد عليها مثلما اعتمد عليها الكتاب الغربيون والعرب، لكن اختبار الرواية وإخضاعها للعقل يجعلنا نتشكك في أعداد المسلمين الآوائل الذين أسسوا مجتمع فراكسينيتوم خاصة أن الراوي ليو تبراند ٩٢٠-٩٧٢م لم يكن معاصرا لحادثة النزول علي ساحل خليج سانتروبيز، وتبدو هذه الرواية منقولة بالسماع من سكان المنطقة بكل ما فيها من تحيز، أستمع إليها ليوتبراند عندما مر بها سنة ٩٦٨م، كما أن الناقل غير محايد، ففضلا عن كونه من سكان إقليم بروفانس فهو رجل دين متحيز لدينه .

لذلك هناك شكوك حول أعداد الرواد الآوائل الذين نزلوا فراكسينيتوم؛ فالرواية تحاول التقليل من عددهم، فلا يمكن لمجموعة صغيرة لا تزيد عن عشرين شخصا أن تقيم كيانا وتدافع عنه، ثم تطوير هجماتها في المنطقة [٤] ولمدة طويلة تتجاوز عدة شهور حالما تصل الرسالة ويأتي الرفاق، وبالرجوع إلي حوليات برتن نجد أن قوافل المسلمين البحرية الخاصة التي ترددت علي المنطقة خلال

---

(1) Manfred W. Wenner," the Arab-Muslim presence in medieval central Europe", Journal of middle east studies,12 1980 p.62

(٢) رينو ، الفتوحات ، ص١٥٢-١٥٣ .

(3) Liudprand, the work of Liudprand ,p.33.

(٤) الفتوحات ، ص١٥١ .

تلك الفترة لاتقل عن ١٥٠ فردا، وذلك خلال أحداث قريبة زمنيا تعود لسنة ٨٦٩م [١]، لا يفصل بين الهجومين غير عشرين سنة.

أما التحقير من شأنهم باعتبارهم مجموعة صغيرة من القراصنة جاءوا لمهمة عارضة؛ أي السلب والنهب، ثم الإنصراف بعد انتهاء مهمتهم فإن هذه المقولة فيها نظر ، فالمعلوم أن أهداف القراصنة من الأعتداء علي السواحل هو الغنيمة، ثم العودة من حيث أتوا وليس الاستقرار [٢]، وحسب وجهة نظرة ليو تبراند [٣] فإنه يعتبر هؤلاء المسلمين عقابا عابرا للمنطقة هبط عليهم من السماء مثلهم مثل المغيرين علي بلاده من النورمانديين والمجريين، ولا يعتبرهم أصحاب رسالة أو رؤية يدافعون عنها باستمرار؛ بل يعتبرهم أدوات للقصاص الإلهي هدفهم التخريب والدمار بكل الأماكن التي يمرون بها.

وبالرد علي ليو تبراند وبغض النظر عن جلد الذات باعتبار هؤلاء النزلاء عقابا من السماء علي تقصير بني دينه، فإن التوصيف الذي أطلقه علي هذه المجموعة اعتوره التعصب الديني والعرقي بدليل أن المسلمين نزلوا إلي الساحل واستقروا في المنطقة، وأقام البعض منهم مجتمعات زراعية مستقرة؛ فمن لحظة هبوطهم بادروا إلي إقامة كيان وحمايته، وفي هذه اللحظة لا يمكن التفتيش في نواياهم لكن الحكم عليهم يكون بعد فترة من إقامتهم للنظر إلي ما اسفر عنه هذه الاستيطان، مما يدعو إلي التساءول هل كان خروجهم من الأندلس بهدف الغزو ونشر الإسلام، أم لأسباب سياسية ، أم كانوا فعلا قراصنة.

اجاب الكتاب المسلمون علي ذلك في توصيفهم لمسلمي فراكسينيتوم باعتبارهم مجاهدين أصحاب رسالة [٤]، وهو حكم عام أيضا يفتقر إلي الدقة في ظل استقلال تلك المجموعة التي تعمل لحسابها الخاص لا تحت راية حكام الأندلس، وربما كان خروجهم من الأندلس تحت ضغط سياسي في رحلة هروب إلي الأمام، وهو ما يقدم الدوافع الاقتصادية علي الدوافع الدينية عند

---

(1) ANNALES DE SAINT-BERTIN, événements.

(٢) حسن أميلي ،" مسألة الجهاد البحري بين القرصنة ولصوصية البحر البحر في تاريخ المغرب "، جامعة الحسن الثاني – المحمدية ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، سلسلة ندوات رقم ٧، ص١١٤.

(3) the work of Liudprand ,p.33,

(٤) انظر ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، دار صادر ، بيروت طبعة مصورة عن ليدن ١٩٣٨م ص٢٠٤ .

المحاربين في فراكسينيتوم، فيبدوا أن من أسباب تركهم الأندلس والبحث عن مكان أخر ترجع إلي طبيعتهم كشعب بدوي يرفض الظلم والهضيمة، ويمقت التهميش، ويعشق الحرية ، ويتضح ذلك من خلال الفتح العربي لبلاد المغرب الذي استمر سبعة عقود ، ثم ثورتهم علي العرب سنة ١٢٢هـ/٧٣٩م وإصرارهم علي أن يكونوا أندادا للعرب، ولما نزحت منهم بطون إلي الأندلس حملوا معهم عاداتهم وتقاليدهم وثاروا علي الأمير الحكم الربضي سنة ٢٠٢ هـ/ ٨١٧ م[١]، وكان من أهم أسباب ثورتهم التفرقة العنصرية وتعصب الأمراء الأمويين للعرب [٢]، وكان من نتائجها هجرة جماعية من الأندلس إلي فاس والاسكندرية [٣]

تدلل تلك الأمثلة السابقة علي وعي بطون القبائل المغربية بقضايا العدل الحرية وتبرمهم من السلطة المركزية الصارمة التى اتبعها الحكم الربضي ومن بعده عبد الرحمن الأوسط وظلوا يتحينون فرصة ضعف السلطة التي لاحت زمن حكم الأمير محمد بن عبد الرحمن ٢٣٨-٢٧٣هـ/ ٨٥٢-٨٨٦م والأمير عبد الله بن محمد ٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م للنزوح إلي أماكن تحقق لهم نوعا من السيادة والاستقلال في جنوبي فرنسا، واضعين في اعتبارهم النجاح الذي حققه من سبقوهم إلي المنطقة منذ سنة ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م [٤] .

يستغرب الأسقف ليو تبراند من الطريقة التي اقتحم بها المسلمون المنطقة ويرجعها إلي حكم الله تعالي [٥]، ويصف طبيعة المكان فيقول " أنها محاطة من البحر من جهة واحدة ، وباقي الجهات مغلقة بأشجار الصبار المتشابكة ، وإذا أراد شخص ما التورط بالدخول سوف تعيقه أشجار العليق المتشابكة حول نبات الصبار، ناهيك عن الأضرار التي تنتج من أشواك الصبار نفسها، لذلك ينتهي به المطاف إلي التردد لأنها مهمة صعبة ، حيث تنقطع به السبل ولايستطيع أن يتقدم، أو يعود من حيث أتي " [٦] .

---

(١) ابن حيان ، المقتبس ،تحقيق : محمود علي مكي ،مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية ، الرياض ٢٠٠٣م ٢ص١٢٣، ١٢٧، ١٤٠-١٤٢.

(٢) محمد خالد مصطفي المؤمني ،" الصراع بين الدين والدولة في عصر الحكم الربضي" ، دراسات العلوم الانسانية الاجتماعية الجامعة الأردنية م٣٦، العدد ٣ لعام ٢٠٠٩م.

(٣) أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، ص١٣٠.

(4) ANNALES DE SAINT-BERTIN - ANNALES DE METZ, événements 850 .

(5) Liudprand, the work of Liudprand ,p.33.

(6) Ibidem.

كان المسلمون المغاربة علي قدر التحدي وجعلوا من هذه المعوقات والصعوبات ميزة لهم تحصنهم ضد أي هجوم " ولزيادة حمايتهم دعموا نمو أشجار الصبار؛ فصارت أطول وأكبر مما كانت، وأصبحت فروعها مثل السيف الحاد، وبالنهاية كانت كل محاولات الوصول إلي الجبل الذي تحصنوا فيه اصبحت مستحيلة إلا من طريق ضيق جدا " [١] ، وتؤكد حوليات دير نوفاليس علي قول ليو تبراند بأن المكان منيعا حصينا في فراكستنيوم ومحاطا بالغابات، ومن الصعوبة بمكان اقتحامه [٢]، وبالتالي اختار هؤلاء الرجال المكان الصحيح المحصن لاستقرارهم في أطراف الدولة مستغلين الصراع علي السلطة بين المتمردين في الإقليم والسلطة المركزية، ويتفق ذلك مع رأي برووديل [٣] عندما يقول " يلجأ رجال العصابات إلي الجبال والمناطق الحدودية ، حيث تضعف سلطة الدولة ".

ومع أن المصادر اللاتينية وفرت معلومات مفصلة عن فراكسينيتوم فإن المصادر الجغرافية الإسلامية تؤكد أيضا علي مناعة المنطقة وصعوبة الوصول إليها ، حيث يؤكد جغرافي ورحالة فارسي مجهول قريب عهد بالوجود الإسلامي في المنطقة صنف كتابه سنة ٣٧٢هـ/٩٨٢م علي شدة حصانة فراكستنيوم " لأنهم يسكنون في وجه الجبل ... لا يستطع أحد الوصول إلي قمته من شدة إرتفاعه " [٤] ويتفق معه جغرافي ثان فيقول :" فلا طريق إليهم ولا متسلق عليهم إلا من جهة هم منها آمنون " [٥] أما الثالث فيقول : " وصاروا في وجوه الافرنج لايقدر عليهم لامتناع مواضعهم " [٦].

تتقارب المصادر اللاتنية فيما بينها في تحديد وبيان موقع فراكسينيتوم الحقيقي؛ فعلى سبيل المثال فإن وثائق دير نوفاليس تصف فراكسينيتوم بأنها مكان علي حافة البحر في إقليم بروفانس

---

(1) Liudprand, the work of Liudprand , ,p.33,34.

(2) Pertz, Georgius Heinricus , chronicon Novaliciense, Hannoverae 1846,p58.

(٣) المتوسط والعالم المتوسطي ، ص١٣٣.

(٤) مجهول ، كتبه سنة ٣٧٢هـ ، حدود العالم من المشرق إلي المغرب ، تحقيق : يوسف الهادي ، دار الثقافة للنشر ، القاهرة ١٩٩٩م ، ص٢١.

(٥) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٢٠٤

(٦) الاصطخري ، المسالك والممالك ، To PDF: www.al-mostafa.com ، ص٣٤ .

بالقرب من آرل [١]، أما ليو تبراند[٢] فيقول : "هو مكان كما يعلم الجميع أنه يقع علي الحدود بين إيطاليا والبروفانس "، وتؤكد الدراسات الحديثة بأن فراكسينيتوم تقع علي اليابسة علي موقع قرية حالية تسمي جارد فرنيه ، حيث تقع القرية عند سفح الجبل الأكثر توغلا في اتجاه جبال الألب [٣]

أما ابن حوقل فيصورها علي خريطة البحر المتوسط وجنوبي أوربا بأنها جزيرة تقع بين غاليسيا وجزر البليار [٤] خلافا للواقع، أماالرحالة الفارسي المجهول [٥] فيقول : أن جبل القلال فراكسينيتوم هو " جبل مسكون على المتوسط على مقربة من شبه الجزيرة الإيطالية " ، هذه الطروحات المتباينة للجغرافيين المسلمين تحمل معاني مختلفة تماماً، وتطلق العنان لكل باحث في تفسير وتحديد المكان حسب قناعات مختلفة في ظل جهل جغرافي لمنطقة معزولة نسبيا بفعل الطبيعة وبعيدة المنال عنهم، فضلا عن ندرة الآثار التي تركها المسلمون في المكان.

ثالثا : فراكسينيتوم وبداية الاستقرار

يقول لودفيج [٦] " تألف جيش طارق بن زياد من بربر جبال المغرب الأقصي ، وعندما امتزجوا بالعرب وبالرومان والجرمان في أسبانيا سميت ذريتهم بالمغاربة ، ويمتازون بجمال البدن ، وأخلاقهم أقرب إلي أخلاق العرب، وعندهم مزاج المحارب الخيالي ، مختالين محتالين متعصبين ،.وكانوا من السحرة الماهرين إلي الغاية مع الشرف البالغ، وكانوا أيضا مزارعين وبستانيين ماهرين في أعمال الري عارفين كيف يحولون المنحدرات البرية إلي رياض زيتون وتين " لذلك يبدو أن أغلب من جاء من الأندلس إلي هذه المنطقة كانوا من ذرية المغاربة الجلبيين سكان المغرب الأقصي الذين اختلطوا بالعرب وبالروم والجرمان في أسبانيا [٧]، وبطبيعة الحال صاحبهم عدد من المغامرين العرب والأسبان.

---

(1) Pertz , chronicon Novaliciense, ,Op.cit,p58.

(2) the work of Liudprand, op.cit ,p.33.

(٣) رينو ، الفتوحات ، ص ١٥٣.

(٤) صورة الأرض ، صورة خريطة المغرب ملحق خرائط الكتاب.

(٥) مجهول ، حدود العالم ، ص٢١.

(٦) لودفيج ، البحر المتوسط ، ص ٤٢٤-٤٢٥.

(٧) نفسه ، ص٤٢٤.

الجدير بالذكر أن هناك تشابه بين جغرافية منطقة فراكسينيتوم كما وصفها ليو تبراند [١] مع جغرافية شمالي المغرب الأقصي خاصة منطقة جبال غمارة التي تعتبر جزءا متمما لتضاريس جنوبي فرنسا؛ إذا أنها تتبع السلسلة الألبية [٢]، فهذه الجبال " متصلة بعضها ببعض كثيرة الشجر والغياض [٣] " وفيها جبال قد لحقت بأعنان السماء علوا " مثلها مثل جبال الألب ، كما تتشابه صفات سكان جبال غمارة مع صفات سكان فراكسينيتوم الجدد ، فقد كانوا مصدر تهديد لجيرانهم دائمي الإغارة عليهم [٤].

وكما يقول فيرناند بروديل [٥] أن الجبال هي مصنع الرجال ، حيث يضطر سكان الجبال إلي العيش منغلقين علي أنفسهم ، وتتسم حياتهم بالتقشف [٦]، وينتجون معظم ما يحتاجونه بالرغم من العوائق والصعوبات، فقد استهوي القادمين إلي الأندلس من المغاربة الجبليين سكان المغرب الأقصي [٧]، الإقامة علي قمم الجبال في الأندلس [٨]، ولم يكن لديهم الإحساس بغربة المكان، ومن ثم عندما هبط البعض منهم علي ساحل خليج سانترويبز ووجدوا القمم الجبلية المفضلة لسكناهم قرروا الاستقرار في المكان، وحملت إحدي هذه القمم أسم جبل المور، وظهرت خبرتهم في حرب الجبال من خلال المعارك التي خاضوها في المنطقة ووصفهم البعض[٩] بالغزلان من حيث

---

(1) the work of Liudprand ,p.33.

(٢) يسري الجوهري ، شمال أفريقيا دراسة في الجغرافيا الإقليمية ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ، القاهرة بدون تاريخ، ص٢٥، ٢٦.

(٣) الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، ١٩٩٤م ، ص٥٣٢.

(٤) نفسه ، ص٢٤٩.

(٥) المتوسط والعالم المتوسطي ، ص٢٥.

(6) Manfred Wenner ," the Arab- Muslim" Op.cit , p.72.

(٧) فدائما ما كان سكان جبال المغرب الأقصي هم حجر الأساس في تغذية جيوش الممالك والإمارات بالأندلس من خلال هجراتهم المستمرة من المغرب الأقصي راجع، بروديل ، المتوسط والعالم المتوسطي ، ص٢٧.

(٨) عندما نزل سكان جبل غمارة الأندلس سكنوا في مناطق تتشابه مع بلادهم ؛ فقد دشن باديس بن حبوس أحد سكان جبل بلش في غمارة بالريف الأقصي عندما نزح إلي غرناطة بلدة كانت تسمي الغزالة علي قمة جبل حتى يستكشف منها الأراضي التي أمامه ويفرض سيادته عليها ، وكان رجلا محاربا علمته خبرته توخي الحذر علي الدوام لمن يرغب في البقاء في هذه الأراضي ، ثم أضحت هذه البلدة حيا ألحق بمدينة غرناطة سنة ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م أطلق عليه القصبة الجديدة ، راجع ، مارمول كربخال ، وقائع ثورة الموريسكيين ، ترجمة : وسام محمد جزر ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ٢٠١٢م ، ١ ص٤٧.

(٩) رينو ، فتوحات ، ص١٧٣.

خفة الحركة وسرعة التنقل، كما يدل الحصن الذي بناه المغاربة في فراكسينيتوم والتي لا تزال منه بقية باقية علي مدي ماكان يتحلي به هؤلاء من الصبر علي العمل الشاق والطويل، حيث كانت جدرانه منحوتة من الصخر الصلد [١].

بعد الاستقرار في المنطقة " بدأ المسلمون في شن هجمات علي كل الأماكن المجاورة ، وأرسلوا رسائل إلي الأندلس لجلب المزيد من الرفاق، وأشادوا لهم بالمكان وطمأنوهم بأن السكان من أهل المنطقة لا حساب لهم، واستجاب لهذه الدعوة عصابة جديدة لا تقل عن مائة رجل ، حيث وصلوا لاختبار صدق قصتهم "[٢] " وسرعان ما طالت هجماتهم كل مكان . . . فقد كانوا في هجماتهم يبيدون كل البشر، ولا يتركوا ناجين لدرجة أن كل جيرانهم أصابهم الرعب[٣] " والخوف واضطروا إلي نقل بعض رفات القديسيين إلي أماكن أكثر أمنا في البروفانس [٤].

هدد المسلمون مواني ء الساحل الفرنجي وتركوا خلفهم مارسليا فأمسوا عائقا بينها وبين جنوة باستيطانهم الجديد في فراكسينيتوم، حيث أصبح الطريق البحري الساحلي بين شمالي إيطاليا وسواحل الفرنجة محفوفا بالمخاطر بوجود هذه القاعدة الإسلامية الجديدة، تزامن ذلك مع تراجع فاعلية القوى البحرية الفرنجية في غرب المتوسط وزيادة أنشطة المسلمين في البروفانس[٥]، واصبحت منطقة خليج سانت تروبيز مركزا رئيسيا لحركة المسلمين المغاربة وغيرهم ، ومنها اجتاحوا إقليم البروفانس، وبصفة خاصة المنطقة التي تضم ما بين افنيون وآرل ومارسيليا غربا وإفريه " Ivree " في إيطاليا شرقا [٦]، ويعترف الفرنسي رينو بحجم الكارثة بالنسبة لبلاده فيقول " والمرء يشعر بذل ومهانة حين يري في هذه الفترة – فترة تطوير الهجمات – أن بلادنا واسعة خرج منها العديد من الأبطال قد أسلمتها الأقدار إلي حشود من الغزاة لا يرحمون " [٧] ، ويبدو أن تفريغ

---

(١) رينو ، فتوحات ، ص٢٥٣.

(2) Liudprand, the work of Liudprand ,p.33,34.

(3) Liudprand, the work of Liudprand ,p.34.

(٤) رينو ، الفتوحات ، ص١٥٤.

(5) Ballan," Fraxinetum" Op.cit,p.49.

(6) Ganshof," notes sur les ports de provence", op.cit,p.35.

(٧) الفتوحات ، ص١٥١.

منطقة الساحل الفرنسي من السكان يعود إلي هاجس سكان السواحل بأن قدوم الخطر دائما ما يأتي من البحر ، مما سهل مهمة المسلمين.

انتشر المغاربة في إقليم البروفانس،وانطلقوا منه إلي الشمال، وبإقتفاء أثرهم في المنطقة من جانب علماء الأنثربولجي والآثار أسفرت نتائجهم عن حقائق تؤكد علي هذا الوجود قبل تأسيس فراكسينيتوم وبعدها؛ فمن خلال نتائج بعض الباحثين الأنثربولوجيين الذين الذين أجروا بحوثهم في المنطقة خلال الأربعينات من القرن العشرين علي سكان وادي الساس "Saas" [١] في سويسرا وهو منطقة مغلقة نسبيا، تشير هذه النتائج إلي التشابه بين السمات الطبيعية والجسدية بين سكان الوادي وبين سكان الشمال الإفريقي [٢]، كما عثر علماء آثار من جامعة بوردو الفرنسية عام ٢٠١٦م علي ثلاثة مقابر في مدينة نيم الفرنسية لثلاثة رجال اتضح من طريقة الدفن أنها لأشخاص مسلمين يعودون إلي القرن السابع أو الثامن الميلادي، ومع تحليل الحامض النووي وجد أنهم ينتمون إلي شمالي أفريقيا ، كما تواجد المسلمون المغاربة في منطقة سافوي "Savoie " التي تقع غرب الألب وتنسب إليهم فيها بلد تدعي أرض المور " " Maurienne، حيث احتلها المسلمون المغاربة فترة طويلة [٣]، كما ترك المغاربة غابة من البلوط في البروفانس احتفظت بأسمهم غابة المغاربة La foret des Maures بعد خروجهم من المنطقة [٤].

شارك السكان الأصليين لتلك المناطق العيش المشترك مع المسلمين المغاربة في وئام ، مما ساعدهم علي التقدم إلي قمم جبال الألب في أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، وأصبح استيطانهم محصنا بصورة جيدة ضد أمكانيات الهجوم المضاد [٥]، وازدات قوتهم عددا وعتادا بفضل الأعداد التي انضمت إليهم من سكان البلاد، وممن ألتحق بهم من إخوانهم في الأندلس وبلاد المغرب ، فضلا عن نسلهم من سبايا الفرنجة المولدين

---

(١) يتجه وادي الساس جنوبا من الرون عند مدينة فيسب Visp وينتهي بجبال المور عند ممر قليل الإستخدام يؤدي إلي مدينة انزا Anzaفي إيطاليا .

(2) Manfred Wenner ," the Arab- Muslim" op.cit , p.70.

(٣) رينو ، فتوحات ، ص١٧٢.

(4) Manfred Wenner ," the Arab- Muslim" op.cit , p.68.

(5)Ibid, p. 59.

اجتاز المسلمون المغاربة مضايق دوفيني Dauphine الجبلية الواقعة جنوب شرقي فرنسا سنة٢٩٤هـ/ ٩٠٦م، واستولوا علي دير نوفاليس Novalese الواقع علي حدود إقليم بييمونت" Piémont" الإيطالي، وهرب الرهبان وحملوا معهم الأثار المقدسة والأشياء الثمينة [١]، وتتهم حوليات الدير الرهبان بالجبن خاصة أن هذا الدير من أكثر الأديرة قداسة في المنطقة، حيث هرب الرهبان إلي تورين " Turin " عاصمة إقليم بييمونت في شمالي إيطاليا [٢]، ولجأ سكان المنطقة إلي الجبال التي تمتد من سوس " Suse " إلي بريانصون " Briancon" في جنوب شرقي البروفانس، وعندما افاقوا من هول المفاجأة تجمعوا للمقاومة ، ووقع عدد من المسلين أسري واقتيدو إلي تورين ، واعتقلوهم في دير سانت اندري لكنهم استطاعوا تحطيم أغلالهم وفروا هاربين بعد أن أشعلوا النار في الدير، وظل الرهبان والقساوسة في تورين حتى سنة٣١٢هـ/ ٩٢٩م [٣] .

ومنذ ذلك الحين كانت مناطق بروجاندي وضواحي الألب وغالة أهداف لغزوات المسلمين، حيث أنقض عليها مسلموا فراكسينيتوم مثل الفيضان المنهمر من أعلي الجبل [٤] ، ثم لم يلبثوا بعد ذلك بقليل أن وصلوا إلي منطقة مونتفرات التابعة لإقليم بييمونت في الشمال الغربي من إيطاليا[٥]، حيث شيد المسلمون في بلاد بييمونت عددا من الحصون والقلاع لشن الغارات علي المناطق المجاورة، وأطلقوا علي أحد هذه الحصون اسم فراكسينيتوم [٦]، حيث صارت هذه التسمية مصطلحا لوصف كل أماكن الاستيطان الإسلامي في المنطقة كما ذكرنا سابقا [٧].

امتدت سيادة المسلمين المغاربة [٨] علي جبال الألب الممتدة من سافوي في الشمال حتى مناطق الساحل في جنوب شرق فرنسا، أو ما يطلق عليه الآن ساحل الريفيرا [٩]، هذه المنطقة صعبة

---

(١) تأسس الدير في ٣٠ يناير سنة ٧٢٦م ويقع علي ممر الألب الواصل بين فرنسا وإيطاليا .

(٢) أعاد الآباء بناءه مرة أخري بعد خروج المسلمين سنة ١٠٠م راجع ، Pertz , chronicon Novaliciense, ,p.58,88

(٣) رينو ، فتوحات ، ص١٥٥-١٥٦ . Kees Versteegh," the Arab presence" op.cit, p. 365

(4) Pertz , chronicon Novaliciense, p. 59 .

(٥) رينو ، فتوحات ، ص١٥٦-١٥٧.

(٦) رينو ، نفسه ، ص١٧٠.

(7) Kees versteegh ," the Arab Presence in France, " op.cit,p.360 .

(8) Liudprand, the work of Liudprand ,p.262.

(9) Kees Versteegh," the Arab presence in France" op.cit,p.366.

التضاريس قليلة السكان جبالها شديدة الارتفاع تعيق الاتصال بين فرنسا وإيطاليا وسويسرا وإيطاليا إلا عن طريق ممرات جبلية ضيقة، فقد فتحت أودية Durance and Isere مسالك تؤدي إلي أثنين من الممرات علي الألب الغربي الأول"" Mont Genevre علي ارتفاع ٦,٠٨٠ قدم ١,٨٥٣ متر، والثاني ممر سانت برنارد "St. Bernhard" الذي يقع علي ارتفاع أقل ٧,٠٧٥ قدم ٢,١٥٧ متر ، وارتفاعه هذا يمثل خطرا علي العابرين [١]، يضاف إليهما ممر سني" ", Mt. Cenis الذي يقع جنوب ممر سان برنار [٢]، ويطلق عليه ممر سان برنار الغربي الصغير تمييزا عن الممر الأخر الذي يحمل نفس الأسم الذي يعتبر حلقة الوصل بين سويسرا وإيطاليا، وهذه الممرات ظلت تحتفظ بالكثير من أهميتها الجغرافية حتى سنة ١٩٧٠م.

لم يأت عام ٣٠٠هـ/ ٩١١م إلا والمسلمون المغاربة يسيطرون علي جميع الممرات في غربي جبال الألب، وأقاموا إدارة إسلامية منظمة لهذه الممرات الجبلية في ظل هلع وخوف السكان المحليين وعدم المواجهة معهم [٣]، ويتعرض المسافر حين عبوره لخطر الموت ما لم يدفع ضريبة العبور لهم،[٤] وكانت أساليبهم في البداية وحشية؛ ففي سنة ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م يقال أنهم قتلوا الحجاج الأنجلو سكسون حال عبورهم إلي روما بواسطة إحداث إنهيارات ثلجية في طريقهم ثم نهبهم، وعندما أنسوا من أنفسهم قوة حدثوا من أساليبهم في قطع الطريق؛ فبدلا من القتل والخطف تغيرت طريقتهم إلي الخطف وطلب الفدية [٥]، ثم بعد ذلك " فرضوا ضريبة علي الحجاج حتى يسمح لهم بالمرور "[٦].

اعتاد سكان الغرب المسيحي زيارة قبور الحواريين في روما ولو مرة واحدة في حياتهم، فضلا عن العلاقة الروحية بين الأساقفة والكرسي البابوي، وبعد احتلال المسلمين لمضايق الألب أصبح

---

(1) SEMPLE," THE BARRIER BOUNDARY OF THE MEDITERRANEAN BASIN"" op.cit,p.53.

(2) Manfred Wenner ," the Arab- Muslim" op.cit , p.60.

(3) Kees Versteegh, the Arab presence" op.cit, p. 370.

(٤) رينو ، فتوحات ، ص١٥٦-١٥٧.

(5) 230- Scott G. Bruce, An abbot between cultures : "Maiolus of Cluny considers the Muslims of La Garde-Freinet", early medieval Europe,2007,154,p.430 .

(6) Kees Versteegh, the Arab presence,op.cit, p. 370.

المسافرون يتعرضون لأخطار جسيمة، حتى ولو ساروا جماعات ومسلحين ، وقلما وجدت سنة خلال فترة سيطرتهم تخلو من حوادث دامية [١] "ولم يأت أحدا من الشمال أو الغرب لأداء الصلاة في روما ، وفي الأماكن المباركة إلا تعرض للأسر من جانب هؤلاء ، ثم يطلق سراحه مقابل فدية ضخمة " ، وعندما يقارن ليو تبراند بين تهديدات المغاربة والهنغاريين للحجاج العابرين إلي إيطاليا يقرر " أنه لم يكن هناك شيئا أكثر تدميرا مما فعله الأفارقة " [٢].

رابعا : الوضع السياسي لفراكسينيتوم

عندما تولي عبد الرحمن الناصر حكم الأندلس سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م أعاد للبلاد وحدتها، والتأمت ممالكها المتنافرة بيد قائد قوي الشكيمة يؤمن بالوحدة ويمقت التشرذم، حيث ألجم العناصر المتمردة أولا، ثم استدار لأعدائه ففرض عليهم أحترامه وهيبته، والاتصال الوحيد الذي رصده ابن حيان بين حكومة قرطبة وبين فرخشنيط فراكسينيتوم [٣] الذي يؤسس عليه البعض تبعية فراكسينيتوم لحكومة قرطبة كان بخصوص تأمين تجارة برشلونة إلي الأندلس، ولا يمكن الاعتماد علي حوليات الأديرة، أو علي ليوتبراند في وجهة النظر التي تري أن مسلمي فراكسينيتوم هم أتباع عبد الرحمن الناصر، أو من رعاياه؛ فهم ينسبون السكان إلي أصولهم، وليس تأصيل لعلاقة تبعية مع الحاكم القوي الجديد في الأندلس [٤].

فعندما توحدت بلاد الأندلس، فلا مانع من أن يكون هذا الوضع الجديد في حكومة قرطبة قد لاقي قبولا لدي مسلمي فراكستيوم خاصة أن الانسان دائما ما ينزع إلي الانتساب للقوي، ويفر من الضعيف ويتجنب عاره؛ فالناصر أصبح خليفة للمسلمين سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م يخطب وده الأباطرة وجيرانه من حكام الممالك المسيحية، وعندما يخاطب الناصر زعيم مسلمي فراكسينيتوم بالقائد [٥]؛ فهو يخطب ودهم باعتبارهم مجاهدين متوافقين مع مشروعه الجهادي الذي بدأه مع

---

(١) ريتو ، فتوحات ، ص ١٦٠.

(2) Liudprand, the work of Liudprand ,p.262.

(٣) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق نشر ب. شالميتا ، المعهد الأسباني العربي للثقافة بالاشتراك مع كلية الآداب بالرباط ، مدريد ١٩٧٩م ،٥ص٤٥٤ .

(4) the work of Liudprand,p.33.

(٥) ابن حيان ، المقتبس ، ٥ص٢٦٦.

الأعداء من جهة، ويمثل ورقة ضغط علي حكام الغرب الأوربي من جهة أخري، أما بالنسبة لمسلمي فراكسينيتوم فلا مانع لديهم من الاستفادة من مكانة وقوة الخليفة الناصر في تعزيز وجودهم بالمنطقة دون أدني تبعية، لذلك نجد عدد من جغرافي القرن الرابع الهجري يرصدون هذه المنطقة ضمن الممالك الإسلامية في أوربا، أما حوليات الأديرة وليوتبراند [١] يطلقون عليهم أتباع عبد الرحمن الناصر أو رعاياه.

يقرر ابن حوقل [٢] أن فراكسينيتوم جبل القلال تتبع جزر البليار الخاضعة لحكم الأندلس، وهو رأي مبني علي خطأ جغرافي باعتبارها جزيرة ضمن أرخبيل البليار في مواجهة ساحل إقليم غاليسيا تتبع جزيرة ميورقة، ولأن المسافة بين المكان الأصلي علي اليابسة لفراكسينيتوم ، وبين المكان الذي أورده ابن حوقل علي خريطة غرب المتوسط تقدر بمئات الأميال؛ فإن ذلك يلقي بظلال من الشك في الولاية السياسية والإدارية لحكومة قرطبة علي فراكسينيتوم.

وجاري ابن حيان سلفه ابن حوقل في التأكيد علي التبعية السياسية والإدارية لفراكسينيتوم فرخشنيط لحكومة قرطبة من خلال الرسالة التي أرسلها الناصر إلي قائد المجاهدين في فراكسينيتوم فرخشنيط بخصوص تأمين تجارة برشلونة إلي الأندلس باعتبار فراكسينيتوم فرخشنيط من أعمال الأندلس عندما قال : " وسأله أحد ملوك برشلونه ويدعي أنجه تأمين تجار أرضه علي الاختلاف إلي الأندلس ... ونفذ من الناصر العهد إلي نصر بن أحمد القائد بفرخشنيط " فضلا عن مخاطبة حكام جزر البليار التابعة لحكم الناصر لتأمين تلك التجارة[٣].

وإذا كان الغرض من الرسالة هو حماية التجارة القادمة من برشلونة إلي الأندلس وعدم التعرض لها خلال مرورها بفرخشنيط فراكسينيتوم فإن المعني بالرسالة منطقة أخري تقع بين برشلونة وموانى الأندلس وليست فراكسينيتوم التي تبعد مئات الأميال شرق برشلونة ،وبالتالي لا علاقة لها بمناطق مرور تجارة برشلونة إلي الأندلس، وزيادة علي ذلك لم تكن فراكسينيتوم تقوم بأعمال قرصنة بحرية فكل عملياتها كانت برية، ولما كان المعني الأول بالرسالة هم حكام

---

(1) the work of Liudprand,p.33.

(٢) صورة الأرض ، ص٢٠٤ .

(٣) ابن حيان ، المقتبس ،٥ص٤٥٤ .

جزر البليار التي تقع برشلونة في مرمي عملياتهم البحرية[١]، وأن ابن حوقل [٢] ضم جبل القلال فراكسينيتوم إلي أعمالها؛ فيبدو أن ابن حيان اعتمد علي الأخير في ذلك دون التحقق من الموقع، فضلا عن أن الغزوات البحرية الإسلامية علي برشلونة كانت تأتيها من جزر البليار ومن المرية، وليس من فراكسينيتوم، حيث استهدف أسطول المرية برشلونة لحظة توقيع اتفاقية تأمين التجارة بين الأندلس وبرشلونة، فقد تصادف وجود حسداي بن شبروط اليهودي مبعوث الناصر لبرشلونة لتوقيع الاتفاقية؛ فصرف الأسطول عن غزو المدينة [٣].

لذلك نتفق مع "Scott " [٤]في طرحه بالنسبة لعدم تبعية المسلمين في المنطقة لسلطة شرعية، وليس لأحد سلطان عليهم ، خاصة أن في فترة نزوحهم إلي فراكسينيتوم واستيطانهم بها، وما تلا ذلك من هجرات كانت دولة الأندلس ضعيفة متقطعة الأوصال، وانتاب البلاد في ذلك الوقت حالة من التحزب والانقسام العرقي، فضلا عن أننا لم نعثر علي أي إشارة في المصادر العربية تفيد طلب مسلمي فراكسينيتوم الشرعية من قرطبة، أو أخري تفيد إسباغ الناصر أو من قبله من أمراء الأندلس الشرعية عليهم، وهم من خرجوا ناقمين علي حكومة قرطبة رافضين الهيمنة والتهميش.

كما أن فراكسينيتوم واجهت التحديات في محيطها منفردة دون دعم لوجستي أو عسكري من قرطبة خاصة في الحصار البري من جانب الفرنجة والبحري من الأسطول البيزنطي سنة ٣٣٠هـ/ ٩٤١م والذي سنوضحه لاحقا، حيث لا يمكن للناصر الأموي الذي تسيطر قواته البحرية علي غرب المتوسط أن يترك ولاية من ولاياته نهبا للأسطول البيزنطي الذي دمر ميناء المغاربة المسلمين في سانترويبز تضامنا مع الفرنجة دون أدني مساعدة منه [٥]، أو حتى تخفيف الضغط عليهم بمهاجمة قواعد برية أو بحرية تابعة للفرنجة، ومع ذلك فكل المصادر اللاتنية وحوليات الأديرة تنسبهم إلي قرطبة، وهو أمر طبيعي باعتبارهم ينتسبون إلي تلك البلاد التي جاءوا منها، وبالتالي لا يمكن الجزم بأن ثمة تبعية رسمية أو إدارية أو حتى اسمية من جانب فراكسينيتوم لحكومة الأندلس.

---

(١) كان هناك مجري ملاحي من جزيرة منورقة إلي ساحل برشلونة ، راجع ، الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص٥٨٤.

(٢) صورة الأرض ، ص٢٠٤ ، يضيف فراكسينيتوم إلي عمل جزيرة ميورقة.

(٣) ابن حيان ، المقتبس ، ٥ص٤٥٤.

(4) Scott G. Bruce, "An abbot between cultures.op. cit. p. 134.

(5) Liudprand, the work of Liudprand ,p.186.

يري أحد الدارسين [١] أن فراكسينيتوم هي دولة إسلامية حدودية نجح الأندلسيون في إقامتها مثل إخوانهم في كريت؛ حيث أسسوا سلطة على إقليم محدد من خلال قوة عسكرية مكتفية ذاتياً لفترة طويلة من الزمن، ومنحت الدعم المعنوي من السلطات المركزية الإسلامية المعترف بها، ومن المعقول أيضاً أن يكون ذلك الدعم مقابل توفير مسلمي فراكسينيتوم الخشب للخلافة في قرطبة[٢]،أي تبادل المنافع.

ضنت المصادر العربية بأي إشارة إلي الضوابط الادارية في فراكسينتيوم، أو في المناطق الألبية التي سيطروا عليها إلا ما تناوله الكتاب الغربيون؛ فهناك تقرير موثق من مسافر مر بمدينة فيرشيلي Vercelli بشمال غرب إيطاليا [٣] يقول فيه " إن المسلمين كانوا يعيشون بين السكان المحليين في المدينة بطريقة تشير إلي التعايش السلمي بين الطرفين ، ولم يكن المسلمون يحملون السلاح ولا يتعرضون للعداء من الأخرين ، ولكن كان يبدو أنهم يديرون المدينة وما حولها دون استخدام غلظة السلطة أو يديها الثقيلة " [٤] ، وعلى الرغم من عدم وجود سلطة مركزية منظمة تنظم نشاط هذه الجماعات. إلى أنه هناك ما يوحي بأن ثمة تنسيق لأنشطتها وانسجام تام في تصرفاتها مما أعطى انطباع لخصومهم والمراقبين في العصور الوسطى بأنهم يشكلون وحدة واحدة موحدة الجبهة [٥]

يتضح من ما سبق أن المسلمين أسسوا لأنفسهم وجودا مستقرا ودائم بشكل أو بأخر ، وتبنوا نظاما للإدارة تبعا لظروف كل منطقة ، وتركوا الإدارة المحلية لأصحاب البلاد ، بحيث أن معظم البروفانس كان يتمتع بالحكم الذاتي شريطة تحصيل الضرائب، أما المدن والحصون التي أسسها المسلمون في البروفانس وحوض وادي الرون كانت الإدارة مباشرة من جانبهم باعتبارها ذات أغلبية

---

(1) Mohammad Ballan," Fraxinetum" op.cit,p.47.

(٢) مجهول ، حدود العالم ، ص٢١.

(٣) تقع فرشيلي في شمال غرب إيطاليا في إقليم بييمونت ، وهي من أقدم المواقع الحضارية في شمال إيطاليا ، وتأسست وفقا لمعظم المؤرخين حوالي عام ٦٠٠ق.م وتقع في وادي بو بين ميلانو وتورينو ، wikipedia.org/wiki/Vercelli.

(٤) نقلا عن Manfred Wenner ," the Arab- Muslim" op.cit , p.71

(5) Mohammad Ballan," Fraxinetum" op.cit,p.25.

مسلمة، وكان أول هذه المدن فراكسينيتوم[١] ، وإن اختلفت إدارة المدينة في آلياتها عن إدارة الحصن أو المعسكر الذي يتطلب إدارة عسكرية صارمة .

وتطرح مسألة اللغة وصعوبة التواصل بين المسلمين وسكان البلاد أشكالية في مسألة الإدارة، ويري بروفنسال [٢] أن القراصنة الأندلسيين لحق بهم عدد من الأسبان المسلمين ، أو من الأتباع المستعربين الذين يتحدثون اللهجة الرومانثية ، وانضم إليهم عدد من سكان البروفانس مما يعزز فكرة عدم صعوبة التعامل مع السكان المحليين من خلال تصدير هؤلاء للتعامل مع الناس في بداية الأمر، ويوضح ذلك تولي هؤلاء المناصب التي تحتاج إلي التعامل مع غير المسلمين مثل بوابات المدن والحصون وغيرها من الأماكن التي تحتاج إلي التعامل المباشر [٣]، والمثال علي ذلك هو إدارة الممرات الألبية الرئيسية لمدة جيل تقريبا [٤]، فضلا عن أن الاختلاط بين المسلمين وسكان البلاد، مثل الزواج من السبايا والمخالطة اليومية جديرة بأن تخلق لغة مشتركة في بداية الأمر خلال الجيل الأول، أما الأجيال التالية فلا يبدو أن يكون لديهم مشكلة في اتقان لغة التعامل بجانب لغتهم الأصلية.

خامسا : النشاط الاقتصادي

يؤكد الاصطخري [٥] في وصفه لجبل القلال فراكسينيتوم علي مساحة الجبل الكبيرة ، حيث يستغرق عبوره يومان سيرا على الاقدام، ويتضمن العديد من الجداول والأنهار، كما أشار أيضاً إلى المنطقة المحيطة بفراكسينيتوم، وقال أنها كانت منطقة مهملة سابقاً ، وأن وصول المسلمين إليها واستقرارهم فيها أدي إلى ازدهارها، ويضيف ابن حوقل [٦] أنه بسبب التربة الخصبة والمياه

---

(1) Liudprand the work of Liudprand,p.33.

(٢) تاريخ أسبانيا المسيحية ، من الفتح إلي سقوط الخلافة القرطبية ٧١١-١٠٣١م ، ترجمة : علي عبدالرءوف البمبي وأخرون ، المشروع القومي للترجمة ، المجلس الأعلي للثقافة ، القاهرة سنة ٢٠٠٠م ص٤٠٩.

(٣) رينو ، فتوحات ، ص١٨٧-١٨٨.

(4) Manfred Wenner ," the Arab- Muslim" ,op.cit, p.73.

(٥) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص٣٤.

(٦) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٢٠٤.

المتدفقة انتجت المنطقة العديد من المنتجات الزراعية، وردد ما قاله الأصطخري زاعما أن وصول المسلمين إلى المنطقة تسبب في ازدهارها، وأوضح أن المسلمين سكنوا في وجه الجبل، فلا طريق إليهم ولا متسلق عليهم إلا من جهة هم منها أمنون، وينظر ابن حوقل إلي فراكسينيتوم باعتبارها منطقة زراعية للمجاهدين ذات طابع عسكري يتوفر فيها الأمن من الأعداء .

ويصف كتاب حدود العالم جبل القلال فراكسينيتوم بأنها جبل مسكون على المتوسط على مقربة من شبه الجزيرة الإيطالية، وهو جبل ذو قمة مرتفعة صعبة الوصول إليها، ويعيش السكان فيه علي مهنة الصيد وقطع الأخشاب، وتصنيع الفحم الخشبي مما يؤكد علي الأهمية الاقتصادية للإقليم الذي احتله المسلمين، ومما يلاحظ علي هذا المصدر أنه لم يشر إلى الأنشطة العسكرية، ويصف فراكسينيتوم بأنها كانت مستعمرة زراعية فضلا عن استغلال غاباتها في تصدير الأخشاب[١].

ويؤكد فكرة الاستقرار والزراعة ما جاء في رسالة التحريض التي أرسلها الملك كونراد " Conrad " ملك بورجونيا وفرنش كونتي وسويسرا ودوفيني إلي المسلمين ضد الهنغاريين، وإلي الهنغاريين ضد المسلمين ليفنوا بعضهم البعض، فكانت رسالتة المسلمين تقول " أن النهابين الهنغاريون بلغتهم أخبار الأراضي الخصبة التي تزرعونها فأصبحوا يطالبون باحتلالها " أما رسالته للهنغاريين " لماذا تخاصمونني أنا ؟ إن العرب يحتلون أخصب السهول . ساعدوني علي طردهم منها وسوف أمنحها لكم لاستقرار فيها " [٢]، وفعلا نجح في التخلص من الخصمين بهذه الخدعة ، ومن بقي من المعركة أسره وباعه في سوق الرقيق بمدينة آرل ، ويري رينو أن مكان المعركة كان في منطقة سافواي حيث كانت هذه البلد تسمي أرض المور " Maurienne " حيث احتلها المسلمون فترة طويلة [٣].

لابد أن نسلم أن الأنشطة الانتاجية التي قام بها المسلمون في فرنسا كانت نتاج خبرات جاءت معهم من بلادهم ، وأن اقتصادهم كان ذاتيا أكثر منه اعتمادا علي الداخل الفرنجي ، حيث يصف

---

(١) مجهول . حدود العالم ، ص٢١.

(٢) رينو ، فتوحات ، ص١٧١.

(٣) رينو ، فتوحات ، ص١٧٢.

ابن حوقل [١] مكان استقرارهم بأنه " أرض تقوت من لجأ إليها . . . " فقد قاموا بزراعة الأودية الخصبة وعاشوا مسالمين، بيد أن هناك جماعات منهم كان نشاطهم يعتمد علي اقتصاد الغزو فيما ذكرناه من الهجوم علي الأديرة وقبض الأتاوات من المارين بمضايق الألب، ومع ذلك لا يمكن التعويل علي اقتصاد الغزو كثيرا؛ لأنه متغير وغير ثابت، بعكس الأنشطة الانتاجية الثابتة والمستقرة المرتبطة بالزراعة والتصنيع والتجارة، حيث يقول ابن حوقل أنهم عمروا المنطقة وأقاموا فيها عمارة [٢].

وتعني العمارة زراعة الأرض والبناء؛ وهي نقيض الخراب؛ فالزراعة هي أساس الاستقرار، فمنذ نزولهم المنطقة اتجهوا إلي إزالة الغابات، وإقامة زراعات مكانها، مثلما كان متبعا في شمال أفريقيا خاصة في الأماكن الساحلية كما في جبال غمارة في المغرب الأقصي، وجبال ونشريس في المغرب الأوسط، وتماهوا مع المجتمع الريفي، حيث وجد المسلمون أمامهم في فرنسا أقتصاد ريفي يعتمد علي المحراث الثقيل ذي العجلات الذي تجره الثيران، وهو المحراث الذي كان مستخدما في العالم الروماني، وكان يترك كل حقل دون زراعة لمدة سنتين أو ثلاثة لراحته [٣]، ويبدو أن ليو تبراند [٤] كان يقصد ذلك عندما قال " وإنما حولوا الأرض الخصبة إلي صحراء" في سياق ذمه للمسلمين .

استقدم المسلمون المغاربة القمح الأسود black wheat من بلاد المغرب، حيث مثل هذا القمح في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي أهم منتجات فرنسا الزراعية، وهو من أصل فارسي [٥]، وكان يزرع في إقليم الفار البروفنسي، وكان يطلق عليه القمح الإسلامي [٦]، ويبدو أن القمح انتقل مع المستوطنين الذين قدموا من بلاد السوس الأدني، الذين اشتهرت بلادهم

---

(١) صورة الأرض ، ص٢٠٤.

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٢٠٤.

(٣) كانتور ، التاريخ الوسيط ، ١ص٢٦٢.

(4) Liudprand, the work of Liudprand of Cremona ,p.34.

(٥) رينو ، فتوحات ، ص٢٥٥

(6) Manfred Wenner ," the Arab- Muslim" ,op.cit, p.68.

بزراعة القمح[١]، فالجيد منه كان يزرع بالأماكن المحيطة بجبل غمارة [٢]، ، ومن المرجح أيضا أن المسلمين هم من نقلوا زراعة النخيل إلي ساحل الجنوب الفرنسي [٣]، وهذا يدلل علي الطبيعة الانتاجية للمسلمين في المنطقة، حيث أضافوا خبراتهم في هذ المجال وطوروا في مهنة الفلاحة؛ مما لفت انتباه السكان المحليين إلي قيمة الأرض الزراعية، لذلك عندما رحل المسلمون من جنوب فرنسا وقع الكثير من النزعات والخصومات بسبب التهافت علي امتلاك الأراضي التى جلوا عنها، واستولت الكنيسة علي حصة مهمة من تلك الأراضي [٤]

بالنسبة لتربية الحيوانات فكانت البغال أهم حيوان من حيوانات النقل في جبال الألب منذ القدم [٥]، وعندما أتي المسلمون حملوا علي عاتقهم تربية الخيول وتحسين سلالتها في جنوب فرنسا، ولا سيما في مقاطعة كاماراج وذلك بتهجين الخيول المحلية بخيول المغرب والأندلس التي أحضرها الفرسان المسلمون معهم إلي تلك البلاد، وهي تشتهر بجمالها ورشاقتها [٦]، وليس للخيل قيمة اقتصادية عدا استخدامها سلاحا للحصول علي الغنائم والنفوذ، وتحتاج تضاريس المنطقة نوعا من الخيول التي تستطيع صعود المرتفاعات وهبوطها خاصة مناطق جبال الألب، ومن المحتمل أن تكون بعض سلالاتها ترجع إلي بني حميد من غمارة والتي تعرف بالخيل الحميدية؛ وهي تمتاز بخفة الحركة في صعود وهبوط جبال غمارة [٧].

أما الغنم فيعتقد أن المسلمين هم أول من أدخلوا الغنم كمصدر للحوم في أوربا، كما أن امتناع السكان المحليين عن تربية الخنازير، أو ندرة ذلك لا يمكن تفسيره إلا علي أنه يعود إلي فترة حكم المسلمين للمنطقة [٨]، وعلاوة على ذلك فإن الممارسات الزراعية والرعوية البربرية واضحة، ويمكن

---

(١) ابن الفقيه الهمداني ، مختصر تاريخ البلدان ، طبع ليدن ١٨٨٥م ص٨٤.

(٢) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص٢٤٩.

(٣) رينو ، فتوحات ، ص٢٥٦.

(٤) رينو ، فتوحات ، ص١٩١.

(٥) لودفيج ، البحر المتوسط ، ص٨٣.

(٦) رينو ، فتوحات ، ص٢٥٦.

(٧) البكري ، أبو عبيد الله ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، مكتبة المثني ، بغداد ، ص١٠٨.

(8) Manfred Wenner , "the Arab- Muslim" ,op.cit p.68. Mohammad Ballan, Fraxinetum"op.ci,p.64."

الاستدلال على ذلك من حقيقة أن بعض أنواع قطعان الماعز المحلية ذات أصول من شمال أفريقيا جاءت إلى بروفانس ، حيث كانت بلاد السوس الأدني تشتهر بتربية الأغنام [١].

ولا يعني إزالة المسلمون المغاربة للكثير من الغابات، وإقامة زراعة مستقرة مكانها أهمال زراعة الأشجار، بل أدخلوا زراعة الأشجار ذات القيمة الاقتصادية العالية مثل شجر البلوط، حيث ترك المسلمون خلفهم بعد خروجهم من فراكسينيتوم غابة كثيفة من شجر البلوط في بروفانس احتفظت بأسمهم "غابة المغاربة La foret des Maures، فهم أول من أدخل زراعة هذه الشجرة في المنطقة وهي التي يستخرج من لحائها الفلين [٢]، حيث يقشر اللحاء كل ثمانية أو عشرة سنوات دون أن تتلف الشجرة وتعيش شجرة البلوط من ٣٠٠-٤٠٠ عام لكنها لا تزيد في طولها عن ١٥متر ، وللفلين أستعمالات كثيرة خاصة في الأعمال البحرية [٣]، وتشير بعض الأدلة إلي أن سكان فراكسينيتوم برعوا في تطوير واستخدام خشب الفلين والبلوط، وصدروهما إلي الأندلس، حيث كانت عاملاً مهما في توطيد العلاقة بين قرطبة وفراكسينيتوم [٤].

ويشير صاحب كتاب حدود العالم [٥] صراحة إلي أن فراكسينيتوم كانت الموقع الرئيسي لتصير الأخشاب والوقود إلي بقية العالم الإسلامي الغربي، وتشير الاكتشافات الأثرية مؤخرا في جنوب البروفانس بالقرب من موقع فراكستنيوم إلي العثور علي أدوات عربية مثل الفؤوس والمناشير والمسامير والأزاميل والمطارق التي كانت تستخدم في استغلال مواردالأخشاب [٦]، كما أن علماء الآثار البحرية الذين نقبوا في خليج سانتروبيز كشفوا عن عدة سفن مجهزة لنقل المواد

---

(١) ابن الفقيه الهمداني ، مختصر تاريخ البلدان ، ص٨٤.

(2) Manfred Wenner," the Arab- Muslim" , op.citp.68.

(٣) فلين /http://ar.wikipedia.org/wiki

(٤) Mohammad Ballan," Fraxinetum",opcit,p.68 ؛ والفلين مادّة إسفنجية خفيفة الوزن، وهي لا تمتص الماء بسهولة ويمكن ضغطها إلى حد كبير، غير أنها تعود إلى حالتها الأولى بعد أن يزول الضغط. وقد استعمل الناس الفلين منذ القرن الرابع ق. م. وقد ارتدى الرومان الصنادل الفلينية، كما استعملوا الفلين لتعويم مراسي السفن وشباك الصيد ، راجع ، http://ar.wikipedia.org/wiki/فلين

(٥) ص٢١ .

(6) Mohammad Ballan, "Fraxinetum",op.cit,p.68.

الخام مثل الأخشاب والخزف وغيرهما [١]، وفضلا عن ذلك راجت تجارة الرقيق في المنطقة بسبب الحروب المستمرة، ويعتبر السبي أفضل أنواع الغنائم ، ويجري تقدير قيمة الأسير علي أساس السن والجنس وجمال الصورة وقوة العضلات، وكان التجار دائما في مؤخرة الجيش يشترون من المحاربين ما يقع في أيدهم [٢].

وكما قامت تجارة الأخشاب علي منظومة متعلقة بالغابات، فإن بعض الصناعات قامت أيضا علي أشجار الغابات مثل شجر الصنوبر والأرز، ففضلا عن صناعة السفن من أخشابها ، استخرج مسلمي فراكسينيتوم القطران من هذه الأشجار، ويتم ذلك بتحويل خشب الصنوبر إلي قطران من خلال عملية الكربنة التي تتم داخل أفران مرتفعة الحرارة مع نقص في الأكسجين، وينتج عن العملية بجانب القطران الفحم [٣]، ويشير صاحب كتاب حدود العالم إلي تجارة الفحم وتصديره من فراكسينيتوم [٤] ، أما القطران فيتم تحويله إلي زفت ويجلفنون به المراكب [٥]، أو ما يسمي بقلفطة السفن، ويبدو أن المسلمين نقلوا هذه الصناعة معهم من بلاد المغرب والأندلس، حيث انتشرت أشجار الصنوبر والأرز هناك [٦]، ويؤيد ذلك أن كلمة قطران بالفرنسية والبروفانسية "goudron/quitran" مشتقة من الكلمة العربية قطران [٧].

ظهر الدينار الذهبي الإسلامي في جنوب فرنسا بأشكاله المتعددة، وبكميات كبيرة، منقوش عليها كلمات عربية، أو رسوم لشخصيات عربية خلال فترة مبكرة حتى قبل إقامة فراكسينيتوم [٨]، حيث كانت تجارة المشرق تمر عبر الأندلس إلي البروفانس واللانكدوك؛ إذ كانت القوافل تأتي من بلنسية والمرية تعبر الرون، وغدت مقاطعات بروفانس واربونة وقتئذ من أغني المناطق

---

(1) Ibidem.

(٢) رينو ، فتوحات ، ص٢٢٧.

(3) http://en.wikipedia.org/wiki/Pine_tar.

(٤) ص٢١ .

(٥) رينو ، فتوحات ، ص٢٥٥.

(٦) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص٥٥٥.

(7) Mohammad Ballan," Fraxinetum",op.cit,p.68

(8) Lopes, Robert s., medieval trade in the Mediterranean world, oxford university , London 1955, p,35-36.

في جنوب فرنسا [١]، وتشير نتائج الحفريات الأثرية في هذه المناطق إلي الكثير من المسكوكات الإسلامية [٢].

أما الصناعات في فراكسينيتوم فكانت يدوية وبدائية وليدة الحاجة؛ كما تشير الباقايا الأثرية من الفخار والمعادن الأسلحة التي عثر عليها بالقرب من لاجارد فرنيه، مما يؤكد علي وجود أنشطة صناعية أخري بجانب الأنشطة العسكرية، وهي الأهم في ذلك الوقت، وتدل أيضا على وجود حرفيين مهرة ضمن سكان فراكسينيتوم، ويمكن الاستدلال على ذلك من قول ابن حوقل والاصطخري: أن المسلمين ليسوا مجاهدين فقط، وإنما عملوا في الأنشطة الانسانية الأخري من صناعة بدائية وزراعة وتجارة [٣].

خامسا : التفاعل الاجتماعي الثقافي

يقول الكاتب الألماني لودفيج [٤] " أن الإسلام هو أكثر أديان التوحيد الثلاثة تسامحا ، وهو الدين الوحيد الذي سمح لأتباع الديانات الأخري بأن يحتفظوا بمعابدهم الخاصة في عبر الأجيال وفي مختلف البلدان ، كما أنه هو الدين الوحيد الذي عامل الأمم المغلوبة معاملة انسانية... ، وفرضت الجزية مع الطاعة علي المغلوبين ، لكن دون فرض ديانة جديدة عليهم " ففي مجال التأثيرات الاجتماعية ينقل مانفرد [٥] نتائج بعض الباحثين في مجال الأنثربولجي خلال الأربعينات من القرن العشرين التي أجريت علي سكان وادي الساس " " Saas في سويسرا إلي التشابه بينهم وبين سكان الشمال الإفريقي في بعض العادات والتقاليد، مثل رفض تربية وذبح الخنزير، علي الرغم من أنه كان غالبا هو مصدر اللحوم التقليدي للسكان في باقي أودية الرون، وكذلك طريقة ذبح الماشية علي الطريقة الإسلامية المتبعة في شمال أفريقيا، وأيضا طريقة إزالة الغابات وإقامة طرق مكانها مثلما كان متبعا في شمال أفريقيا خاصة في الأماكن الساحلية.

---

(١) محمد عباسة ، العلاقات الاجتماعية بين العرب والفرنجة وتأثيرها علي الأدب والفكر ، مجلة حوليات التراث الجزائر ٢٠٠٥م ص١٠.

(٢) رينو ، فتوحات ، ص٢٥١.

(٣) صورة الأرض ، ص ٢٠٤ ؛ الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص٣٤.

(٤) البحر المتوسط ، ص٤١٨.

(5) Manfred Wenner , "the Arab- Muslim",op.cit , p.70.

يري رينو [١] أن عصابات المسلمين التي نزلت فرنسا، ثم توغلت حتى جبال الألب كان هدفهم السلب والنهب، أما نشر النفوذ الحضاري العربي فقد بدأ مع القرن ١٢م في أعقاب الحروب الصليبية، وهو قول مردود عليه لأن الحضارة والثقافة تنتقل بالتعايش والاحتكاك اليومي والتزاوج والاختلاط ،وهو ما حدث بين المسلمين في فراكسينيتوم والفرنجة؛ فالمشاعر الانسانية التي يتم التعبير عنها بالأدب مثل الشعر والملاحم هي مشاع لا يمكن تغافلها وليس لها علاقة بالجنس أو الدين؛ فهي تنتقل تلقائيا من طرف إلي أخر إذا تشابهت الظروف ملبية حاجات النفس البشرية ولا تنتظر وقتا طويلا كما ادعي رينو، والفترة التي عاشها المسلمون في المنطقة، والتى تمتد إلي ثلاثة أجيال علي أقل تقدير كفيلة بنقل ثقافتهم إلي مناطق محرومة من كل أنواع الثقافات بفعل الجهل وسيادة الكنيسة.

فرضت ظروف الاختلاط بين المسلمين والمسيحيين الاطلاع علي ثقافة بعضهم البعض ، وافرز ذلك أنتاجا يعبر عن التفاعل الثقافي بين الخصوم، وظهر ذلك في مناطق التماس بينهم في الشرق والغرب؛ ففي وادي الرون ظهرت رقصات شعبية فلكلورية تعود إلي فترة استقرار المسلمين في المنطقة [٢]، وهو أمر تكرر حدوثه بعد ذلك علي الحدود البيزنطية الإسلامية في الشرق الإسلامي، حيث ظهرت ملحمة الأميرة ذات الهمة والأمير سيد البطال، مما يشير إلى وجود وسائل تفاعل ثقافي بين السكان من الجانبين في حياتهم المشتركة، وفي بعض الأحيان يحول هذه التفاعل العلاقات العدائية إلى علاقات سليمة، وتبادل ثقافي وسمو للمشاعر الانسانية [٣].

وفي مجال فن العمارة والبناء هناك بعض الاكتشافات الأثرية القليلة، أهمهما هو اكتشاف المحراب في جدران بعض الكنائس في جنوب فرنسا، وخاصة في أربونة، كما أن هناك بعض الكنائس والكاتدرائيات في منطقة الفار ووادي الرون قد تكون في الأصل مساجد، ثم تحولت إلي كنائس [٤]، كما أن الحصن الذي بناه المسلمون في فراكسينيتوم لا تزال منه بقية باقية تدل

---

(١) رينو ، فتوحات ، ص٢٥٣.

(2) Manfred Wenner ," the Arab- Muslim"op.cit , p69.

(3) Mohammad Ballan," Fraxinetum"op.cit,,p.65.

(4) Manfred Wenner ," the Arab- Muslim",op.cit , p.65.

علي العمارة العسكرية ومدي مهارتهم في بناء الاستحكامات الدفاعية[١]، ويرجع البعض قلة آثار المسلمين في المنطقة إلي أن مبانيهم اعتمدت بالأساس علي الخشب والتراب [٢].

سادسا : صحوة حاكم بروفانس ومحاولاته طرد المسلمين

تلاقت رغبة حاكم بروفانس مع الامبراطورية البيزنطية في التخلص من شوكة فراكسينيتوم بعد ارتباطهما بالمصاهرة السياسية، حيث ارتبط هيو البروفنسالي "Hugh of Provance"، ويعرف أيضا باسم هيو أف آرل" "Hugh of Arles، الذي يطلق عليه مجازا ملك إيطاليا ٩٢٥-٩٤٩م أسميا وهو أبن أدلبرت أبن لوثير الثاني أحد أحفاد شارلمان ، مع الإمبراطور البيزنطي رومانوس الثاني ٩٥٩-٩٦٣م ابن الأمبراطور قسطنطين السابع ٩١٢-٩٥٩م برباط المصاهرة من خلال زواج أبنة هيو برتا من الأمبراطور [٣].

وعد هيو بمهاجمة فراكسينيتوم برا عندما يهاجمها الأسطول البيزنطي من البحر، ويري البعض[٤] أن هذا التحالف قام بحملتين سنة ٩٣١م و٩٤١م ضد الوجود الإسلامي في فراكسينيتوم، حققت الأولي بعض النجاحات الجزئية، إلا أن الحملة الأخيرة هي التي كان لها صدي، لأنه نتج عنها بعض الآثار علي تاريخ المنطقة ، وأجل سقوط فراكسينيتوم . طلب هيو من أمبراطور القسطنطينية مساعدته البحرية لمحاصرة مسلمي فراكسينيتوم خاصة أنه لايملك بحرية ؛ فأرسل الأمبراطور أسطولا إلي خليج سان ترويبز مزود بالنفاطات الإغريقية التي كانت أخطر الأسلحة في ذلك الوقت لضرب فراكسينيتوم من البحر ، وتحطيم مراكبهم المرابطة في الخليج علي أن يتولي هيو الحصار من البر، حيث انطلق بقواته محازيا لخليج ليون في طريقه لفراكسينيتوم من ناحية الغرب، وأحكم قبضته علي المنطقة [٥].

---

(١) رينو ، فتوحات ، ص٢٥٣.

(2) Manfred Wenner ," the Arab- Muslim"op.cit , p.65.

(٣) علي أحمد محمد السيد ، صفحة من العلاقات الدبلوماسية الألمانية البيزنطية ، الدار المصرية ، الإسكندرية ١٩٩٩م، ص٩.

(4)Ganshof," notes sur les ports de provence" op.cit,p.35.

(5) Liudprand, the work of Liudprand ,p.186.

فشل الحصار البري من جانب هيو عندما خاض المسلمين معركة وجود، بعد حشد حشودهم الكبيرة التي ربما بلغت أعدادهم فيها مئات المقاتلين علي أهبة الاستعداد للدفاع عن أهم معاقلهم[١]، وعندما حاصرهم هيو هربوا إلي الجبال وكانوا ندا له، أما الحصار البحري فقد نجح ليس لقوة الأسطول البيزنطي وناره الإغريقية بل لأن توجهات فراكسينيتوم كانت برية ولم تهتم بالبحرية، وبالتالي كان من السهولة بمكان تفوق الأسطول البيزنطي[٢].

تطورت الظروف السياسية في المنطقة لصالح المسلمين بسبب الصراع علي عرش إيطاليا بين هيو وخصمه برانجار الثاني " Beranger " [٣] الهارب إلي ألمانيا والذي يعد العدة للعودة إلي إيطاليا لمنازعة هيو العرش عن طريق عبور ممرات الألب التي يسيطر عليها المسلمين ، الأمر الذي جعل هيو يفك الحصار البري عن مسلمي فراكسينيتوم ، وعقد معهم اتفاقا يمنعوا بموجبه مرور برانجار إلي إيطاليا مقابل مواصلة احتلال ممرات الألب [٤]، وخذل هيو صهره الأمبراطور البيزنطي، بعقده هذا الاتفاق مع المغاربة على مواصلة احتلال ممرات الألب [٥]، وعاد الأسطول البيزنطي إلي بلاده [٦]، وفقدت الأمبراطورية البيزنطية فرصة مد أنفها من جديد في المنطقة

يمقت ليو تبراند [٧] اتفاق هيو مع المسلمين المغاربة ويقول " كم من الحجاج المسيحيين ذبحوا وهم في طريقهم إلي الأماكن المقدسة بواسطة هؤلاء الملحدين بسبب هذه المعاهدة ، وهو وحده الله الذي كتب أسماءهم في كتاب الحياة ، وكم من الظلم أيها الملك هيو أن تفعل هذا للدفاع عن

---

(1) Scott," An abbot between cultures"op.cit,p.431.

(٢) لويس ، القوي البحرية ، ص٢٥١.

(٣) برنجار الثاني خصم هيو كان حاكما علي مقاطعات إيطاليا الشمالية وهو حفيد برنجار الأول الذي دخل روما وتوج ملكا علي إيطاليا سنة ٨٨٨م ، ثم توج أمبراطورا من سنة ٩١١-٩٢٤م ، دخل برنجار الثاني في صراع مع عدد من الخصوم أخطرهم هيو للوصول إلي عرش إيطاليا ، ولم يتسني له ذلك إلا بوفاة هيو سنة ٩٤٩م، راجع ، علي السيد ، صفحة من العلاقات الدبلوماسية ، ص٩.

(4) Liudprand, the work of Liudprand ,p. 186.

(٥) لويس ، القوي البحرية ، ص٢٣٤.

(6) Liudprand, the work of Liudprand ,p. 186,187.

(7) Ibid ,p. 187.

سلطانك " وتعرض هيو لانتقادات شديدة بسبب أفعاله من قبل معاصريه، حيث تم تشبيهه بملك إسرائيل القديمة آخاب، وحملوه مسئولية مقتل المئات إن لم يكن الآلاف من المسيحيين [١].

أعطي هذا الوضع الجديد لمسلمي فراكسينيتوم فرصة امتداد فتوحاتهم إلي الشمال ، حيث فتحوا مدينة جرونوبل " Grenoble " فيما بين سنة ٩٤٥-٩٥٤م ، واحتلوا واديها الخصيب [٢] ، وسجلت سجلات كنيسة سانت هوج في المدينة هذا الاحتلال دون تأريخه [٣]، ورحلوا عنها فيما بين سنتي ٩٦٥-٩٦٨م [٤]، ولجأ رهبانها إلي سانت دونات، حيث وجه إيزارن Isarn رئيس كنيسة جرونوبل إلي النبلاء والمحاربين للاشتراك في في القتال مقابل أن يمنح كل محارب قطعة أرض من التي تستخلص من يد المسلمين مكافأة له [٥].

ويري رينو [٦] أن من نتائج اتفاق المسلمين مع هيو هو استقرار المسلمين في المنطقة وزراعة الأرض، وهو أمر يبدو أنه قد حدث منذ أن وطأت أقدام المسلمين المنطقة خاصة بعد تزاوجهم من هؤلاء السكان؛ فعلمية التزواج هي نوع من الاستقرار يتبعة البحث عن وسيلة للعيش بدلا من حياة الغزو الدائم، كما لا يمكن القبول بفكرة أن هذا الاستقرار فرض عليهم القبول ببعض الضرائب البسيطة من قبل الأمراء المحليين، في حين أن هؤلاء الأمراء كانوا يتقربون إليهم .

سابعا : الصدام مع الأمبراطور أوتو الأول

أول سوء تقدير لمسلمي فراكسينيتوم هو هجومهم على أعالي نهر الراين، وهي مناطق من أملاك الأمبراطور أوتو الأول، الذي أحيا الأمبراطورية الرومانية المقدسة ، وأعلن نفسه أمبراطورا عام٣٤١هـ/ ٩٥٢م ، وضم إيطاليا بإقصاء برانجار الثاني وولده أدلبرت سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م [٧]

(1) Ibidem.

(٢) رينو ، فتوحات ، ص ١٦٩ - ١٧٠.

(٣) رينو ، فتوحات ، ص١٨٤.

(4) Manfred Wenner ," the Arab- Muslim",op.cit , p.74.

(٥) رينو ، فتوحات ، ص ١٦٩ - ١٧٠.

(٦) رينو ، فتوحات ، ص ١٦٩.

(٧) علي أحمد السيد ، صفحة من العلاقات الدبلوماسية البيزنطية ، ص١٤.

، وبدأ أوتو الأول القيام بدور أكبر في رعاية المسيحيين المحليين، وتشجيع المقاومة ضد المسلمين الذين تخلوا عن سياستهم الهجومية وأجبروا على الدفاع منذ سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥٠م فصاعدا ، فضلا عن مد علاقات ودية مع الخلافة الأندلسية .

عولت البابوية علي شخصية أوتو القوية - وهو الذي نصب نفسه محاميا عن القضية المسيحية - في مخاطبة الناصر بمنع المسلمين من الهجوم علي أملاك الأمبراطورية [١]، وينقل بروفنسال [٢] عن مصدر لاتيني لمؤرخ ديري من تلاميذ الأسقف يوحنا سفير أوتو إلي خليفة قرطبة الناصر يدعي خوان الذي سجل رحلة الراهب يوحنا إلي الناصر قوله : بأن العاهل السكسوني أوتو وجه تحذيرات محددة للناصر بشأن الأعمال المشينة التي اقترفها قراصنة الأندلس علي امتداد سواحل البحر المتوسط وماوراءها، وفي جنوبي فرنسا، وشمالي إيطاليا وسويسرا معتبرا أن مسلمي جنوبي فرنسا ضمن تبعية الناصر، واعتبر أوتو أن الأخير مسؤولا عن أعمال التخريب التي يقومون بها [٣].

أما ابن عذاري [٤] فيشير إلي سفارة أوتو إلي الناصر في أحداث سنة ٣٤٢هـ/٩٥٣م ، ولم يتعرض لفحواها، ويلف الغموض كل ما يتعلق بتاريخ مسلمي فراكسينيتوم في المصادر العربية ، فما بالك بسفارة كل ما أورده ابن عذاري عنها أنها من ملك الصقالبة، ورد الناصر برسالة تنطوي علي كثير من الغطرسة بحسب بروفنسال [٥]، أكد فيها الناصر لسفير أتو الأول يوحنا علي أنه لا يدعم المسلمين في جنوبي البروفانس، خاصة أن الأحداث التى وقعت بعد ذلك سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م من اتحاد زعماء البروفانس ضد فراكسينيتوم تؤكد عدم تلقى المسلمين أي مساعدات من الأندلس [٦].

---

(١) رينو ، فتوحات ، ص١٧٥.

(٢) تاريخ أسبانيا الأسلامية من الفتح إلي سقوط الخلافة القرطبية ٧١١-١٠٣١م ، ترجمة : علي عبدالرءوف البمبي وأخرون ، المشروع القومي للترجمة ، المجلس الأعلي للثقافة ، القاهرة سنة ٢٠٠٠م ، ص٤٠٨- ٤٠٩

(٣) أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص٢١٧.

(٤) " قدمت رسل هوتو ملك الصقالبة علي الناصر " البيان المغرب ، ٢ص٢١٨.

(٥) تاريخ أسبانيا الإسلامية ، ص٤٠٨- ٤٠٩.

(6) Ballan, Fraxinetum,op.cit,p.67.

ثامنا : قضية القديس مايولوس "Maiolus" وبداية النهاية

أسر مسلمي فراكسينيتوم المغاربة [١] في ليلة ٢١/٢٢ يوليو من سنة ٩٧٢م القديس مايولوس رئيس دير كلوني في بروجاندي وحاشيته ومجموعة من الحجاج كانت في معيته أثناء عبورهم ممر سانت برنارد في غرب الألب، في طريق عودتهم من روما، حيث اتجه إلي بييمونت وقرر أن يمر بجبل جنيف وبوادي دوفيني، حيث كان المسلمون يحتلون المنطقة بين جاب " Gap" وأمبرون، ويسيطرون علي المرتفعات التي تشرف علي وادي دراك " Drac "في مقابل جسر أورسيير" Pont J' orcieres"؛ فلما وصل ركب القديس إلي ضفاف نهر دراك، في مكان ضيق بين النهر والجبل انهالت عليهم رماح المسلمين الذين كانوا يحتلوا تلك المرتفعات وكان عددهم يقترب من ألف ، وتم أسر القديس وركبه [٢] .

لم يدرك القديس مايولوس في البداية أن خاطفوه مسلمين؛ فعاجلهم بالدعوة إلي المسيحية مما أثار حفيظتهم مؤقتا [٣]، وعندما تيقن أنه بأيدي محاربين مسلمين قرر أن يراسل إخوانه من رجال الدين المسيحي وقادة المجتمع في بروجاندي طلبا للفداء، ودبج رسالته القصيرة وحملها راهب من مرافقيه المخطوفين أطلق سراحه لتسليمها إلي إخوانه في بروجاندي، وفي كلمات قليلة جدا وصف رئيس الدير صعوبة وضعه المحفوف بالمخاطر وحياته المهددة [٤]، وكان دير كلوني أكبر أديرة أوربا وأكثرها أوقافا آنذاك، وأعظمها مكانة وهيبة؛ فقد حاز اعجاب رجال الكنيسة وإخلاص المدنيين معا، وكانت الحياة الدينية التي يلقنها تحتل مكانة القلب في نفوس المتدينين آنذاك، ووصل رئيس دير كلوني خلال نصف القرن١١ الحادي عشر الميلادي منزلة أكبر رجل دولة في أوربا [٥].

فقد النص الأصلي لرسالة الفدية الخاصة بمايولوس، لكن حفظته سير القديسين التي تناولت

---

(1) the work of Liudprand ,p. 187.

(٢) رينو ، فتوحات ، ص١٨٥-١٨٦.

(3) Scott G. Bruce," An abbot between cultures"op.cit,p.427.

(4) Ibid,p.432.

(٥) كانتور ، التاريخ الوسيط ، ١ص٣٠٣.

حادثة الخطف الكلوني، وظهر أقرب نص لرسالة لمايولوس فيما سنة ١٠٠٠-١٠١٠م أوردها "Syrus كاتب سيرة رئيس دير كلوني، حيث يعرض للملابسات التي تمت وقت تحرير رسالة الفدية من جانب مايولوس، وينقل نص الرسالة التي تقول " يرسل مايولوس الأسير البائس المصفد في السلاسل تحياته للأخوة واللوردات ورهبان كلوني، لقد حاصرتني جحافل بليعال[١]" "Belial، ونصبت فخاخ الموت لي، أرجو إرسال مبلغ الفدية لي ولهؤلاء الأسري المرافقين لي [٢] " .

ظهرت ترجمة ثانية للرسالة حوالي ١٠٤٠م مع اختلافات طفيفه لكنها مهمه أوردها المؤرخ الديري Rodulphus Glaber، وظهرت في خمس كتب تاريخية كتبت في عهد خليفة مايولوس الأسقف أوديلو Odilo رئيس دير كلوني ، تقول الترجمة "يرسل مايولوس البائس والأسير تحياته للورداته وإخوانه ورهبان كلوني، لقد حاصرتني جحافل بليعال Belial ولقد نصبت فخاخ الموت لي، لذلك أرجو بكل الوسائل سرعة إرسال الفدية لي ولكل الأسري المرافقين [٣] " الفرق بين النصين لا يغير مضمون الرسالة لكن في النص الثاني يناشد إخوانه سرعة إرسال الفدية.

تزدوج أهمية هذه الوثيقة لأنها السجل المعاصر الوحيد عن حادث الاختطاف، علاوة علي أنها توضح التوصيف الديني لمعارضي المسيحية؛ حيث يشير استخدام هذه الكلمة الشهيرة والقديمة "بليعال" في وصف مسلمي فراكسينيتوم إلي اعتبار خاطفيه كأتباع نظام منافس في الاعتقاد يتعارض مع المسيحية، فأطلق مايولوس عليهم نفس المصطلح الذي كان يطلق علي الهراطقة واليهود، ويضعهم في مصاف خصوم الإيمان المسيحي. استعارة مايولوس كانت غير مسبوقة في التقاليد المسيحية عند الكتابة عن الإسلام في العصور الوسطي المبكرة، مما يوضح الحنق والكراهية الذي يكرسها هذا المصطلح خاصة عندما ينسب إلي شخصية دينية هامة، وأحد أهم القادة الدينيين في عصره، ويتقلد موقعا فريدا يشكل ويؤثر في وجدان القادة ورجال الدين علي حد سواء [٤]، مما تسبب في حشد المجتمع ضد المسلمين .

---

(١) بليعال هو أسم قديم يطلق مجازيا علي الخصوم الدينيين للمسيحية خلال العصور الوسطي ، ولا يوجد إجماع حول اشتقاق هذه الكلمة ، لكن علي العموم تفهم عاي أنها حقير ، تافه ، شرير وهو لفظ توراتي يطلق علي الكيان الذي يعارض مشيئة الرب ، راجع Scott G. Bruce," An abbot between cultures "op.cit,pp.٤٣٦,٤٣٧,٤٣٨ .

(2)Ibid,p.433.

(3) Ibidem.

(4) Scott G. Bruce," An abbot between cultures"op.cit,pp.439,435 .

وصلت رسالة مايولوس من مكان الأسر إلي إخوانه في بروجاندي، وبناء عليها قام الرهبان بسرعة بجمع الحلي من كنيستهم، وتجميع مبلغ ألف جنيه فضة وفقا لـ Rodulfus Glaber لضمان إطلاق سراح والدهم الروحي ، ونجحت جهودهم في تحرر مايولوس ورفاقه [١] لم تنته القصة عند ذلك الحد؛ فبعد وفاة مايولوس سنة ٩٩٤م رحبت الطوائف المسيحية باعتباره قديس يستطيع التوسط بينهم وبين الله نيابة عنهم ، فيما بين عامي ١٠٠٠و١١٥٠م ما لا يقل عن خمس مؤلفين كلونيين تناولوا حكاية اختطاف رئيس الدير وتأريخ أعماله وسرد فضائله [٢].

أثارت جرأة الخاطفين غضب الزعماء المحليين وحفزتهم للأتحاد من أجل طرد المسلمين من المنطقة، وجاء في سيرة مايولوس " بعد حصولهم علي الفدية من النبلاء مقابل فك أسر الرجل المقدس كان عليهم أن يعانوا كل يوم المزيد والمزيد من عدم الراحة، لدرجة أنهم اتخذوا طريقهم إلي مكانهم في فراكسينيتوم من خلال الغابات " حيث الطرق الوعرة بعيدا عن عيون الشعب المشحون بقضية مايولوس [٣]، وخلال عام من الحادث نظم الكونت وليم الأول كونت آرل وحلفائه جيشا خرب فراكسينيتوم ومحي الوجود الإسلامي من بروفانس وممرات الألب [٤].

أسدلت قضية أسر القديس مايولوس الستار علي قصة المسلمين في أوربا مغاربة وعرب ، حيث بدأ خروج المسلمين من دوفيني أولا ، ثم بروفانس بعد ذلك، وقاد حركة طرد المسلمين نبيل يدعي بوبون " Bobon " في نواحي منطقة سيسترون " Sisteron " من بلاد دوفيني حيث بني حصنا في المنطقة بجانب حصن المسلمين الذي يقع علي قمة جبل بيترة امبيا "Petra-Empia"، وانتهز فرصة غضب الناس لأسر مايولوس وتعصبهم للدين، خاصة العامة، وإن لم تفلح قواته في اقتحام الحصن فإن الخيانة حققت مأربه؛ إذ ساعدهم حارس باب الحصن الذي تعرضت زوجته لحادث اغتصاب من جانب قائد الحصن.

دخل بوبون ورجاله إلي الحصن علي حين غرة، وذبحوا ما فيه من المسلمين، ماعدا الذين

---

(1) Kees versteegh ," the Arab Presence in France"op.cit,p.374.

(2) Scott G. Bruce, An abbot between cultures"op.cit,,p.427.

(3) Kees versteegh , the Arab Presence in France"op.cit,,p.374.

(4) Scott G. Bruce, An abbot between cultures"op.cit,,p.432 .

عرضوا أن يعتنقوا المسيحية وكان قائد الحصن من جانب هؤلاء [١]، وفي مدينة جاب التي ظل المسلمون فيها مدة طويلة تزعم رجل يدعي جيوم تخليص المنطقة من حكمهم ، وكانت المكافأة كبيرة للمشاركين ، وهي توزيع نصف المدينة ونصف الأراضي التابعة لها علي المقاتلين، والنصف الآخر للأسقف وللكنائس التابعة لأسقفيته [٢].

تزعم وليام الأول دوق آرل من بروفانس تحفيز الارستقراطيين من شمال إيطاليا والبروفانس وسبتمانيا لقتال المسلمين وطردهم، وانضم إليه الكونت أردنيو "Arduin" كونت تورين [٣] ، والكونت روبالد "Robald" كونت بروفانس ، وحاصرت قوات الفرنجة المسلمين في تورا تورا في نواحي دراجينان" Draginon " ببروفانس العليا التي تقع شمال غرب فراكسينيتوم بـ٣٣كم[٤]، وعندما علم المسلمين اجتمعوا ودافعوا عن أنفسهم في صفوف متراصة نظام الكراديس ، لكنهم انهزموا ولجأوا إلي حصن منيع ، فلاحقهم المسيحيون وضيقوا عليهم الخناق واضطروهم إلي الهروب ليلا إلي غابة مجاورة ؛ فطاردوهم وتغلبوا عليهم وقتلوا منهم الكثير وأخذوا الباقي أسري [٥].

تم تدمير قوة المسلمين خلال صيف٣٦٢هـ/ ٩٧٢م قبل التحرك إلى قاعدتهم الرئيسية في فراكسينيتوم التى لم تتلقى أي تعزيزات من الأندلس التي كانت في ذلك الوقت في أوج قوتها[٦]، وتم طرد البعض، فيما أرغم الأخرون علي التحول إلي المسيحية، وتم بيع البعض كعبيد، وبقي قليليون تزوجوا هناك وأستمروا في الإقامة [٧]، ومن المرجح أن يكون بعض المسلمين قد لجأوا إلي الأندلس وإلي صقلية وكذلك سردينيا ، وتنصر البعض منهم واندمجوا مع الأهالي مع مرور الزمن، والبعض الأخر تمسكوا بإسلامهم ولكنهم تحولوا إلي رقيق يعمل في أراضي الكنائس والنبلاء والاغنياء [٨].

---

(١) رينو ، فتوحات ، ص١٨٧-١٨٨.

(٢) رينو ، نفسه، ص١٨٨.

(٣) بروفنسال ، تاريخ أسبانيا الإسلامية ، ص٤٢٨.

(٤) رينو ، فتوحات ، ص١٨٨-١٨٩.

(5) Manfred Wenner ," the Arab- Muslim"op.cit , p.62.

(6) Mohammad Ballan, "Fraxinetum"op.cit,p.32.

(7) Manfred Wenner ," the Arab- Muslim , op.cit,p.62.

(٨) رينو ، فتوحات ، ص١٩٠.

وزع جيوم -الذي أطلق عليه بعد وفاته لقب أبو الوطن - [١] ما غنمه من المسلمين علي قادته الذين برزوا في المعركة [٢] ، وأشهر هؤلاء هو جيلين دو جريمالدي " Gillin de Grimaldi"وهو من أهل جنوه ، حيث اقطعه جيوم الأراضي الواقعة علي خليج سانترويز -لاحظ ما قاله ليوتبراند عن تلك المنطقة عند دخول المسلمين وما آلت إليه حال خروجهم منها - ، واستولت الكنيسة علي حصة مهمة من الأراضي التي جلي عنها المسلمون، وذلك لأن رجال الدين المسيحي كانوا قد تضرروا أكثر من غيرهم من الغارات التي كان يشنها العرب كما كانوا دائما في مقدمة الثائرين، وممن حازوا نصيبا كبيرا من هذه الأملاك أسقف فريجوس، وأسقف نيس، وفي طولون وقع الكثير من النزعات والخصومات بسبب التهافت علي امتلاك الأراضي التى جلي عنها المسلمون[٣].

اختلفت الروايات حول السنة التي سقطت فيها فراكسينيتوم حيث تدور بين ٩٧٢-٩٨٣م لكن بالتأكيد كانت بداية النهاية هي سنة ٩٧٢م عندما أسر المسلمين القديس مايولوس الذي كانت رسالته لحكام المنطقة الشرارة الأولي لتوحيد الخصوم ولما كان لرجال الدين هذه الهالة المقدسة سارع الحكام باستغلال الفرصة ودعوا الشعب لتخليص بلادهم من المسلمين .

الخلاصة

أسفرت الغزوات البحرية التي انطلقت من الأندلس عن تأسيس قاعدة للمسلمين في فراكسينيتوم، وظلت صامدة مدة تزيد عن ثمانين عاما، أقام فيها المسلمون مجتمعا مدنيا، وتزوجوا من نساء المنطقة واستقر البعض منهم وألقي سلاحه، وبدأ في إقامة مستعمرات زراعية من خلال تمهيد الأرض واستقدام زراعات من الشمال الأفريقي مثل النخيل والقمح، والبعض الأخر توجه إلي استغلال الغابات، وأقام بعض الصناعات الصغيرة علي أشجارها مثل القطران والفلين، ومن ثم تم تصدير تلك المنتجات إلي الأندلس.

ظهر الوجود المغاربي واضحا في الرعيل الأول الذي أسس فراكسينيتوم بجانب إخوانهم من

---

(١) رينو ، نفسه ، ص١٩٢.

(2) Mohammad Ballan, "Fraxinetum"op.cit,p.32.

(٣) رينو ، فتوحات ، ص١٩١.

بعض العرب والأسبان والمولدين، وترك المغاربة بعد خروجهم من جنوبي فرنسا آثار ومسميات تدلل علي كثرتهم في المنطقة، حيث سميت مناطق كثيرة بأسمائهم، وينسب ليو تبراند صاحب الرواية المعاصرة للأحداث في المنطقة كل الأعمال والأحداث إلي المغاربة لما لهم من تواجد مكثف ضمن المجموعات التي استقرت وأقامت مجتمعات جنوبي فرنسا.

طرحت الدراسة إشكالية شرعية فراكسينيتوم وناقشت تبعيتها لقرطبة التي كانت تتاجر بها سياسيا دون تقديم إي دعم مادي لها، وفي نفس الوقت لم تجرم عملياتهم تجاه الفرنجة، واعتبرها البعض من الدول الإسلامية الحدودية أو دولة رباط مثلها مثل كريت وصقلية وباري مع عدم وجود مادة تاريخية تؤكد ذلك، بيد أن المقارنة كانت هي سيد الموقف، وإخضاع قضية ما للمقارنة لا بد من التشابه الكبير بين طرفي المقارنة الأمر الذي لم يكن متوفرا بين فراكسينيتوم وغيرها من الدول الأخري، لذلك خلصت الدراسة إلي أن هذه الدولة لم تكن في يوم الأيام تابعة سياسيا لقرطبة ولا الأخيرة خططت لإقامتها بين ظهراني الفرنجة، بل هي دولة صنعتها الظروف السياسية التي ألمت بالدولة الأموية في الأندلس وكذلك بدولة الفرنجة.

أسفرت العمليات العسكرية التي قام بها المسلمون علي ممرات جبال الألب عن غضب حكام المنطقة فضلا عن القادة الدينيين الذين كانوا علي الدوام مستهدفين، وكانت بداية النهاية للمسلمين في المنطقة هو أسر الأسقف مايولوس رئيس دير كلوني ورفاقه علي ممر سان برنار وطلب فدية؛ فبعد دفع الفدية وإطلاق سراحة ماإنفك يدعو الكونتات واللوردات وزعماء البلاد لتخليص بلادهم من المسلمين، ولاقت الدعوة قبولا، واتحد المتنافسون لهذا الهدف، واستطاعوا طرد الكثير منهم، وبقي البعض الأخر بعد أن تنصر، وترك المسلمون خلفهم بعض التأثيرات الثقافية والاجتماعية التي ظلت قائمة لفترة طويلة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، ١٩٩٤م.

الاصطخري ، المسالك والممالك ، To PDF: www.al-mostafa.com

البكري ، أبو عبيد الله ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، مكتبة المثني ، بغداد.

ابن حوقل ، صورة الأرض ، دار صادر ، بيروت طبعة مصورة عن ليدن ١٩٣٨م .

ابن حيان ، المقتبس ،تحقيق : محمود علي مكي ،مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية ، الرياض ٢٠٠٣م.

ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق نشر ب. شالميتا ، المعهد الأسباني العربي للثقافة بالاشتراك مع كلية الآداب بالرباط ، مدريد ١٩٧٩م

ابن الفقيه الهمداني ، مختصر تاريخ البلدان ، طبع ليدن ١٨٨٥م.

مجهول ، كتبه سنة ٣٧٢هـ ، حدود العالم من المشرق إلي المغرب ، تحقيق : يوسف الهادي، دار الثقافة للنشر ، القاهرة ١٩٩٩م .

Annals of ST- Bertin, ninth-century histories, volume 1 ,Translated and annotated by Janet L. Nelson, Manchester University 1981 .

The Annals of Fulda: Ninth-century Histories, Translated by Timothy Reuter , Manchester University 1992.

ANNALES DE SAINT-BERTIN - ANNALES DE METZ 840-868dans collection Des memoires A l, Histoire De France , M. Guizot, Paris 1824.

Liudprand, the work of Liudprand of Cremona ,translated by F.A.Wright, London 1930

Pertz, Georgius Heinricus , chronicon Novaliciense, Hannoverae 1846.

ثانيا : المراجع

أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية

أرسلان ، شكيب، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، دار الحياة ، بيروت ١٩٦٦م.

إميل لودفيغ ، البحر التوسط ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠١٠م.

بروفنسال ،تاريخ أسبانيا المسيحية ، من الفتح إلي سقوط الخلافة القرطبية ٧١١-١٠٣١م ، ترجمة : علي عبدالرءوف البمبي وأخرون ، المشروع القومي للترجمة ، المجلس الأعلي للثقافة ، القاهرة سنة ٢٠٠٠م .

جوزيف رينو ، الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا في القرن الثامن والتاسع والعاشر الميلادي ، ترجمة: إسماعيل العربي ، دار الحداثة بيروت بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية ،ط١ ١٩٨٤م.

حسن أميلي ،" مسألة الجهاد البحري بين القرصنة ولصوصية البحر البحر في تاريخ المغرب "، جامعة الحسن الثاني – المحمدية ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، سلسلة ندوات رقم ٧.

حسين مؤنس ،" المسلمون في حوض البحر المتوسط إلي الحروب الصليبية " ، مجلة الجمعية ا لمصرية للدراسات التاريخية ، مجلد ٤ لسنة ١٩٥٢م.

طرخان ، إبراهيم علي ، المسلمون في أوربا في العصور الوسطي، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ١٩٦٦.

علي أحمد السيد ، صفحة من العلاقات الدبلوماسية الألمانية البيزنطية ، الدار المصرية ، الإسكندرية ١٩٩٩م .

فرنان بروديل ، المتوسط والعالم المتوسطي ، ترجمة واختصار ، مروان أبي سمرا ، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٩٣م.

كانتور . نورمان ، التاريخ الوسيط ، ترجمة : قاسم عبده قاسم ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤م .

لويس ارشبيالد ، القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة : أحمد محمد عيسي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٠م .

مارمول كرباخال ، وقائع ثورة الموريسكيين ، ترجمة : وسام محمد جزر ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ٢٠١٢م .

محمد خالد مصطفي المؤمني ،" الصراع بين الدين والدولة في عصر الحكم الربضي" ، دراسات العلوم الانسانية الاجتماعية الجامعة الأردنية م٣٦، العدد ٣ لعام ٢٠٠٩م.

محمد عباسة ، العلاقات الاجتماعية بين العرب والفرنجة وتأثيرها علي الأدب والفكر ، مجلة حوليات التراث الجزائر ٢٠٠٥م.

محمد مرسي الشيخ ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨١م.

يسري الجوهري ، شمال أفريقيا دراسة في الجغرافيا الإقليمية ، الهيئة العامة للتأليف والنشر، القاهرة بدون تاريخ .

- Ballan Mohammad, "Fraxinetum: an Islamic frontier state in tenth-century Provence", Journal of Medieval and Renaissance Studies,vol.412010.

.Ganshof, F.l, " notes sur les ports de provence du v111e au xe siècle" revue historique 183, 1938.

Kees versteegh , "the Arab presence in France and Switzerland in the 10 th century" , Arabica, tome xxxv11,1990 .

Lopes, Robert s., medieval trade in the Mediterranean world, oxford un - versity , London 1955.

Manfred W. Wenner," the Arab-Muslim presence in medieval central E - rope", Journal of middle east studies,12 1980 .

- Pryor, John H., Geography, and war, studies in the maritime history of the Mediterranean 649-1571,Cambridge university,1992.

SEMPLE,Ellen Churchill, "The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin and Its Northern Breaches as Factors in History", Annals of the A - sociation of American Geographers , Vol. 5 1915.

Scott G. Bruce, An abbot between cultures : "Maiolus of Cluny considers the Muslims of La Garde-Freinet", early medieval Europe,2007,154.

http://www.marefa.org/index.php

- http://ar.wikipedia.org/wiki

http://en.wikipedia.org/wiki/Pine_tar

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رقم الإيداع / ٢٠١٩٩ / ٢٠١٩م

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-322- 418-9

مطبعة صحوة

تليفون وفاكس / ٣٣٨٧١٦٩٣ - ٠١٠٠١٠٠٩٦٧٨ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دكتور عبد الرحمن بشير

الحوض الغربى للمتوسط : عصر النفوذ الإسلامى

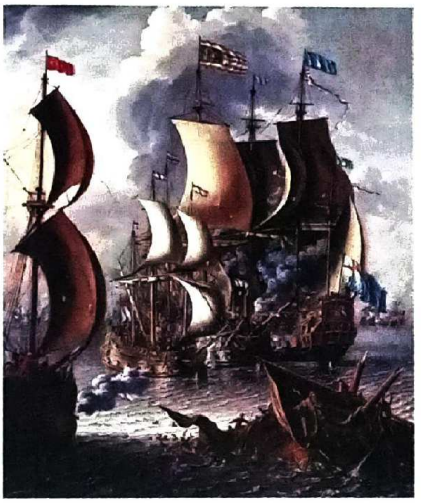

من الحرب البحرية ضد القراصنة المغاربة
رسـم : Laureys a Castro

للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDUS

ISBN 978-977-322-418-9